أصول المعرفة

في

شرح دعاء عرفة

للإمام الحسين "ع"

عباس أحمد الريس الدرازي البحراني

الجزء الثالث

دار البلاغة

مكتبة
مؤمن قريش

لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)

moamenquraish.blogspot.com

أُصُولُ المَعْرِفَة

فِي

شَرْحِ دُعَاءِ عَرَفَة

أُصُولُ المَعْرِفَة

في

شَرح دُعَاءِ عَرَفَة

لِلإمَامِ الحُسَين "ع"

عبّاس أحمد الريس الدرّازي البحراني

الجُزءُ الثَالِث

دَارُ البَلاغَة

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَة

الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م

دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع .

هاتف وفاكس: ٣١٧٤٢٥، ٣١٧٤٢٥-٨٢٠٣٢٠-٨٣٤٢٦٥ - ص.ب: ٢٥/١٦ - تلكس: ٢٢٥٩٧ بلاغ - بيروت - لبنان

بِسـم اللهِ الـرَّحمٰـنِ الـرَّحِيـم

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّه كَانَ تَوَّاباً﴾ .

صدق الله العلي العظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

خطبة الكتاب

الحمد لله الذي ألهمنا محبة أوليائه ، ومجانبة أعدائه ، وأوجب علينا طاعتهم بعد طاعته[1] ، وأكرمنا بولاية محمد وذريته ، ووعدنا بمحبتهم الدرجات العالية[2] وتوعد على عداوتهم ناراً حامية .

أحمده حمد من رضي بما قسم ، وقنع بما آتاه من النعم ، وأشكره على ما تفضل وأجمل ، وأثني عليه لما أفاض من النوال فأكمل . عمّ فضله كل موجود ، فهو الغاية في المقصود ، ونهاية الجود ، سبحانه وتعالى عمّا يشركون ، وتبارك عما يقول الظالمون .

سبحانه من إله واحد أحدٍ — تعنو الملوك له طوعاً وارغاما
فهو الذي خلق الإنسان من علق — وأحكم الخلق رب الخلق إحكاماً
وقد أفاض من الخيرات عن كرم — وكيف لا وهو يعطي الخير إكراماً
فاستنطق الدود في الصم الصلاد فقد — قامت شهوداً على ما قلت إعلاماً

---

(١) إن طاعة المولى تأتي بعد معرفته ، فلا يمكن أن تكون الطاعة له إلاّ بعد المعرفة ؛ لأن قصد التقرب بالعبادة إليه سبحانه لا تتأتى إلاّ بالمعرفة .

(٢) المقصود بالدرجات العالية هي الجنة ، وهي مقياس الطاعة وثمرتها ، والنتيجة التي يتوخاها المكلف وهي الفرض الأسمى .

تكفل الرازق الوهاب حين برىٰ هذا الوجود بما يحتاج إذ قاما

وأشهد ألاّ إله إلاّ الله كلمة مخلص بمعناها ومتيقن ، ومؤمن بما تعني ومطمئن . كلمة تملأ الدهر توحيداً[٣] ، وتعيد ما أخلق من ديباجتيه[٤] جديداً ، وتجلو صدأ الريب والشك عن القلوب ، وتحقق لقائلها كل مطلوب .

وأشهد أن محمداً ـ صلى الله عليه وآله ـ عبده وحبيبه ، ورسوله إلى العباد ونجيبه ، وهو مدينة العلم ونهاية الحلم ، وسيد سادات الأمم ، ومنتهىٰ الجود والكرم . جاهد في الله حق الجهاد ، حتى وطّد حكم الله في البلاد ، وبسطه على العباد ، فلم يفرق فيه بين الأبيض والأسود ، ولا بين الحر والعبد ، فهو في الحرب قاصم الأقران ، وفي المحراب راهب الرهبان وفي المنبر أمير البيان ، صلى الله عليه ماسَّح غيث وهمع ، وما ناح ورقٌ وسجع[٥] .

صلّى الإله عليه ما هب الصبا وترنحت أغصان أشجار الحمىٰ
وتعطرت بنسيمه تلك الربا بعبير ورد كان قبل مكتما
أخلاقه ندٌ يفوح بمجمر بل تلكم كانت أرق وأنعما

---

(٣) كلمة التوحيد هي قول (لا إله إلاّ الله) وهي الحصن الحصين . أما كونها تملأ الدهر فإن هذه الكلمة من المفروض أن تعم الكون بأسره إلى أن تقوم الساعة .

(٤) الديباجتان الخدان ، ويقال هما اللتان فوق الخدين قال ابن مقبل يصف البعير:

يخدى بها كل موّار مناكبه يجري بديباجتيه الرشح مرتدعُ

وأخلق الدهر ديباجتيه يعني أتى عليه الدهر من الكبر فتقلص وجهه .

(٥) السجع هو توافق أواخر الجمل كالقوافي في الشعر العمودي وهذا النوع من الأدب قد ظهر في العصر العباسي ، وأول من استعمل هذا النوع من الأدب هو بديع الزمان الهمداني ثم لحقه تلميذه أبو القاسم الحريري فأصبح متداولاً ، وهذا النوع يعطي الكلام ذوقاً غريباً ينشد إليه السامع . وفي هذا المعنى .

قــد قــال فيــه الله إنــك رحمــة　　وبغيـر نهجـك كـائن لن يـرحمـا
فـاصدع بمـا يأتيـك إنـك صـادق　　في مـا تقـول وكـان ربّـك أكـرمـا

وعلى آله الذين عصمهم من الزلل ، وجنبهم عن الخطل ، وآسنهم من الغتن ، وأحيا بهم السنن ، وأمات بهم البدع ، وأنقذ بهم المجتمع ، فهم في الدهر غرته ، وفي الكون زينته ، فعملوا بأمره ، وأقاموا على حفظ سره ، فهم ملجأ الدجي ، وأمل الراجي ، ونور الدياجي ، أشادوا صرح الدين القويم ، وسلكوا بالنـاس إلى الصراط المستقيم ، ووضعـوا معالم الطريق اللاحب ، وأناروا البصائر بعد تلك الغياهب ، وأفرخوا روع الناس بعـد تلك المتاعب . وعلّمـوهم ببلاغتهم مـاذا يقولـون ، وإلى الله كيف يتضرعون ، فكانوا يخرقون بـدعائهم الحجب(٦) ، ويهـزمون بـه الجيش اللجب(٧) سحـروا الناس بـالبيان ، وأوصلوهم بـه إلى شاطىء الأمـان ، وبلّغوهم قمة الإيمان .

فصلّى عـليهـم ربّهـم كلمـا أتـىٰ　　بمحفــل خيــر ذكــرهــم وتــرددا
أرىٰ قـربهم نعمىٰ وبعـدهم عمىً　　لأنــهم أهــل الــمــودة والــهــدى
أشادوا صروح المجد فالمجد قائم　　وخطوا طريق الفضل والجود والندى
فهم سادة الفضل الـذين إذا انتموا　　إلى جـدهم فالفضـل فيهم تجسدا
ومـا كـل ذي فضــل يشـاد بفضله　　ولا السيف يفري الهام إلّا مجردا(٨)

على أن مـا جاء على لســان أبي الشهداء ، ورمـز الإبـاء ، وكبش

---

(٦) الحجب الموانع التي تحول دون استجابة الدعاء ، لأن الإستجابة مشروطة بذلك ، فإن الذنوب تحول بين الإنسان وبين التقرب إلى الله ، وهي تبعده عن الوصول إلى الغاية السامية ومنها استجابة الدعاء .
(٧) الجيش اللجب كناية عن أن القوة بسلاح الدعاء إذا تحققت شروطه أتى بنتائج عجيبة .
(٨) المقصود هو أن الإنسان لا يعرف إلّا بعد اشتهاره بصفاته سواء كانت خيراً أو شراً .

الفداء[٩] ، الحسين القتيل ، وصاحب الخطب الجليل ، في ذلك اليوم الأغر ، والمكان الأقفر ، هو من أعظم تلك المصاديق القليلة ، والمرايا الصقيلة[١٠] ، التي تنعكس على صفحاتها القلوب الظامئة ، والنفوس الهادئة ، فهو على ما تضمن من علوم طافحة[١١] ، ومعان سافحه[١٢] قد اشتمل على نكات أدبية ، وأسرار بلاغية ، بلغت الذروة في الفصاحة من الكلام ، في كلمات قد أحكمت أي إحكام ، وانسجمت معانيها أي إنسجام ، ولا غرو في ذلك فهو الإمام إبن الإمام .

إمام أصاب الدين فيه مراده وحقق ما يصبو له من ذرى المجد
أليس هو ابن المصطفى خامس الكسا ومدحهم تشدو به سورة الحمد
أقام بيوم الطف ميل قناته وحقق نصر الحق بالصارم الهندي
فقامت له الدنيا وصفق مجدها لذاك الحفاظ المر والواقع الجدّي
والوى لواء الكفر والكفر قائم فأقعده رغماً على أنف مرتدّ
فما كل قتال يعيش بفعله وما كل مقتول يغيب في اللحد
ولكنه الذكر الجميل فإن يمت قوام الفتن فالذكر يعمر من بعد

وناهيك بهذا الذكر الجميل ، والمجد الأمثل ، الذي تحدى الزمن المديد ، وبعث الدين من جديد . نسأل الله أن يثبت خطانا على خطاه ،

(٩) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ سورة الصافات ، آية : ١٠٧ . ومعناه أن الحسين فدى نفسه لِدين جده .

(١٠) الطافحة : التي لا كدر فيها ؛ لأن المرآة المصقولة لا تمتص كثيراً من الأشعة ؛ ولهذا تعكسها كاملة على عين الرائي فتحس بوضوح الأشياء التي تعكسها تلك المرآة .

(١١) الصافحة : الظاهرة ؛ لأن الأجسام إذا طفحت على سطح الماء ظهرت للرائي ، بخلاف الأجسام الراسبة فإن الماء يغمرها فيبعدها عن عين الرائي .

(١٢) السافحة الزائدة على الألفاظ ، ومعناه أن هذه العبارات الواردة في الدعاء تحتمل توجيهات عدة .

وأن نأخذ مما أعطاه ، وأن ينير قلوبنا بنـور الإيمان ، ويهـدينا إلى طـريق الأمان ، إنه كريم منان والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وآلـه الغر الميامين .

الخميس : الثامن من شهر شوال سنة ١٤١٠هـ

الموافق : الثالث من مايو ١٩٩٠م

البحرين ـ الدراز

عباس أحمد الريس الدرازي

قال عليه السلام :

[يَا مَوْلاَيَ ، أَنْتَ الَّذي أَنْعَمْتَ ، أَنْتَ الَّذي أَحْسَنْتَ ، أَنْتَ الَّذي أَجْمَلْتَ ، أَنْتَ الَّـذي أَفْضَلْتَ ، أَنْتَ الَّذي مَنَنْتَ ، أَنْتَ الَّـذي أَكْمَلْتَ ، أَنْتَ الَّذي رَزَقْتَ ، أَنْتَ الَّذي أَعْـطَيْتَ ، أَنْتَ الَّذي أَغْنَيْتَ ، أَنْتَ الَّـذي أَقْنَيْتَ ، أَنْتَ الَّذي آوَيْتَ ، أَنْتَ الَّذي كَفَيْتَ ، أَنْتَ الَّذي هَدَيْتَ ، أَنْتَ الَّـذي عَصَمْتَ ، أَنْتَ الَّـذي سَتَـرْتَ ، أَنْتَ الَّـذي غَفَـرْتَ ، أَنْتَ الَّـذي أَقَلْتَ ، أَنْتَ الَّذي مَكَّنْتَ ، أَنْتَ الَّذي أَعْزَزْت ، أَنْتَ الَّذي أَعَنْتَ ، أَنْتَ الَّـذي عَضَدْتَ ، أَنْتَ الَّـذي أَيَّـدْتَ ، أَنْتَ الَّـذي نَصَـرْتَ ، أَنْتَ الَّـذي شَفَيْتَ ، أَنْتَ الَّذي عَافَيْتَ ، أَنْتَ الَّذي أَكْرَمْتَ ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ ، فَلَكَ الْحَمْدُ دَائِماً ، وَلَكَ الشُّكْرُ وَاجِباً] .

اللّغة

آويت : تقول العرب أوىٰ فلان إلى منزلـه يأوي أويـاً ، ومنه قـوله

تعالى : ﴿قال سأوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾[1] وآويته أنا إيواءً ، ومن العرب من يقول آويت فلان إذا أنزلته بك . وآويت الإبل بمعنىٰ آويتها يقال آويته بالقصر ، وآويته بالمد وهي بمعنى واحد . وفي حديث البيعة انه ـ صلى الله عليه وآله ـ قال للأنصار : أبايعكم على أن تؤوني ، وتنصروني أي تضموني إليكم ، وتحوطوني بينكم . وقال عدي بن الرقاع يصف الخيل :

هن عجم وقد علمن من القول   هبي واقدمي وآووا وقومي

كفيت : كفىٰ يكفي كفاية إذا قام بالأمر ، والكفاة جمع كافي . وكفاه مؤنته كفايةً ، ويقال كفاه الأمر إذا قام فيه مقامه . قال الأنصاري :

فكفىٰ بنا فضلاً على من غيرنا   حب النبي محمد إيانا

وقال تعالى : ﴿**فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**﴾[2] وقال تعالى : ﴿**أليس الله بكاف عبده**﴾[3] .

عصمت : العصمة في كلام العرب المنع . وعصمة الله عبده أن يعصمه ممّا يوبقه ، وفي التنزيل : ﴿**قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم**﴾[4] والإسم العصمة ، وعصمة الطعام منعه من الجوع . قال الله ـ عزّ وجلّ ـ حكاية عن امرأة العزيز حين راودت يوسف عن نفسه فاستعصم ، أي تأبّىٰ عليها ولم يحببها إلى ما طلبت ﴿**ولقد راودته عن نفسه فاستعصم**﴾[5] وفي شعر أبي طالب يعني النبي ـ صلى الله عليه

---

(١) سورة هود ، آية : ٤٣ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ١٣٧ .

(٣) سورة الزمر ، آية : ٣٦ .

(٤) سورة هود ، آية : ٤٣ .

(٥) سورة يوسف ، آية : ٣٢ .

وآله ـ :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامىٰ عصمة للأرامل

مكنت : المكنة التمكن . ويقال الناس على مكناتهم أي على إستقامتهم . ومعنىٰ قول النحويين في الإسم أنه متمكن : أي أنه معرب إذا كان لا ينصرف ، فإذا انصرف مع ذلك فهو المتمكن الأمكن ، وفلان مكين عند فلان بين المكانة يعني المنزلة . وفي التنزيل قال تعالى : ﴿**اعملوا على مكانتكم**﴾[٦] .

عضدت : العضد من الإنسان وغيره الساعد ، وهو ما بين المرفق والكتف . والمعضدة والمعضد الدملج لأنه على العضد يكون والجمع معاضد . والمعضّد الثوب الذي له علم في موضع العضد من لابسه . قال زهير يصف بقرةً :

فجالت على وحشيها وكأنها مسربلة من رازقي معضد

والعضد القوة ؛ لأن الإنسان إنما يقوىٰ بعضده ، فسميت القوة به ، وذلك تسمية للشيء باسم لازمه ، وعضد الرجل أنصاره وأعوانه . والإعتضاد التقوى والإستعانة .

تباركت : البركة النماء والزيادة . والتبريك الدعاء للإنسان أو غيره بالبركة . وبارك فيه وعليه وضع فيه البركة . وقال الفرّاء في قوله تعالى : ﴿**رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد**﴾[٧] إن البركات السعادة وتبارك الله أي بارك الله وقال الأزهري : معنىٰ بركة الله علوه على كل شيء وقال أبو طالب :

---

(٦) سورة الأنعام ، آية : ١٣٥ .

(٧) سورة هود ، آية : ٧٣ .

بـورك الـميـت الغـريـب كـمـا		بـورك نضـح الـرمـان والـزيتـون

البيان

من الملاحظ في هذه الفقرة هو تكرار ضمير المخاطب كلما أراد ـ عليه السلام ـ أن يذكر نعمة من النعم التي أخذ يعددها وهو في مقام الإعتراف بها ، ثم يذكر بعد ذلك الإسم الموصول خبراً للضمير ، ثم يذكر النعمة كصلة للموصول . وفي ذلك أروع بيان لنسبة النعمة ـ سبحانه ـ في مقام التفرد بها ؛ لأنه قد اعتبر ضمير الخطاب كمبتدأ ، والإسم الموصول كخبر والنعمة المذكورة صلته ، وبذلك انشدت الكلمات إلى بعضها البعض ، فلو حذف بعضها لبقي مكانها فارغاً لا يمكن أن يحل محلها كلمة أخرىٰ .

على أن هذا الإستعمال من أنواع المعارف يدلك على أن المخاطب بهذا التأكيد من الكلام ، وبهذا التعداد من النعم لا يخاطب غيره بمثل ذلك .

وقد ذكر علماء البلاغة أحكاماً كثيرةً في تعريف المسند إليه ؛ أن ذلك يكون لإفادة السامع حكماً على أمر معلوم عنده بأمر آخر مثله بإحدىٰ طرق التعريف ، نحو هذا أخي .

ومنها أيضاً إفادة قصر المسند على المسند إليه مثل قولك : هذا الذي زارني أمس ، وهو كما نحن منه ؛ وذلك أن النعم التي عدّدها في هذه الفقرة مقصورة على الله ـ سبحانه ـ لا يمكن لأحد أن يهبها لأحد ، ولا يمكن لأحد أن يسهلها على أحد على الأقل .

وإذا تأملت النص الماثل أمام هذا البحث وجدت أن الحسين ـ عليه

السلام ـ لم يبالغ في ما قال في كلمة واحدة من كلماته ، وبمعنى آخر أن ما قاله كله واقع حول الإنسان ، أما في نفسه ، أو في مـاله ، أو في أهله بين عشية وضحاها . فالنص يحتوي على نعم ، والنعم المذكورة فيه كلها حاصلة موجودة بين يدي الإنسان يمارسها صباحاً ومساءً .

أما هذه النعم التي ذكرها في هذا النص فقد مرّ معظمها في أبحاث سابقة متعددة . لهذا فإننا قد حبّذنا الإغماض عن بعضهـا وعدم تكـرارها وآثرنا الإختصار .

إلّا انه قد يوجد بعد ذلك ما ينبغي الإشارة إليـه بعد أن نتخـطىٰ ما سبق ذكـره في أبحاث مـاضية . فقـوله ـ عليـه السـلام ـ : (أنت الـذي آويت) هـو بمعنىٰ الضم والتقريب ، ولكن ليس مـطلقاً ، لكنـه مشفـوع بالحنان والعطف والمحبة ، ولا يمكن أن يفسر الإيواء المنسوب إليه تعالى في هذه العبارة إلّا بهـذا المعنىٰ ، وإلى هذا أشـار قولـه تعالى : ﴿ولما دخلوا على يوسف آوىٰ إليه أخاه قال أني أنا أخوك فـلا تبتئس بما كـانوا يعملون﴾[٨] وقوله تعالى : ﴿فلما دخلوا على يوسف أوىٰ إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾[٩] فقـد ذكروا في تفسيـر كلتا الأيتين أن الإيواء بمعنىٰ الضم والتقريب ، وذلك أن يوسف ـ عليه السلام ـ ضم إليه أخاه في مجلسه وقربه وأدناه ، وضم إليه أبـويه وقـربهما منـه وأدناهمـا ، وتقريب الأخ والأبوين ليسا من الأمور العادية . فـالإيواء بهـذا المعنىٰ إذا جـاء من الله ـ سبحانـه وتعالى ـ فهـو من أكبر النعم التي تـذكر في مقـام الإمتنان .

---

(٨) سورة آية :

(٩) سورة يوسف ، آية : ٩٩ .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (أنت الذي كفيت) فالكفاية دفع ما يلزمه دفعه من الصعاب والأذىٰ الذي يلم بالإنسان من حيث يدري أو لا يدري ، وقد ورد في كثير من الأدعية ذكر ذلك . فمنه (يا محمد يا علي ، يا علي يا محمد ، إكفياني فإنكما كافيان ، . . الدعاء) ومن أسمائه تعالى (الكافي) ورد بذلك التنزيل العزيز في قوله : ﴿**أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه**﴾[10] قال المفسرون : المراد بالذين من دونه آلهتهم من دون الله على ما يستفاد من السياق ، والمراد بالعبد من مدحه الله تعالى في الآيات السابقة ، ويشمل النبي شمولاً أولياً . والإستفهام للتقرير ، والمعنىٰ هو يكفيهم ، وفيه تأمين للنبي ـ صلى الله عليه وآله ـ قبال تخويفهم إياه بآلهتهم ، وكناية عن وعده بالكفاية كما صرّح به في قوله : ﴿**فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**﴾[11] .

فقوله ـ عليه السلام ـ في هذا النص يعني حمايته من أعدائه ، وكفايته أمرهم بدرء الخطر عنه من جميع الجهات ، وليس هذا يعني عدم إصابته بشيء من الحوادث . لا يقال ان الحوادث التجريبية الظاهرة والتي يحياها الإنسان في جميع أوقاته تشهد بغير ذلك ؛ لأنّا نقول : إنما يصرفه سبحانه عن العبد من شر هو أكثر مما يصيبه ، وإن كان العبد لا يعلم بذلك ؛ لأن الحوادث المصروفة عن الإنسان لا يعلم بها إلاّ إذا حدثت فهي إذا لم تحدث فلا علم له بها .

أما ما يصيب الإنسان فإن ذلك لا يخلو من أحد أمرين :

الأمر الأول : اما أن يكون محتوماً وهذا لا يمكن أن يبدل لأن الله قد

---

(١٠) سورة الزمر ، آية : ٣٦ .

(١١) سورة البقرة ، آية : ٣٧ .

أقر ذلك في علم الغيب وأثبته ضمن البرنامج الذي يحياه الإنسان وهذا لا يتناوله (البداء)[١٢] .

الأمر الثاني : وهو ألّا يكون أمراً محتوماً ، فهو قابل لأن يغير ويبدل بحسب ما تقتضيه مصلحة العبد . وهذا ما تحدثنا عنه قبل قليل وهو الذي يصرفه المولىٰ عن العبد قبل أن يحدث .

ومنها قوله ـ عليه السلام ـ : (أنت الذي مكنت) والتمكين بمعنىٰ الإستطاعة ، والعمل بكامل الحرية التي لا تقف إلّا عند الحد الذي رسمه الشرع ، وقد ورد هذا المعنىٰ في قوله تعالى : ﴿**وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء**﴾[١٣] وقوله تعالى : ﴿**انا مكنّا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا**﴾[١٤] وقوله تعالى : ﴿**ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش**﴾[١٥] .

فهذه الآيات وكثير غيرها تنطق وتشير إلى هذا المعنىٰ . وهذا من جملة النعم التي منّ الله بها على عباده ، فإن العيش بدون تمكين واستطاعة على مواصلة الحياة إلّا بالمشقة والتعب هو من العذاب في الدنيا .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (أنت الذي أعززت) فإن العزة لله جميعاً ولا ينالها الإنسان إلّا بالله ، ومنه يستمد كل عزيز عزته ، وبعبارة أخرىٰ أن العزة لا ينالها العبد من الله إلّا بالطاعة ، فكلما بالغ الإنسان في طاعة

---

(١٢) البداء : بحث كلامي تعرض له العلماء في كثير من كتبهم ، وسنبحثه في مكانه المناسب إن شاء الله .

(١٣) سورة يوسف ، آية : ٥٦ .

(١٤) سورة الكهف ، آية : ٨٤ .

(١٥) سورة الأعراف ، آية : ١٠ .

المولى كلما أعـزه وقربـه ، وقد ورد في المـأثور عن أهـل البيت الطاهـر ـ عليهم السلام ـ قولهم : (يا عزيزاً في عزك . . . الدعاء) . وهـذه من الأمور الطبيعية في حياة المجتمعات الإنسانيـة في مختلف العلاقـات بين الناس والناس ، وبين الناس والله . فالولد كلمـا أطاع والـده أعزه وأدنـاه وقربه ، والعبد كلما أطاع مولاه أحبه وأعزه وقربه ، بـل وحتى الصغير إذا أطاع الكبير فإنه يعز ويكرم ، وقد مرّ بحث سابق حول هذا الموضوع في الجزء الثاني .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (أنت الذي أعنت أنت الذي عضدت ، أنت الـذي أيدت ، أنت الـذي نصرت) فكلهـا جمل متقـاربة المعنىٰ ، فالمعاونة والمعاضدة والتأييد والنصر كلها كلمات لا تـظهر فـروق لها من خلال السياق إلّا عند التأمل . وهذا يدل على التأكيد لهذه النعمة ، نعمة النصر والإعانة وغيرها لأهميتها في حياة الإنسان ، ويظهر لـك بعد إنعـام النظر في كلمة (أعنت) أنها أشمل من الكلمات التي بعدها ؛ وذلك لأن الإعانة أعم من أن تكون في نصر على الأعداء ، أو هي في المعاش ، أو في حركة أو سكون .

أما التأييد فهو معنىً يكاد أن يكون شاملاً إلّا أنه في بعض المواطن قد لا يكون عملياً بمقدار ما تكون عليه الإعانة . وهكـذا نرى أن الكلمـات هذه لا يدرك تفاوتها لأدنىٰ تأمل .

وعلى كل حال فإن المقصود منها جميعاً هو إبراز هذه النعم الظاهرة التي تتجلّىٰ على الإنسان في جميع حالاته منسوبة إليه ـ سبحانه ـ .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (أنت الذي شفيت ، أنت الذي عافيت) فإن هناك فارقاً يلوح بين كلمة (شفيت) وكلمة (عافيت) ، فإن الشفاء لا

يكون إلاّ من المرض ، وأما العافية فإنها تكون من كل شيء وبذلك تكون أعم مطلقاً .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (أنت الذي أكرمت) فإن الكرامة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ تتمثل في تسهيل سبيل العيش ، وتمييز البعض عن البعض الآخر من سائر المخلوقات بكثير من الصفات منها العقل الذي يفرق به بين الخير والشر ، ومنها التكليف الذي فتحه الله وجعله وسيلة من وسائل التقرب إليه لكي يهبه بذلك الكرامة والرحمة ، وبهذا المعنىٰ جاء التنزيل العزيز ممتناً في قوله تعالى : **﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾**[١٦] فكأنه تعالى لمّا ذكر وفور نعمه وتواتر فضله ورحمته على الإنسان ، وحمله في البحر ابتغاء فضله ورزقه ، ورفاه حاله في البر ثم نسيانه لربّه وإعراضه عن دعائه إذا نجاه وكشف ضره كفراناً ، مع أنه متقلب دائماً بين نعمه التي لا تحصىٰ نبّه على جملة تكريمه وتفضيله ليعلم بذلك مزيد عنايته بالإنسان ، وكفران الإنسان لنعمه على كثرتها .

وبذلك يظهر ان المراد بالآية بيان حال لعامّة البشر مع الفض عمّا يختص به بعضهم من الكرامة الخاصة الإلٰهية ، والقرب والفضيلة الروحية المحضة . فالكلام يعم المشركين والكفار والفسّاق وإلاّ لم يتم معنى الإمتنان والعتاب .

فقوله : **﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾** المراد بالتكريم تخصيص الشيء بالعناية وتشريفه بما يختص به ، ولا يوجد في غيره . وبذلك يفترق عن التفضيل ، فإن التكريم معنىً نفسي وهو جعله شريفاً ذا كرامة في نفسه ،

---

(١٦) سورة الإسراء ، آية : ٧٠ .

والتفصيل معنى إضافي وهو تخصيصه بزيادة العطاء بالنسبة إلى غيره مع اشتراكهما في أصل العطية، والانسان يختص من بين الموجودات الكونية بالعقل، ويزيد على غيره في جميع الصفات والأحوال التي توجد بينها والأعمال التي يأتي بها.

ويتجلى ذلك بقياس ما يتفنن الإنسان به في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه ومنكحه وما يأتي به من النظم والتدبير في مجتمعه ، ويتوسل إليه من مقاصده باستخدام سائر الموجودات الكونية ، وقياس ذلك مما لسائر الحيوان والنبات وغيرهما من ذلك ، فليس عندها من ذلك إلّا وجوه من التصرف ساذجة بسيطة ، أو قريب من البساطة ، وهي واقفة في موقفها المحفوظ لها يوم خلقت من غير تغير أو تحول محسوس ، وقد سار الإنسان في جميع وجوه حياته الكمالية إلى غايات بعيدة ، ولا يزال يسعىٰ ويرقىٰ .

وبالجملة أن بني آدم مكرمون بما خصهم الله به من بين سائر الموجودات الكونية ، وهو الذي يمتازون به عن غيرهم ، ألا وهو العقل الذي يعرفون به الحق من الباطل ، والخير من الشر والنافع من الضار(١٧) .

إذاً فالكرامة المقصودة في النص هي زيادة الخير وزيادة التفضل على الإنسان إضافة إلى محبة الله ـ سبحانه ـ التي هي رأس مال الإنسان وحصيلته التي يعتمد عليها في أعماله ، وقد جاء ذلك ضمن كلام لأمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ كما في نهج البلاغة في صفات المتقين (عباد الله : إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف ، فزهر مصباح الهدىٰ في قلبه ، وأعد القرىٰ ليومه

---

(١٧) الميزان : ج١٥ ص١٥٥ ـ ١٥٦ .

النازل به، فقرب على نفسه البعيد، وهون الشديد، نظر فأبصر، وذكر فاستذكر . . . الخطبة) .

وبعد هذا نستنتج أن كلمة (أكرمت) يعني أنت الذي أعطيتني ، والعطاء فيه زيادة عن الحاجة ، فأحطتني بكل هذه الأنواع من النعم ظاهرة وباطنة ، وينقدح أيضاً معناها الشامل للإنسان كموجود كرّمه على سائر المخلوقات ، رجوعاً إلى تفسير الآية المتقدمة من سورة الإسراء .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (تباركت ربّنا وتعاليت) فإن البركة كما ورد في فصل اللغة هي الزيادة ، ومعنىٰ ذلك أن عطاءك يكون فيه زيادة ولا نقص فيه ، وقد ذكر هذا المعنىٰ التنزيل العزيز في كثير من المواطن ، مثل قوله ـ تعالى ـ : ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾[18] فقد ذكر الشيخ في التبيان بأن (تبارك) معناه الثابت الذي لم يزل ولا يزال . وأصل الصفة في الثبوت أي البرك وهو ثبوت الطائر على الماء . ومنه البركة ثبوت الخير بنمائه . وقيل : معناه تعاظم بالحق من لم يزل ولا يزال ، وهو راجع إلى معنىٰ الثابت الدائم . وقيل المعنىٰ (تبارك) من ثبوت الأشياء به إذ لولاه لبطل كل شيء ؛ لأنه لا يصح شيء سواه ؛ لأن الله تعالى هو الخالق لكل شيء وقيل إن معناه (تبارك) لأن جميع البركات منه .

أما العلو فهو صفة ثابتة له سبحانه واضحة كل الوضوح ، ظاهرة كل الظهور . (فتعاليت) يعني تعاظم شأنك وتنزهت عن جميع خلقك . ويتوارد فيها كثير من المعاني بالنظر إلى كثير من القرائن في سياق العبارة .

---

(١٨) سورة الملك ، آية : ١ .

وبنظرة أخرىٰ أنها صفة خاصة به سبحانه لأنه المتعالي ، أي المتسلط على جميع خلقه .

وينتقل بعد ذلك إلى ذكر الحمد والشكر فيقول : (فلك الحمد دائماً ، ولك الشكر واجباً) أما الحمد دائماً فلأنه خاص بالله سبحانه وتعالى وهو دائم ، ولا يمكن أن تعطىٰ هذه الصفة لأحد سواه ؛ ولأن الحمد لله على السّراء والضّراء والشدّة والرخاء ، والإنسان لا ينفك عن هذين الحالين . وقد ذكرنا بعض ذلك في أول مباحث الكتاب في الجزء الأول .

فالحمد دائم لأنه متعلق بالله ، والله سبحانه وتعالى دائم لا يفنىٰ ؛ لأن من صفاته سبحانه الحميد . قال تعالى : **﴿وما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾**[١٩] قال الطوسي في التبيان : الحميد في أفعاله ومعنىٰ ذلك أنها صفة من صفات الجلال ، ومن المعروف أن صفاته سبحانه عين ذاته .

وأما الشكر واجباً ؛ فلأن الشكر أعم من الحمد فهو لله ولغيره ، ويكال بغير حساب سواءً للمستحق وغيره . إذاً فهو يعطىٰ لمن يجب له ولمن لا يجب قال الشاعر في هذا المعنىٰ :

لا تسدين إلى عارفة ... حتى أقوم بشكر ما سلفا
لا أستطيع بأن أقوم به ... أسفاً على نقصي به أسفا[٢٠]

لهذا فإنه ـ عليه السلام ـ قد ذكر في هذا النص أن الشكر لله سبحانه

---

(١٩) سورة البروج ، آية : ٨ .

(٢٠) البيت الثاني من تذييل المؤلف .

ليس كغيره ولكنه يعطاه مستحقاً له ، بل واجباً ؛ وذلك للنعم التي أفاضها على الإنسان وغمره بها في جميع مراحل حياته ابتداءً بخلقه .

وفي توجيه آخر لهذا الوجوب هو أن يتعلق بذمة الإنسان الذي يجب عليه شكر هذه النعم لأن شكرها واجب كما قـرر ذلك علمـاء الكلام في محله .

قال عليه السلام :

[ثُمَّ أنا يا إلٰهي الْمُعْتَرِفُ بِذُنُوبي فَاغْفِرْها لي ، أَنَا الَّذي أَخْطَأْتُ ، أَنَا الذي أَغْفَلْتُ ، أَنَا الَّذي جَهِلْتُ ، أَنَا الَّذي هَمَمْتُ ، أَنَا الَّذي سَهَوْتُ ، أَنَا الَّذي اعْتَمَدْتُ ، أَنَا الَّذي تَعَمَّدْتُ ، أَنَا الَّذي وَعَدْتُ ، أَنَا الَّذي أَخْلَفْتُ ، أَنَا الَّذي نَكَثْتُ ، أَنَا الَّذي أَقْرَرْتُ ، يا إلٰهي أعترف بِنِعَمِكَ عِنْدي ، وَأَبُوءُ بِذُنُوبي فَاغْفِرْ لي] .

اللُّغة

أغفلت : غفل عنه يغفل غفلة وأغفله تركه وسهى عنه ، وأغفلت الرجل أصبته غافلاً ، وعلى ذلك فسّر بعضهم قوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾(١) ، وسئل أبو العباس عن هذه الآية فقال : من جعلناه غافلاً ، والتغافل تعمد الغفلة ، والمغفل الذي لا فطنة له ، ودابة غفل وناقة غفل لا توسم . قال الراجز :

لا عيش إلّا كل صهباء غفل   تناول الحوض إذا الحوض شغل

(١) سورة الكهف ، آية : ٢٨ .

هممت : همّ بالشيء يهم هماً نواه وأراده وعزم عليه وقوله ـ عزّ وجلّ ـ : **﴿وهموا بما لم ينالوا﴾**(٢) ، كان طائفة عزموا على أن يغتالوا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ في سفر وقفوا له على طريقه ، فلما بلغهم أمر بتنحيتهم عن طريقه وسمّاهم رجلاً رجلاً . وألهم ما همّ به الرجل في نفسه ، وتقول أهمني هذا الأمر ، والهمام الملك العظيم الهمة ، والهم الشيخ الكبير البالي .

سهوت : السهو نسيان الشيء والغفلة عنه ، وذهاب القلب عنه إلى غيره . والسهو في الصلاة الغفلة عن شيء منها . وقال ابن الأثير : السهو في الشيء تركه من غير علم . وقال السهو عنه تركه مع العلم . ومنه قوله تعالى : **﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾**(٣) والسهو السهل من الناس ، والأمور والحوائج . وساء سهوٌ سهل وقوس سهوة مؤاتية . قال ذو الرمّة ـ رحمه الله ـ :

قليل مصاب المال إلاّ سهامه   وإلاّ سجوماً سهوة في الأصابع

نكثت : النكث نقض ما تعقده وتصلحه من بيعة وغيرها وفي حديث علي ـ عليه السلام ـ (أمرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين) وفي التنزيل العزيز : **﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً﴾**(٤) ومن هذا نكث العهد ، وهو نقضه بعد إحكامه كما تنكث خيوط الصوف المغزول بعد إبرامه . ويقال : بعير منتكث إذا كان سميناً مهزل . قال الشاعر :

ومنتكث عاللت بالسوط رأسه   وقد كفر الأمر الخروق المواميا

---

(٢) سورة التوبة ، آية : ٧٤ .

(٣) سورة الماعون ، آية : ٥ .

(٤) سورة النحل ، آية : ٩٢ .

أبـوء : باء إلى الشيء رجـع ، وبؤت إليه . وقـال الأصمعي : باء بإثمه فهو يبوء به إذا أقر به ، وأبوء بذنبي أي ألتزم وأرجع وأقر . قال لبيد :

أنكـرت بـاطلهـا وبؤت بحقهـا عنـدي ولم تفخـر علي كـرامهـا

والباءة والباء النكاح ، وسمي النكاح بـاءة من المباءة؛ لأن الـرجل يتبوأ من أهله أي يستمكن من أهله كما يتبوأ من داره .

وفي حديث النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ : (من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء) أراد بالباءة النكاح والتزويج . والأصل بالباءة المنزل ثم قيـل لعقد التـزويج بـاءة ؛ لأن من تزوّج امرأة بوأها من منزله ، والهاء زائدة .

البيان

بعد أن عدَّد أنواع النعم الظاهـرة منها والبـاطنة في الفقـرة السابقـة واعترف بها ، ثم اعترف أخيراً بالعجز عن مكافأتها ، والقيام بشكرها وأداء حقهـا ، بدأ في هـذه الفقرة بعـد الإعتراف في مـا سبق بقصوره يتصـاغر ويتضاءل أمام تلك العظمة الإلٰهيـة التي غمرتـه بتلك النعم التي لا حصر لها ، ولكنه أخذ يعدد ما طرأ عليه من أصنافها في ذلك الوقت الضيق .

وكما أخذ يكرر ضمير المخـاطب في ما مضىٰ مصحـوباً بـالتعظيم بكل ما في الكلمة من معنىٰ ، أخذ يكـرر في هذه الفقـرة ضمير المتكلم مصحوباً بالتواضع والإعتراف بالتقصير عن أداء شكر النعم الذي هـو من أهم الواجبات على الإنسان .

وبمقدار ما يعطي تكرار ضمير الخطاب من تأكيد العظمة الإلٰهية ، فـإنه يعـطي تكرار ضميـر المتكلم بحسب القرائن المـوجودة في مـطاوي الكلام التواضع والإعتراف بذلك التقصير .

معنى الأنا

وقد ذهب الحكماء إلى مذاهب كثيرة في حقيقة النفس وهو ما يشير إليه كل أحد بقوله « أنا » والدائر منها على الألسنة والمذكور في الكتب المشهورة أربعة عشر مذهباً .

١ ـ هذا الهيكل المحسوس المعبر عنه (بالبدن) ، فإن الجسم بجميع أعضائه وأوصاله يكون البنية العامة للهيكل الإنساني .

٢ ـ إنها القلب : أعني العضو الصنوبري اللحماني المخصوص فإنه قد جعل سلطان الجوارح كلها .

٣ ـ إنها الدماغ : لأنه يحتوي على الطاقة العقلية ، وبه تدار العمليات الجسمية من حركة وسكون وسائر تصرفات الإنسان العقلانية .

٤ ـ إنها أجزاء لا تتجزأ في القلب وهو مذهب النظام ومتابعيه ، ومعنىٰ ذلك أن القلب بهيكله العام وبما يحويه من نبضات تبعث الدفء والحياة بواسطة ما يدفع من هذا السائل الحيوي الأحمر المعبر عنه (بالدم) والذي يحمل إلى الجسم مختلف أنواع الغذاء بعد تصفيتها ، إن القلب بهذا المركز وبهذه الأهمية هو المعبر عنه بالنفس .

٥ ـ إنها الأعضاء الأصلية المتولدة من المني . وهذا نظير ما جاء في كتاب الله العزيز في قوله تعالى : **﴿فلينظر الإنسان ممّ خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب﴾**[٥] .

٦ ـ إنها المزاج ، والمزاج يكون مرة حاداً حاراً ، ومرة أخرىٰ يكون بارداً .

٧ ـ إنها الروح الحيواني ، أو روح الحياة التي هي من جملة الأرواح المتعلقة بجسم الإنسان ومنها روح النمو وروح اليقظة وغيرها ، ويقرب منه ما قيل إنها جسم لطيف سار في البدن سريان الماء في الورد والدهن في السمسم .

٨ ـ إنها الماء ، لأن الماء يتركب منه جميع أجسام الكائنات الحية بنسبة ٨٠٪ وكثير من الجمادات وإلى ذلك كله أشارت الآية الكريمة : **﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾**[٦] .

٩ ـ إنها النار والحرارة الغريزية ومعنىٰ ذلك هو الحرارة الموجودة في الجسم وهي في متوسط $\frac{1}{2}$ ٣٧° فإن هذا المقدار لا يتحمل الجسم ارتفاعه وانخفاضه .

١٠ ـ إنها النفس وسيأتي بعد قليل هذا المعنىٰ في تفسير قوله تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبؤكم بما كنتم تعملون﴾**[٧] .

---

(٥) سورة الطارق ، آية : ٥ ، ٦ ، ٧ .
(٦) سورة الأنبياء ، آية : ٣٠ .
(٧) سورة المائدة ، آية : ١٠٥ .

١١ ـ هي الواجب ، تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً .

١٢ ـ إنها الأركان الأربعة النار والماء والهواء والتراب وهي المواد الأولية التي يتقوم منها جسم الإنسان .

١٣ ـ إنها صورة نوعية قائمة بمادة البدن ، وهو مذهب الطبيعيين الذين ينصهرون في المادة ولا ينظرون إلى شيء سواها .

١٤ ـ إنها جوهر مجرد عن المادة الجسمانية ، وعوارض جسمانية لها تعلق بالبدن ، تعلق التدبير والتصرف ، والموت هو قطع هذا التعلق ، وهذا هو مذهب الحكماء الإلٰهيين وأكابر الصوفية والإشراكيين ، وعليه إستقر رأي المحققين من المتكلمين كالإمام الرازي والغزالي ، والمحقق الطوسي ، وغيرهم من الأعلام وهو الذي أشارت إليه الكتب السماوية ، وانطوت عليه الأنبياء النبوية ، وقادت إليه الإمارات الحدسية ، والمكاشفات الذوقية .

وبالنسبة إلى ما أشارت إليه الآية التي ذكرناها في البند العاشر أن على المؤمن أن يشتغل بما يهم نفسه من سلوك سبيل الهدىٰ ، ولا يهزه ويغريه ما يشاهده من ضلال الناس وشيوع المعاصي بينهم ، ولا يشغله ذلك ولا يشتغل بهم ، فالحق حق وإن ترك والباطل باطل وإن أخذ به . قال تعالى : **﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون﴾**[٨] .

ومن جهة أخرىٰ أن الإنسان وهو إنسان من حقيقة قوله (أنا) و (نفسي) لا يخطىء فيه البتة ، إذ ليس من البعيد أن نكون ندرك حقيقة

(٨) سورة المائدة ، آية : ١٠٠ .

من الحقائق الكونية إجمالاً ادراكاً غير خاطىء ، ثم نأخذ بالبحث عن هويته وواقع أمره تفصيلاً فنخطىء فيه عند ذاك ، فهناك موضوعات علمية كثيرة ، كالمحسوسات الظاهرية نشاهدها مشاهدة عيان ، والعلماء لا يزالون يختلفون في أمرها خلفاً عن سلف .

وبكلمة أخيرة نقول : إن الهدف الأول من الدين هو تهذيب النفس والإبتعاد بها عن الشوائب التي تشينها ، ومن ذلك الإعجاب بالنفس والإعتداد (بالانا) أو بالأنانية كما يحلو للبعض .

ثم إن هذه الشوائب إما أن تأتي إلى النفس من الخارج ، فتؤثر على الإنسان وسلوكه في الحياة ، واما أن تأتي من الداخل ، وإن كلا الجهتين تحدث أثراً ضاراً بالإنسان ، وإنه إذا تخلص من النفس الأمارة بالسوء فإنه قد كسب في ايمانه خيراً ، وفي حياته سعادة .

وبعد هذا الإستعراض لمعاني (الأنا) و (النفس) نعود مع النص الماثل أمام هذا البحث .

يقول ـ عليه السلام ـ : (ثم أنا يا إلهي المعترف بذنوبي فاغفرها لي) المعترف بالذنب أمام الخالق الغرض منه غفرانه ، وهذا ما أشار إليه النص بوضوح ، فإن غفران الذنب لا يكون مع النفاق والتحايل ، وانما يكون مع الإخلاص في التوبة ، والإقلاع عن ممارسة الجرم والاعتراف به مصحوباً بالندم يعني العزم على الترك ، وإلّا لم يكن للإعتراف فائدة ، ولم يكن ذلك إلّا مجرد إخبار ، والإخبار عن شيء هو فيه مع عدم العزم على الإقلاع هو بعكس ما يراد من العبد وهو التوبة .

أما نسبة الذنب إليه ـ عليه السلام ـ فقد مرّ بنا تحليل ذلك في الجزء الثاني من الكتاب في كثير من الأبحاث .

ويؤيد ما قلناه فعل الأمر (فاغفرها) ؛ لأن الطلب قد جاء ضمن الإعتراف بالذنوب ، وهذا يعني بدوره التوبة النصوح .

وأنت إذا تأملت كثيراً في هذه الذنوب التي عددها في هذا النص وجدت معظمها يصدر من الإنسان في كثير من الأحيان بحكم العادة ، بل لا يعدّ ذنباً بالمعنىٰ الأخص فقوله ـ عليه السلام ـ : (أنا الذي أخطأت ، أنا الذي أغفلت ، أنا الذي جهلت ، أنا الذي هممت ، أنا الذي سهوت) كل ذلك يمارسه الإنسان من حيث يدري أو لا يدري ، لأن الصفات الإنسانية تحكم بتصرفات الإنسان في حالات الخير والشر ، ولكن على اختلاف المراتب والدرجات يعاتب الإنسان ، وربما يحاسب عليها .

فالخطأ والغفلة والجهل والهَمُّ والسهو كلها معان متقاربة تصدر عن الإنسان اللبيب فضلاً عن الإنسان الجاهل ، ولكنها تعد من أحدهما غير ما تعد من الآخر ، فإن عمل السوء بجهالة ـ مثلاً ـ يختلف عن عمله بعد العلم به . . . وهكذا .

ثم قال ـ عليه السلام : ـ

(أنا الذي اعتمدت) . والإعتماد بحسب ما يفيده السياق من العبارات التي ذكرها في مقام التقصير والإعتراف به أنه يفيد الإعتماد على الغير ، ولا يمكن أن يفيد الإعتماد على الله بحسب القرائن الدالة ، وإلاّ لم يكن ذنباً يؤاخذ عليه حتى يعترف به ليغفره لـه ، وهذا كله مبالغة في التذلل والخضوع . وفي الواقع أن الإنسان ربما تخامره غفلة أو يذهل بعض الأحيان من كان تدبير أموره بيده . فالإعتماد على الغير سواءً كان في الشدة أو الرخاء إبتعاد نوعاً ما عن الإعتماد كلية على الله ـ سبحانه ـ .

أما التعمد فالمقصود به أما أن يكون راجعاً إلى الإعتماد على الغير

كما قلنا ، وبكلمة أخرىٰ قصد اللجوء إلى الغير ، وبذلـك يلام الإنسـان على ذلك وهو نظير قوله ـ تعالى ـ : **﴿قال سـآوي إلى جبل يعصمني من الماء . قال لا عاصم اليوم من أمـر الله إلاّ من رحم وحال بينهمـا الموج فكان من المغرقين﴾**(٩) . وأما أن يكون تعمداً في إقتراف الذنب يختلف عن الذنب بجهالة ، وقد مرّ معنا في عبارات سابقة من هذا البحث معنىٰ ذلك .

فتعمد إقتراف الذنب يعني يسبق ذلك إصرار وتصميم وإلاّ لم يكن تعمداً ، فإن إقتراف الذنب فجأة وبدون تخطيط لذلـك لا يعتبر تعمـداً . وبعبـارة أخرىٰ إن مصـادفة الـذنب لأول وهلة يلزم أن يكون ذلـك بـدون علم ، ومعنىٰ ذلك أن الإنسان في هذه الحال لا يعرف كيف يذنب فيكون من باب عمل السوء بجهالة .

---

(٩) سورة هود ، آية : ٤٣ .

صدق الوعد وقصة إسماعيل (ع)

تحت هذا العنوان نستطيع أن نأتي بقوله ـ عليه السلام ـ (أنا الـذي وعدت ، أنا الذي أخلفت ، أنا الذي نكثت) والوعد مسألة من المسائـل المهمة الجارية في حياة الإنسان وعليه قام كثير من معاملاته ، وبه اطمأن الإنسان إلى الإنسان ، ووثق الإنسان بالإنسان ، وسادت الثقـة في قلوب الناس ، وبه ابتعدوا عن كثير من حالات النفاق ، فطهرت بـذلك قلوبهم وصفت سـرائرهم وصلحت أعمـالهم وقد تعـرض القـرآن المجيـد لهـذه المسألة في آيات كثيرة منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿**واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً**﴾[١٠] ذكر في معاني الأخبار عن أبي عبدالله ـ عليه السلام ـ قال : إنه لم يكن إسماعيل إبن إبراهيم ، بل كان نبياً من الأنبياء بعثه الله ـ عزّ وجلّ ـ إلى قومه ، فأخذوه وسلخوا فروة رأسه ووجهه ، فأتاه ملك فقال : إن الله ـ جلّ جلاله ـ بعثني إليك فمـرني بما شئت فقال : لي أسوة بما يصنع بالحسين .

وعنه ـ عليه السلام ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : إن أفضل الصدقة صدقة اللسان تحقن به الدمـاء ، وتدفـع به الكـريهة ،

---

(١٠) سورة مريم ، آية : ٥٤ .

وتجر المنفعة إلى أخيك المسلم .

ثم قال ـ صلى الله عليه وآله ـ : (إن عابد بني إسرائيل الذي كان أعبدهم ، كان يسعىٰ في حوائج الناس عند الملك ، وإنه لقي إسماعيل بن حزقيل فقال : لا تبرح حتىٰ أرجع إليك يا إسماعيل فأبقىٰ عند الملك ، فبقي إسماعيل إلى الحول هناك ، فأنبت الله لأسماعيل عشباً ، فكان يأكل منه ، واجرىٰ له عينين وأظله بغمام .

فخرج الملك بعد ذلك إلى التنزه ومعه العابد ، فرأى إسماعيل فقال: إنك لهٰهنا يا إسماعيل ؟ فقال له: قلت لا تبرح، فلم أبرح. فسمي صادق الوعد.

قال : وكان جبار مع الملك كذب هذا العبد فقال له إسماعيل : إن كنت كاذباً فنزع الله صالح ما أعطاك . قال : فتناثرت أسنان الجبار . فقال الجبار : إني كذبت على هذا العبد الصالح ، فأطلب أن يدعو الله أن يرد أسناني فإني شيخ كبير ، فطلب إليه الملك فقال : إني أفعل ، قال : الساعة ؟ قال : لا . قال : وأخره إلى السحر ثم دعا ، ثم قال : إن أفضل ما دعوتم الله بالأسحار . قال الله تعالى : **﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾**(١١) .

وفي حديث آخر انه ـ عليه السلام ـ قال لمن وعد لو لم يجئني لكان منه المحشر . فأنزل الله : **﴿واذكر في الكتاب . . .﴾** الآية .

وقال في الميزان وصفة الوفاء كسائر الصفات النفسانية من الحب والإرادة والعزم والإيمان والثقة والتسليم ذات مراتب مختلفة باختلاف

---

(١١) سورة الذاريات ، آية : ١٨ .

العلم والتعين ، فكما إن من الإيمان ما يجتمع مع أي خطيئة وإثم وهو أنزل مراتبه ، ولا يزال ينمو ويصفو حتى يخلص من كل شرك خفي ، فلا يتعلق القلب بشيء غير الله ولو بالتفات إلى من دونه وهو أعلىٰ مراتبه ، كذلك الوفاء بالوعد ذو مراتب . فمن مراتبه في المقال مثلاً إقامة ساعة أو ساعتين حتى تعرض حالة أخرىٰ توجب الإنصراف إليها ، وهو الذي يصدق عليه الوفاء عرفاً ، وأعلىٰ منه مرتبة الإقامة بالمكان حتى يؤيس من رجوع الصديق إليه عادة بمجيء الليل ونحوه فيفيد به إطلاق الوعد ، وأعلى منه مرتبة الأخذ بإطلاق القول والإقامة حتى يرجع وان طال الزمن . فالنفوس القوية التي تراقب قولها وفعلها ولا تلقي من القول إلّا ما في وسعها أن تصدقه بالفعل ، ثم إذا لفظت لم يصرفها عن اتمام الكلمة وإنفاذ العزيمة أي صارف .

وفي الرواية أن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ وعد بعض أصحابه بمكة أن ينتظره عند الكعبة حتى يرجع إليه ، فمضىٰ الرجل لشأنه ونسي الأمر فبقي ـ صلى الله عليه وآله ـ ثلاثة أيام هناك ينتظره ، فأطلع بعض الناس عليه فأخبر الرجل بذلك فجاء واعتذر إليه . وهذا مقام الصديقين لا يقولون إلّا ما يفعلون .

أما النكث الذي ذكر في النص فهو ما يتعلق ببيعة يبرمها الإنسان ثم ينقضها ، ومن أصدق مصاديقها ما حدث بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ وطلحة والزبير ، وقد جرّت تلك إلى حرب الجمل التي حدثت في البصرة ، وقد أسهب في عرضها المؤرخون فمن أرادها فليرجع إليها من شاء في الكتب التاريخية المبسوطة كتاريخ الطبري والواقدي .

والعهد واليمين هما قريبان من ذلك ، أو هما شيء من ذلك وقد

جمع كل ذلك في قوله ـ تعالى ـ : **﴿ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفىٰ بما عاهد عليه الله فسيأتيه أجراً عظيماً﴾**(١٢) .

قال الشيخ في التبيان : المراد بالبيعة المذكورة ها هنا بيعة الحديبية ، وهي بيعة الرضوان في قول قتادة ومجاهد ، والمبايعة معاقدة على السمع والطاعة ، كالمعاقدة في البيع والشراء بما قد مضى فلا يجوز الرجوع فيه . وقيل إنها معاقدة على بيع أنفسهم بالجنة للزومهم في الحرب النصرة . والنكث النقض للعقد الذي يلزم الوفاء به ، فبين تعالى أن من نقض هذه المبايعة فإنما ينكث على نفسه ، لأن ما في ذلك من إستحقاق العقاب عائد عليه **﴿ومن أوفىٰ﴾** يقال : أوفىٰ بالعقد ، ووفىٰ ، وهي لغة القرآن إذ هي لغة الحجاز : **﴿بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾** أي إذا أوفىٰ بالبيعة ونصر دينه ونبيه آتاه الله فيما بعد أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (أنا الذي أقررت) فالإقرار قد سبق تفسيره والكلام فيه في الجزء الأول (صفحة ـ ١٢٧) فليرجع إليه من أراد ذلك .

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (يا إلهي أعترف بنعمك عندي وأبوء بذنوبي فاغفر لي) والإعتراف والإقرار كما سبق لفظان لمعنى واحد وقد سبق تفسير الإعتراف في هذا البحث قبل قليل ، وذكرنا الغرض الذي يرمي إليه من ذكره ، وهو طلب المغفرة ، وقد ذكرنا في كثير من مناسبات الحديث وجوه نسبة الذنب إلى المعصوم وسيوافينا من شرح النص القادم بحث آخر فيه محاولة جادة لإظهار معنىٰ نسبة الذنب إليه ـ عليه السلام ـ .

---

(١٢) سورة الفتح ، آية : ١٠ .

الإعتراف بالذنب فضيلة

من الأمور التي ينبغي أن يقف عندها الإنسان متأملاً هي الحالة النفسية التي يكون عليها عند مقارفة الذنب ، وهناك حالات مختلفة تعتري الإنسان من بعد ذلك وتطفح على تصرفاته وانفعالاته :

الحالة الأولى : ألا يعير ذلك اهتماماً ، ويبقىٰ سادراً في سيرته التي كان عليها من مقارفة الذنب ، وارتكاب المعاصي ، وهذا لا يكون إلاّ عند أولي العقول المظلمة التي غشيها من الذنوب ما غشيها . قال تعالى : **﴿كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾**(١٣) أي غلب على قلوبهم ، يقال منه : رانت الخمر على عقله ترين ريناً إذا سكر فغلبت على عقاه ، فالرين غلبة السكر على العقل . وقال الحسن وقتادة الرين الذنب على الذنب حتى يموت القلب . وقال ابن زيد : غلبة الذنوب على القلوب فلا يخلص إليها خير العلوم . وقيل : ران غطىٰ وغشي ، وما يكسبون يعني من المعاصي لأن الطاعات وان كسبوها فما رانت على قلوبهم . قال البلخي : وفي ذلك دلالة على صحة ما يقوله أهل العدل في تفسير الطبع والختم والإضلال ؛ لأنه تعالى أخبر أنه الذين يجعلون الرين على قلوبهم . قاله الشيخ في التبيان .

وقال في الميزان عن الراغب : الرين صدأ يعلو الشيء الجلي ، أي صار ذلك كصداء على جلاء قلوبهم فعمي عليهم معرفة الخير من الشر انتهىٰ .

قال المؤلف : فكون ما كانوا يكسبون من الذنوب ريناً على قلوبهم هو حيلولة الذنوب بينهم وبين أن يدركوا الحق على ما هو عليه من الوضوح والظهور ؛ لأن اتباع المتشابه يؤدي إلى تشعب الفكر والحيرة للعقل في معرفة الحق .

الحالة الثانية : أن تعتريه نقطة إنبهات وحيرة ؛ وذلك لأنه اعتبر ما صدر منه مجرد خطأ بغض النظر عن الجوانب التي جاء منها هذا الخطأ ، وعلى من أخطأ ، وهذا إذا بقي في حيرته فإنه لا يعرف كيف يتصرف ، وكيف يمحو هذا الخطأ .

الحالة الثالثة : أن الإنسان إذا أخطأ وأذنب بغلبة من هواه لا يلبث أن يتنبه إلى هذا الذنب ، ويتدارك ما فرط منه بالإعتراف بالخطأ ، فيطلب من الله ـ تعالى ـ محو تلك السيئة وغفران ذلك الذنب بعامل التراجع والندم وذلك بالتدخل المباشر للعقل الذي يتحكم في تصرفات الإنسان ويقوده إلى طريق الهدىٰ ، وإلى هذا أشار قوله ـ تعالى ـ : **﴿وما يتذكر إلاّ من ينيب﴾**(١٤) قال المفسرون : إن حصول التذكر بهذه الحجج إنما هو شان المنيبين الراجعين إلى ربّهم دون المجادلين الكافرين ، فإن الكفر والجحود يبطلان استعداد التذكر بالحجة والإتباع بالحق .

---

(١٣) سورة المطففين ، آية : ١٤ .

(١٤) سورة المؤمن ، آية : ١٣ .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿وأنيبوا إلى ربّكم واسلموا له﴾(١٥) وهي تعني أن الإنابة إلى الله الرجوع إليه وهو التوبة .

وهذا مما يظهر على سلوك أرباب العقول الكبيرة الذين يسعون وراء الخير ، وان عملوا السوء فبجهالة ، وهذه ظاهرة في كتاب الله تكررت في كثير من المواطن مثل قوله ـ تعالى ـ : ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾(١٦) وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وليعلموا انما هو إلٰه واحد وليتذكر أولو الألباب﴾(١٧) .

وهناك حالات أخرىٰ تلم بالإنسان ربما لا يكون من ذكرها كثير جدوىٰ ، وفي ما طرحناه كفاية لمن ألقىٰ السمع وهو شهيد .

---

(١٥) سورة الزمر ، آية : ٥٤ .

(١٦) سورة الزمر ، آية : ٢٩ .

(١٧) سورة الرعد ، آية : ١٩١ .

(١٨) سورة إبراهيم ، آية : ٥٢ .

قال عليه السلام :

[يٰا مَنْ لا تَضُرُّهُ ذُنُوبُ عِبٰادِهِ ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ طَاعَتِهِمْ ، وَالْمُوَفِّقُ مَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ صَالِحاً بِمَعُونَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَلَكَ الْحَمْدُ إلٰهي أَمَرْتَني فَعَصَيْتُكَ ، وَنَهَيْتَني فَارْتَكَبْتُ نَهْيَكَ ، فَأَصْبَحْتُ لا ذٰا بَرٰاءةٍ فَأَعْتَذِرُ ، وَلا ذٰا قُوَّةٍ فَأَنْتَصِرُ ، فَبِأَيِّ شَيْءٍ أَسْتَقْبِلُكَ يٰا مَوْلاٰيَ ، أَبِسَمْعي ، أَمْ بِبَصَري ، أَمْ بِلِسٰاني ، أَمْ بِيَدي ، أَمْ بِرِجْلي ، أَلَيْسَ كُلُّهٰا نِعَمَكَ عِنْدي ، وَبِكُلِّهٰا عَصَيْتُكَ يَا مَوْلاٰيَ ؟! فَلَكَ الْحُجَّةُ وَالسَّبيلُ عَلَيَّ] .

اللُّغَةُ

الموفق : وفقه الله للخير ألهمه ، وهو من التوفيق . وفي الحديث (لا يتوفق عبد حتى يوفقه الله) والوفق التوفيق ، وفلان موفق رشيد . قال الكسائي : يقال رشدت أمرك ووفقت رأيك . قال تعالى : ﴿إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾[1] . ويقال حلوبة وفق عياله ، أي لها لبن قدر كفايتهم لا فضل فيه ؛ وقيل قدر

(١) سورة هود ، آية : ٨٨ .

ما يقوتهم . قال الراعي :

أمـا الفقيـر الـذي كـانت حلوبتـه   وفق العيــال فلم يتـرك لــه سبــد

فـارتكبت : إرتكـاب الـذنـوب إتيـانهـا ، وركب منـه أمـراً قبيحـاً وارتكبه ، وكذلك ركب الذنب وارتكبه ، وركب فلان فلاناً بأمر وارتكبه . وكل شيء علا شيئاً فقد ركبه ، وركبه الدين ، وركب الهول ، وركب الليل ونحوهما .

أستقبلك : القبل من كل شيء نقيض الدبر ، وجمعه أقبال . قـال الفرّاء : لقيته من ذي قبل أي في ما يستقبل ، والعرب تقول : ما أنت لهم في قبال ، ولا دبار أي لا يكترثون لك . قال الشاعر :

ومــا أنـت ان غـضـبـت عــامــر   لـهــا فـي قــبــال ولا فـي دبــار

وقبلت الهدية قبولاً ، وكذلك قبلت الخبر صدقته وقبلت القابلة الولد قبالة ، وعامل قابل مقبل ، وقابله حاذاه بوجهـه ، ويقال فـلان قبالتي أي مستقبلي .

البيان ـ الضُرُّ وَأسبابُهُ

في هـذه الفقرة تعـرض ـ عليـه السـلام ـ لنفي الضـر عن المـولى ـ سبحانه وتعالى ـ وتلك حقيقة واقعة لا سبيل للحديث عنها نفياً وإثباتاً ، والضر كما هو معروف هو الشيء المكروه الذي يلم بالإنسـان في أوقات متفاوته طولاً وقصراً ، وظروف مختلفة شدةً وليناً ، وإذا تأملنا الأسباب التي ينشأ عنها الضرر وجدناها متفاوتة ومتعددة بحسب السيرة الإجتماعية التي نضم الإنسان الفرد إليها ، فينصهر فيها ويتفاعل معها ، وفي قوله تعالى : ﴿وأيـوب إذ نـادىٰ ربّـه أني مسني الضـر وأنت أرحم الـراحمين﴾[٢] أن الـضـر بـالضـم خصـوص ما يمس النفس من الضـرر كالمـرض والهـزال ونحوهما . وقد شملت أيوب تلك البلية وذهب ماله ومات أولاده وابتلي في بدنه بمرض شديدة مدة مديدة ، ثم دعا الله وشكى إليه حاله فاستجاب الله له ونجاه من مرضه وأعاد عليه مـاله وولـده ومثلهم معهم كما هـو صريـح الآيات .

والضرر يحصل للإنسان من جهات مختلفة منها :

١ـ **الحسد** : فقد ورد فيه سورة قرآنية كاملة تحذر الإنسان وتخوفـه

---

(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٨٣ .

من مغبة هذه الطبيعة الشاذة التي تعود على الإنسان بالشر ، وذلك بما يعتري الإنسان من الغم عندما يرىٰ الخير عند غيره ، فهو يموت بغيظه . وقد ورد عن الإمام الحسن بن علي ـ عليه السلام ـ قوله : (هلاك المرء في ثلاث : الكبر وبه لعن إبليس ، والحرص عدو النفس وبه أخرج آدم من الجنة ، والحسد رائد السوء وبه قتل قابيل أخاه هابيل) . ومبعث ذلك العين الناظرة التي تدخل الرجل القبر ، وتدخل الجمل القدر .

٢ ـ **الطمع** : وهو أن يحاول الإنسان أن يجمع من الثروة ما لا يستهلكه طيلة حياته من حلال ومن حرام حتى يكون قطعة مادية بحته ، يلهث وراء المادة ليلاً ونهاراً ، معرضاً عمّا سوىٰ ذلك من بقية أمور الحياة ، متبعداً عن القيم الأخلاقية وأهدافها السامية . وبذلك يجلب الإنسان الضر بنفسه مما تخيله منفعة ، وحسب بذلك الشر خيراً ، والرذيلة فضيلة ؛ لأن المقاييس الطبيعية ضاعت في نظرته المادية لأمور الحياة .

٣ ـ **الأنانية** : وليس المقصود بها هنا هو ما تقدم في البحث السابق ، فهنا نقصد الإنسان الذي لا تهمه إلاّ المصلحة الخاصة ولو على حساب غيره ، وبذلك يقف في خط المواجهة مع الناس جميعاً مما يؤدي إلى إبعاده عن الميادين الإجتماعية ، ونبذه بعيداً عن محاسن الأخلاق وموت روح المتعاون ونزعة الخير .

هذا هو الضر الذي يجلبه الإنسان لنفسه ، أو لغيره من جهات مختلفة وهو ظاهر ماثل للإنسان من خلال ممارساته لأمور حياته العملية اليومية .

والضر بهذا الإعتبار لا يمكن تصور نسبته إلى الله ـ سبحانه ـ ؛ لأن أسباب الضر الداعية إلى جلبه هي النزعات والصفات الإنسانية ، وهذه لا

تنطبق عليه ـ سبحانه ـ بالضرورة .

فقوله ـ عليه السلام ـ في أول الفقرة : (يا من لا تضره ذنوب عباده) ينطبق على ما تقدم من الكلام تمام الإنطباق .

ثم انه لا شك أن الذنوب التي يقترفها الإنسان لا تضره بنفسه فقط . ، وإنما قد يتعدىٰ هذا الضرر إلى غيره من الناس ، فعندما يقترف الإنسان جريمة القتل مثلاً ، فإن الضرر لا يقع على الجاني والمجني عليه فحسب ، بل إن ذلك قد يتعدىٰ إلى أكثر ، أما بواسطة تهمة باطلة ، وأما بواسطة انتقام في غير محله . وهكذا وعلى هذا فقس بقية الذنوب .

أما الباري ـ جل جلاله ـ فإنه قد نهىٰ عن الذنوب لأن الذنوب ضارة بالإنسان ، ولا يلزم أن يكون هذا الضرر في العاجل دون الآجل ، أو في الدنيا دون الآخرة ، فنهاه عن ايجاد الضرر لنفسه أو لغيره من أبناء جنسه ، وبذلك تتجلىٰ الرحمة منه ـ سبحانه ـ لعباده في أبرز مظاهرها .

معنى الغنى المنسوب إلى الله

وفي معنىٰ قـوله ـ عليـه السلام ـ : (وهـو الغني عن طاعتهم) أن الغنىٰ هو عدم الحاجة إلى الغير ، فالغنىٰ المنسوب إلى الإنسان أن يكون في بعض الحاجات دون البعض الآخر ، بل لا يمكن أن ينسب الغنىٰ إلى الإنسان إلّا بما نسبه القرآن إليه في قوله ـ تعالى ـ : **﴿يا أيها النـاس أنتم الفقـراء إلى الله والله هو الغني الحميـد﴾**[٣] . أمـا الغنىٰ المنسـوب إليـه ـ تعالى ـ فهو يتجلىٰ في قوله ـ سبحانه ـ : **﴿وربك الغني ذو الرحمة ، إن يشـأ يذهبكم ويستخلف من بعـدكم ما يشـاء كما أنشـأكم من ذريـة قـوم آخرين﴾** قال المفسرون : هذا بيان عام لنفي الظلم عنه ـ تعالى ـ ؛ وذلك لأن الظلم وهو وضع الشيء في غير موضعه الذي ينبغي أن يوضع فيه ، أو بعبارة أخرى إبطال حق ، انما يتحقق من الظلم بأخذ شيء أو تركة بأحد أمرين .

١ ـ أما لحاجة منه إليه بوجه من الوجوه ، كأن يعـود إليه أو إلى من يهواه منه نفع أو يندفع عنه أو عن ما يعود إليه بذلك ضرر .

٢ ـ وأما لا لحاجة منه إليه ، بل لشقوة باطنية وقسوة نفسانية لا يعبأ

---

(٣) سورة فاطر ، آية : ١٥ .

بها وبما يقاسيه المظلوم من المصيبة ويكابده من المحنة ، وليس ذلك منه لحاجة بل من آثار الملكة المشؤومة .

والله ـ سبحانه ـ منزه عن هاتين الصفتين السيئتين فهو الغني الذي لا تمسه حاجة ، ولا يعرضه فقر . وذو الرحمة المطلقة التي ينعم بها على كل موجود بما يليق بحاله ، فلا يظلم ـ سبحانه ـ أحداً ، وهو الذي يدل عليه قوله : ﴿وربّك الغني ذو الرحمة﴾ ، ومعنىٰ الآية : وربّك هو الذي يوصف بالغنىٰ المطلق الذي لا فقر معه ولا حاجة ، وبالرحمة المطلقة التي وسعت كل شيء . ومقتضىٰ ذلك أنه قادر على أن يذهبكم بغناه ، لأنه غير محتاج إليكم ، ويستخلف من بعدكم ما يشاء من الخلق ، والشاهد عليه أنه أنشأكم برحمته من ذرية قوم آخرين أذهبهم لغناه عنهم .

فبغناه ـ سبحانه ـ وبرحمته تتوفر أسباب السعادة لكل موجود .

وفي معنىٰ آخر قال علماء البلاغة : إن الخبر قد يعرف بلام الجنس (الغني) لتخصيص المسند إليه بالمسند المعرّف وعكسه (حقيقه) نحو : هو الغفور الودود ، ونحو قوله ـ تعالى ـ : ﴿وتزودوا فإن خير الزاد (التقوى)﴾[٥] أو (إدعاءً) للتنبيه على كمال ذلك الجنس في المسند إليه كما هو وارد في النفس ، أو كماله في المسند .

---

(٤) سورة الأنعام ، آية : ١٣٣ .

(٥) سورة البقرة ، آية : ١٩٧ .

التوفيق للعمل الصالح

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (والموفق من عمل منهم صالحاً بمعونته ورحمته) فإن التوفيق لا يكون إلّا للعمل الصالح والرشاد ـ كما ورد في المعنى اللغوي ـ أما العمل السيء فليس من التوفيق في شيء ؛ لأن من الله ، والله ينهىٰ عن عمل السوء ؛ ولهذا فإنه لا ينسب إلى الله ، لأنه لا يرضىٰ لعباده إلّا فعل الخير ، ويكره لهم فعل الشر . ويحرمه عليهم ، ويتوعدهم بالعقوبة عليه . قال ـ تعالى ـ : ﴿ولا يرضىٰ لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم﴾[٦] قال الزمخشري في الكشاف : رحمة لهم لأنه يوقعهم في الهلكة أي الكفر ، ويرضىٰ الشكر لكم ، لأنه سبب فوزكم وفلاحكم .

فإذاً ما كرّه كفركم ، ولا رضي شكركم إلّا لكم واصلاحكم ، لا لأن منفعة ترجع إليه ؛ لأنه الغني الذي لا يجوز عليه الحاجة .

وقال في الميزان : هذا دفع لما ربما يمكن أن يتوهم من قوله : ﴿فإن الله غني عنكم﴾ أنه إذا لم يتضرر بكفر ، ولم ينتفع بإيمان فلا موجب

---

(٦) سورة الزمر ، آية : ٧ .

له أن يريد منا الإيمان والشكر ، فدفعه بأن تعلق العناية الإلٰهية بكم يقتضي ألّا يرضىٰ بكفركم وأنتم عباده .

والمراد بالكفر كفر النعمة الذي هو ترك الشكر بقرينة المقابلة في قوله : ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ .

ثم انه لا يخفىٰ أنّ العمل الصالح إذا كان بتوفيقه ـ وهو كذلك ـ فهو بمعونته لا شك ، فإن الملاك في العمل الصالح هو ما أمر به ـ سبحانه ـ وحث عليه ، وإذا كان بأمر منه فلا بدّ من أن يوجد عنصر المساعدة لتشجيع العبد على عمل المزيد من فعل الخير ، وبذلك يكون العبد متعرضاً للرحمة التي وسعت كل شيء ـ كما هو واضح في النص ـ . وبهذا يتحتم على الإنسان أن يحمد الله ـ تبارك وتعالى ـ على التوفيق للطاعة والمعونة عليها ، والتعرض للرحمة بسببها ، ولذلك فإنه عقب هذا بقوله ـ عليه السلام ـ : (فلك الحمد . . . النص) .

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (إلٰهي أمرتني فعصيتك ، ونهيتني فارتكبت نهيك) الأمر والنهي هما من مواضيع الإنشاء التي تعرض لها علماء البلاغة فقالوا في الأمر هو طلب حصول الفعل من المخاطب على وجه الإستعلاء مع الإلزام ، وذلك بأن يعد الأمر بنفسه عالياً لمن هو أقل منه شأناً . سواءً كان عالياً في الواقع أو لا ، ولهذا نسب إلى سوء الأدب ان لم يكن عالياً لأنهم قد قسموا الطلب لكلا جانبيه (الأمر والنهي) إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ الأمر الموجب للإلزام كقوله ـ تعالى ـ : **﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر﴾**[٧] وهي من العالي

(٧) سورة الإسراء ، آية : ٧٨ .

إلى الداني .

٢ ـ الإلتماس كقولك (أعطني القلم أيها الأخ) وهو من المتساويين في المرتبة .

٣ ـ الدعاء كقوله ـ تعالى ـ : **﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾**[٨] وهو الذي يصدر من الداني إلى العالي . وهناك أغراض أخرىٰ كثيرة تدخل في هذا الباب لمصراعيه الأمر والنهي مثل الإرشاد والتهديد والإباحة والإمتنان وغيرها .

فالأمر بهذا الإعتبار الذي يوجب الإلزام والوجوب معصيته مما يسبب الغضب الإلٰهي ، وكذلك النهي إذا ارتكب . وخطابه ـ عليه السلام ـ بهذه اللهجة المنكسر والدمعة المنحدرة مرّ كثير سن أمثالها فيما سبق من الكتاب ، ثم نراه يواصل في هذا الإنكسار فيقول :

---

(٨) سورة البقرة، آية: ٢٠١ .

البراءة عند الإمام

١ ـ (فأصبحت لا ذا براءة فأعتذر ، ولا ذا قوة فأنتصر) والبراءة التي أشار إليها في هذا النص هي البراءة من الذنب على نسق ما أشار إليه الكتاب العزيز في قوله ـ عزّ وجلّ ـ : **﴿وما أبرىء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء إلّا ما رحم ربي إن ربي لغفور رحيم﴾**[٩] .

وفي معنىً آخر إن البراءة والتبري التفصي مما يكره مجاورته ، ويكاد المعنيان أن يلتقيا معاً حيث أن البراءة من الذنب يعني الخروج من تبعات الذنوب ، وبرئت من فلان يعني فصلت عنه ، وأبرأت ذمته يعني ألغيت ما أطلبه منه من دين من مال أو عرض أو غيبة ، وبرأ من المرض شفي منه .

وهناك إشكالات تتوارد على هذه العبارة (فأصبحت لا ذا براءة فأعتذر) منها :

١ ـ كيف لا يكون الإمام الحسين المعصوم بريئاً من الذنب ؟

---

(٩) سورة يوسف ، آية : ٥٣ .

٢ ـ كيف يعتذر البريء عن براءته ، ولماذا لا يعتذر المذنب عن ذنبه .

٣ ـ وأخيراً ما معنىٰ نسبة الذنب إلى نفسه وهو المبرأ من الصغائر والكبائر .

وفي محاولة منّا لاستجلاء هذه الغوامض من الإشكالات التي تحوم حول العبارة نقول :

١ ـ إن المفاهيم التي يعيشها المعصوم في علاقته مع الله وعبادته أيضاً تختلف عن بقية الناس ، وكما ورد في المتواتر (حسنات الأبرار سيئات المقربين) فهي علاقة خاصة لها طابع خاص ، لا يمكن أن يصل إليها أحد من الخلق ، فهو يرىٰ أي وقت مهما قصر ، بل أي نفس لم يكن مشحوناً بالطاعة وذكر الله خسارة فادحة لا تعوض ؛ لأن الزمن الذي يفرط من الإنسان في غير ما فائدة ضياع من العمر الذي لا يعود ؛ لأن العمر كله معدود بالأنفاس . ففي حديث وارد عن الإمام الصادق (بالمعنى) انه سأل بعض أصحابه عن مقدار أمله في الدنيا فقال : بلغ من أملي في الدنيا أني لا أقوم من مقامي هذا ، فقال : إن هذا لكثير . لم لا قلت : إنه نفس إن خرج لم يدخل ، وإن دخل لم يخرج . هكذا يحاسب الإنسان المعصوم نفسه ، ويحسب أوقاته فيخطط لها ويُقنِّنُ لذلك ليسير في حياته بشكل منظم ، فهو يرىٰ أن الوقت الذي يفوت بدون حصيلة تقربه إلى الله خسارة من عمره فيسخط بذلك على نفسه التي روضها وكبح جماحها فقادها فأطاعته وعصاها فخضعت له هذا ما يمكن أن يقال في هذه النقطة .

٢ ـ وهذه النقطة هي متعلقة بالنقطة الأولى ، ولكن هنا ينبغي البحث

عن الذنب واختلاف مراتبه ، والتأمل فيما يهدي إليه العقل الفطري ؛ لأن الله يكلمنا على قدر عقولنا وبالموازين الفطرية التي نـزن بها الأشيـاء في مرحلتي النظر والعمل ، وقد استمد ـ تعالى ـ في موارد من بياناته بـالعقل والفكر الإنساني ، وأيد به مقاصد كلامه فقال تعالى : ﴿**أفلا تعقلون . . لا تتفكرون . .**﴾ وما في معناهما .

وفي هـذه المـرحلة لا يسمىٰ بـاسم الـذنب إلاّ التخلف عن متـون القوانين العملية ، وهذا هو المغروز المركوز في أذهاننا معاشر المسلمين أيضـاً من معنىً لفظ الذنب والألفـاظ الـتـي تقـارنـه ، كالسيئـة والمعصية والإثم والخطيئة والحوب والفسق ونحوها .

لكن الأمر لا يقف على هذا الحد فإن الأحكام العملية إذا عمل بها وروقبت وتحفظ عليهـا ساق المجتمـع إلى أخلاق وأوصـاف ممـاثلة لهـا ملائمة لمقاصد المجتمع التي هي لغاية إجتماعهم ، وهـذه الأخلاق هي التي يسميها المجتمع بالفضائل الإنسانية ويحرص ويحرض عليها وتقابلها الرذائل ، وهذه الفضـائـل لما كـانت مشتملة على واجبات لا محيص عن التلبس بها ومثله إشتمال الرذائل على المحـرمات ، وعلى أمـور مندوبـة مستحبة هي كالزينة والهيئة الجميلة فيها وهي الآداب الحسنة التي تتعلق بها أوامر عقلية إستحسانية إلاّ إنها إذا فرضت ظرفاً لأحدٍ منا كان ما يلازمها من الآداب وهي مندوبة في نفسها مأموراً به عقلاً أمراً إيجابياً قضـاءً لحق الظرفية المفروضة، مثال ذلك أن البدوي العائش عيشة العشائر البدوية لما كان ظرف حياته بعيداً من المستوىٰ المتوسط في الحياة الحضرية لا يؤاخذ إلاّ بالضروريات من أحكام المجتمع والسنن العامة التي يناله عقله معتذراً وفهمه، وربما أتىٰ بالوقيح من الأعمال أو الركيك من الأقوال فيضمض عنه الحضرى معتذراً بقصور الفهم وبعد الدار من السواد الأعظم الذي تكـرر

مشاهدة الرسوم والآداب فيه أحسن معالم للناس القاطنين فيه.

ثم المتوسط من الناس الحضريين لا يؤاخذ بما يؤاخذ به الآحاد النوادر من المجتمع الذين هم أهل الفهم اللطيف والأدب الظريف ، ولا عذر فيما يقع من المتوسط من الناس من ترك دقائق الأدب وظرائف القول والفعل إلاّ أن فهمه على قدر ما يأتي به ، لا يشعر من لوازم بأزيد مما يأتي به وظرفه هو ظرفه .

وما يأتي به مما لا ينبغي هو مما يؤاخذ به الأوحديون من الرجال فربما يؤاخذون بلحن خفي في كلام أو بتبطؤ يسير في حركة أو بتفويت آنٍ غير محسوس في سكون أو التفات أو غمض عين ونحو ذلك فيعد ذلك كله ذنباً منهم ، وليس من الذنب بمعنىٰ مخالفة المواد القانونية دينية كانت أو دنيوية ، وقد اشتهر بينهم : أن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، كما مر في التعليق على البند الأول.

وكلما دق المسلك ولطف المقام ظهرت هنالك خفايا من الذنوب كانت قبل تحقق هذا الظرف مغفولاً عنها لا يحس بها الإنسان المكلف بالتكاليف ، ولا يؤاخذ بها ولي المؤاخذة والمحاسبة .

وينتهي ذلك ـ فيما يعطيه الدقيق ـ إلى الأحكام الناشئة في ظرفي الحب والبغض فترىٰ عين البغض ـ وخاصة في حال الغضب ـ عامة الأعمال الحسنة سيئة مذمومة ، ويرىٰ المحب إذا تاه في الغرام واستغرق في الوله أدنى غفلة قلبية عن محبوبه ذنباً عظيماً وان اهتم بعمل الجوارح بتمام أركانه ، وليس إلاّ أنه يرى أن قيمة أعماله في سبيل الحب على قدر توجه نفسه وانجذاب قلبه إلى محبوبه فإذا انقطع عنه بغفلة قلبية فقد أعرض عن المحبوب وانقطع عن ذكره وأبطل طهارة قلبه بذلك .

حتىٰ أن الإشتغال بضروريات الحياة من أكل وشرب ونحوهما يعد عنده من الإجرام والعصيان نظراً إلى أن أصل الفعل وإن كان من الضروري الذي يضطر إليه الإنسان لكن كل واحد من هذه الأفعال الإضطرارية من حيث أصله إختباري في نفسه ، والإشتغال به اشتغال بغير المحبوب وإعراض عنه إختياراً وهو من الذنب ، ولذلك نرىٰ أهل الوله والغرام وكذا المحزون الكئيب ومن في عداد هؤلاء يستنكفون عن الإشتغال بأكل أو شرب أو نحوهما .

وعلى نحو من هذا القبيل ينبغي أن يحمل ما ربما يروى عنه ـ صلى الله عليه وآله ـ من قوله : (إنه ليران على قلبي فاستغفر الله كل يوم سبعين مرة) ، وعليه يمكن أن يحمل بوجه قوله تعالى : **﴿واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربّك بالعشي والإبكار﴾**[١٠] .

٣ ـ أما نسبة الذنب إليه فليس هو الذنب المعروف كما اصطلح عليه في الشرح ، ولكنه اختيار الطاعة الأقل أجراً أو انشغاله ببعض ضرورات الحياة عن بعض الطاعات التي تعود أن يأتي نفلاً ولا ضير في ذلك . فهو يرى أن فوات الطاعة الأكثر أجراً شيئاً لا مبرر له ، بل ربما اعتبره هو بنفسه ذنباً ينبغي ألّا يحدث مرة أخرىٰ .

من خلال ما ذكرنا في هذه النقاط الثلاث يظهر لنا معنىٰ قوله ـ عليه السلام ـ : (فأصبحت لا ذا براءة فأعتذر) .

---

(١٠) سورة غافر ، آية : ٥٥ .

حَوْلَ سُورَةِ بَرَاءَة

في هذه السورة نزلت براءة الحكم ببطلان العهد ورفع الأمان عن جماعة من المشركين كانوا قد عاهدوا المسلمين ثم نقضه أكثرهم ولم يبق إلى من بقي منهم وثوق تطمئن به النفس إلى عهدهم وتعتمد على يمينهم وتأمن شرهم وأنواع مكرهم ، قاله في الميزان .

ونقل عن تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿براءة من الله ورسوله﴾[١١] : حدثني أبي عن محمد بن الفضل عن ابن أبي عمير عن أبي الصباح الكناني ، عن أبي عبدالله ـ عليه السلام ـ قال : أنزلت هذه الآية بعد ما رجع رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ من غزوة تبوك في سنة تسع من الهجرة قال : وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ لما فتح مكة لم يمنع المشركين الحج في تلك السنة وكان سنة من بين العرب في الحج أنه من دخل مكة وطاف البيت في ثيابه لم يحل له إمساكها ، وكانوا يتصدقون بها ولا يلبسونها بعد الطواف فكان من وافى مكة يستعير ثوباً ويطوف فيه ثم يرده ، ومن لم يجد عاريَّة ولا كريّاً ولم يكن له إلاّ ثوباً واحداً طاف بالبيت عارياً .

---

(١١) سورة التوبة ، آية : ١

وجاءت امرأة من العرب وسيمة جميلة فطلبت ثوباً عاريةً أو كريّاً فلم تجده فقالوا لها : إن طفتي في ثيابك احتجت أن تتصدقي بها فقالت : كيف أتصدق وليس لي غيرها ؟ فطافت بالبيت عريانة وأشرف لها الناس فوضعت إحدىٰ يديها على قبلها والأخرىٰ على دبرها وقالت شعراً :

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله

فلما فرغت من الطواف خطبها جماعة فقالت ان لي زوجاً .

وكانت سيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ قبل نزول سورة براءة ألاّ يقاتل إلاّ من قاتلهم ولا يحارب إلاّ من حاربه وأراده ، وقد كان أنزل عليه في ذلك : **﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾**(١٢) فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ لا يقاتل أحداً قد تنحى عنه واعتزله حتى نزلت عليه سورة براءة ، وأمره بقتل المشركين من اعتزله ومن لم يعتزله إلاّ الذين قد عاهدهم رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ يوم فتح مكة إلى مدة ، منهم صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، فقال الله ـ عزّ وجلّ ـ : **﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾**(١٣) ثم يقتلون حيث ما وجدوا بعد . هذه أشهر السياحة عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشراً من ربيع الآخر .

فلما نزلت الآيات من سورة براءة دفعها رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ إلى أبي بكر وأمره أن يخرج من مكة ويقرأها على الناس بمنىٰ يوم النحر فلما خرج أبو بكر نزل جبرئيل على رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ

---

(١٢) سورة النساء ، آية : ٩٠ .

(١٣) سورة التوبة ، آية : ١ .

فقال : يا محمد لا يؤدي عنك إلاّ رجل منك .

فبعث رسـول الله ـ صلى الله عليه وآلـه ـ أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في طلب أبي بكر فلحقه بالروحاء وأخذ منه الآيات فرجع أبـو بكر إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وآلـه ـ فقال يـا رسول الله ، أنـزل الله فيَّ شيئاً ؟ فقال : لا ان الله أمرني أن لا يؤدي عني إلاّ أنا أو رجل مني .

وفي تفسير العياشي عن حريز عن أبي عبـدالله ـ عليه السـلام ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ بعث أبا بكر مع براءة إلى الموسم ليقرأها على الناس فنزل جبرئيل فقال : لا يبلغ عنك إلاّ علي فدعا رسول الله علياً وأمره أن يركب نـاقته العضبـاء ، وأمره أن يلحق أبـا بكر فـأخذ منـه براءة وقرأها على الناس بمكة فقال أبو بكـر : أسخط ؟ فقال : لا إلاّ أنـه أنزل عليه أنه لا يبلغ إلاّ رجل منك .

فلما قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ مكة وكان يوم النحر بعد الظهر وهـو يوم الحج الأكبر قـام ثم قال : إني رسـول الله إليكم فقرأهـا عليهم : **﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾** عشـرين من ذي الحجة والمحـرم وصفر وشهـر ربيع الأول وعشراً من شهر ربيع الآخر ، وقال : لا يطوف بالبيت عـريان ولا عريانة ولا مشرك بعـد هذا العـام ، ومن كان لـه عهد عنـد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ فمدته إلى هذه الأربعة الأشهر .

القُوَّةُ وأَسبَابُها

أما قوله : (ولا ذا قوة فانتصر) فإن النصر ملازم للقوة ، ولا يمكن تصوره مستقلاً عنها ، وذلك لأن القوة تتعدد جهاتها وأسبابها فمنها :

١ ـ أن تكون القوة في العتاد وإن كان العدد قليلاً ، فإن من أسباب النصر هو حسن الآلة في الحرب ومعرفة كيفية استخدامها .

٢ ـ ومنها كثرة العدد في الجند الذين يقاتلون العدو في ميادين القتال ، إضافة إلى وجود الروح المعنوية للمقاتلين .

٣ ـ ومنها الخطط العسكرية التي تؤدي إلى النصر من أقرب طريق وتتفادىٰ بإحكامها كثرة الخسائر البشرية والإصابات في صفوف المقاتلين .

هذه بعض أسباب النصر ، وهي تمثل القوة المادية عند الإنسان ، كما أن للنصر أيضاً بعض الأسباب قد ترد في هذا المقام ، فمنها مثلاً عنصر المباغتة ، وهو مفاجأة العدو من حيث لا يعلم ، ومنها معرفة أسرار العدو المقاتل وخططه العسكرية ، وكثير من الأمور غير ذلك ، ولكن ربما لا يسمىٰ قوة بالمعنىٰ المشار إليه في النص ، ولهذا وغيره أشار أبو الطيب المتنبي في قوله :

الـرأي قبـل شجـاعـة الشجعـان ... هـو أول وهي المـحـل الثـانـي
فـإذا همـا اجتمعـا لنفس حـرة ... بلغت مـن العـليـاء كـل مكـان
ولـربـمـا طعـن الفـتى أقـرانـه ... بـالـرأي قبـل تـطاعن الأقـران
لـولا العقـول لكـان أولىٰ ضيغم ... أدنىٰ إلى شـرف مـن الإنسـان

ثم قـال ـ عليـه السـلام ـ : (فبأي شيء أستقبلك يـا مـولاي) الإستقبـال هو التـوجه وهـو نقيض الإستدبـار ـ كما ورد في فصـل اللغة ـ والإقبال أخص منه فقوله ـ عليه السلام ـ : (أستقبلك) يعني لا أستـطيع ان أقـوم بهذا العمـل وإن كان قليـلاً عوضـاً عن الكثيـر وهـو (الإقبـال) وخصوصياته ؛ لأن الأخص أعلى درجة من الأعم ، وبين الكلمتين عموم وخصوص مطلق ، كالمؤمن والمسلم . فكل مقبـل مستقبل ، وليس كـل مستقبل مقبل . فربّ مستقبل للقبلة في صلاته ولكنه غير مقبل بقلبه ، وفي هذا المعنىٰ كلام طويل أعرضنا عنه خوف الإطالة .

ويقول ـ عليه السلام ـ : (.أبسمعي أم ببصري أم بلساني أم بيدي أم برجلي ، أليس كلها نعمك عندي ، وبكلها عصيتك يا مولاي . . ؟!) أما السمع فإن معصيته تتمثل في المسموعات التي خصصت هـذه الجارحـة لتلقيها والإستفادة منها مرة ، والتضرر منها مرة أخرى . فـإن الإنسان قـد يتعمد إستماع الكلام المحرم كالغيبة والنميمـة والبهتان ، ولهـو الحديث الذي فسروه مرة بالغناء ومرة بالحديث الذي لا خير فيـه . هذه الجـارحة جعلها الله مفتوحة دائماً لا تتعطل بإغلاقها لحظة واحدة من حياة الإنسان ؛ وذلك حفاظاً على الإستفادة من كل ما يدور حوله من أصوات يستفيد منها في شؤون حياته ودينه ، فلا تفـوته شـاردة ولا واردة . إلاّ إن الإنسان قـد يسيء إستخدام السمع ويسيء اختيار المسموع ، وقد مرّ الحـديث حول ذلك في أبحاث متفرقة من الكتاب .

بقية الأعضاء ودورها

أما البصر فإن الله قد أعطاه الإنسان لكي يستمتع برؤية الألوان التي تكون الرؤية الكاملة للمرئيات ، وقد مرّ تفصيل ذلك في الجزء الثاني من الكتاب . ويستطيع الإنسان أن يتحكم في التصرف في هذه الجارحة التي يخترق بها الحجب فيبتعد بها عن ارتكاب المعاصي كالنظر إلى عورات الناس وكل ما حرّم الله ، وذلك بواسطة الجفنين اللذين يكتنفان العين من أسفلها إلى أعلاها .

وأما اللسان فإن معاصيه كثيرة لا تحصىٰ وتتمثل في مثل الكذب والغيبة والسباب والشتم والكلام البذيء وغيره . على أن اللسان وهو الجارحة الهامة عند الإنسان ؛ لأنه يترجم ما يدور في العقل وما يختلج بين سائر الأعضاء من إنفعالات هو ذو حدّين ، فإما أن يكون فتيقاً في الكلام الطيب وطريق الخير ، وأما أن يكون سليطاً في كلام الهذر والقول البذيء . وهو يردي الإنسان في مهاوي الردىٰ . قال الشاعر :

وزن الكلام إذا نطقت ولا تكن ثرثارة في كل ناد تخطب
إن اللسان هو الذي ينجي الفتى من كل هول في الحياة ويعطب

أما اليد فإنها تعصي بالضرب والإعتداء والسرقة وغير ذلك من الجرائم المختصة بها .

وأما الرجل فإن معصيتها السير إلى المحرم ، والسعي في الجريمة . وهذه كلها من النعم التي أعطاها الله للإنسان ليقضي بها شؤونه في هذه الحياة كل عضو في ما يخصه . ولكن الإنسان يسيء استخدام هذه الجوارح ، فيسخرها في المعصية بدلاً من الطاعة ويستعملها في الشر بدلاً من الخير . على إن الإنسان وهو يتنعم بهذه الجوارح لا يشعر بأهميتها إلّا عندما يفتقدها ، وهذا من الأمور البديهية التي لا تحتاج إلى برهان ، وقد قالوا أن الليلة الظلماء يفتقد فيها البدر .

وقد أعطى الله الإنسان من الإرادة ما يستطيع بها من التحكم في جميع حركاته وسكناته ، هذا في حدود هذه الأعضاء ، أما في حدود العقل فإن الله ـ سبحانه ـ قد أعطىٰ الإنسان تلك القوة العقلية التي استطاع بها أن يسخر أعتىٰ الكائنات الحية التي تشاركه في هذا العيش . وقد أشار أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ إلى هذه النعم في إحدىٰ روائع خطبه من كتاب نهج البلاغة في (الخطبة الغرّاء) وهي في صفة خلق الإنسان . قال : (أم هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام ، وشغف الأستار ، نطفة دهاقا ، وعلقة محاقا ، وجنيناً وراضعاً ، ووليداً ويافعاً ، ثم منحه قلباً حافظاً ، ولساناً لافظاً ، وبصراً لاحظاً ، ليفهم معتبراً ، ويقصر مزدجراً ، حتىٰ إذا قام اعتداله ، واستوىٰ مثاله ، نفر مستكبراً ، وخبط سادراً ، ماتحاً في غرب هواه ، كادحاً سعياً لدنياه ، في لذات طربه ، وبدوات إربه ، ثم لا يحتسب رزية ، ولا يخشع تقية فمات في فتنته غريراً ، وعاش في غفوته يسيراً ، لم يفد عوضاً ولم يقض مفترضاً ، دهمته فجعات المنية في غبر جماحه وسنن مراحه ، فظل سادراً ، وبات ساهراً ، في غمرات الآلام ،

وطوارف الأوجاع والأسقام ، بين أخ شقيق ووالد شفيق ، وداعية بالويل جزعاً ، ولأمة للصدر قلقاً ، والمرء في سكرة ملهثة وغمرة كارثة ، وأنة موجعة ، وجذبة مكربة ، وسوقة متعبة . ثم أدرج في أكفانه مبلسا وجذب منقاداً سلساً ، ثم ألقي في الأعواد رجيع وصب ، ونضو سقم تحمله حفدة الولدان ، وحشدة الإخوان ، إلى دار غربته ، ومنقطع زورته ، ومفرد وحشته ، حتى إذا انصرف المشيع ، ورجع المتفجع ، أقعد في حفرته ، نجياً لبهتة السؤال ، وعثرة الإمتحان . وأعظم ما هناك بلية نزول الحميم ، وتصلية الجحيم ، وفورات السعير ، وسورات الزفير ، لا فترة مريحة ، ولا دعة مزيحة ، ولا قوة حاجزة ، ولا موتة ناجزة ، ولا سنة مسلية ، بين أطوار الموتات ؛ وعذاب الساعات إنا بالله عائذون .

عباد الله أين الذين عمروا فنعموا ، وعلموا ففهموا ، وأنظروا فلهوا ، وسلموا فنسوا ؛ أمهلوا طويلاً ، ومنحوا جميلاً وحذروا أليماً ، ووعدوا جسيماً ، إحذروا الذنوب المورطة والعيوب المسخطة .

أولي الأبصار والأسماع ، والعافية والمتاع ، هل من مناص أو خلاص ، أو معاذ أو ملاذ ، أو فرار أو محار ! أم لا ؟ **﴿فأنىٰ تؤفكون﴾** أم أين تصرفون ! أم بما تفترون ! وإنما خط أحدكم من الأرض ، ذات الطول والعرض ، قيد قدّة ، متعفراً على خدّه ! الآن عباد الله والخناق مهمل ، والروح مرسل في فينة الإرشاد ، وراحة الأجساد ، وباحة الاحتشاد ومهل البقية وأنف المشية ، وأنظار التوبة ، وانفساح الحوبة قبل الضنك والمضيق والروع والزهوق ، وقبل قدوم الغائب المنتظر ، وآخذة العزيز المقتدر) . . .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (فلك الحجة والسبيل علي) فالحجة كما عرفها علماء الميزان : هي عبارة عمّا يتألف من قضايا يتجه بها إلى

مطلوب يستحصل بها . وإنما سميت (حجة) لأنه يحتج بها على الخصم لإثبات المطلوب ، وتسمىٰ (دليلاً) ؛ لأنها تدل على المطلوب . وتهيئتها وتأليفها لأجل الدلالة يسمىٰ (استدلالاً) . وكثيراً ما نرىٰ هذه اللغة في لسان أهل البيت ـ عليهم السلام ـ فمن ذلك ما جاء في دعاء (كميل بن زياد ـ رضوان الله عليه ـ) الذي يرويه عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : (ولا (حجة) لي في ما جرىٰ علي فيه قضاؤك ، وألزمني فيه حكمك وبلاؤك . . . الدعاء) والمعنىٰ المقصود هنا عند الإمام أمير المؤمنين هو المعنىٰ المقصود عند الحسين ـ عليه السلام ـ ، وإن كان المعنىٰ يدور دوران النفي والإثبات نسبة إلى الخالق والمخلوق والعبد ومولاه و (السبيل) يعطي ذلك المعنىٰ أيضاً ، فكأنه ـ عليه السلام ـ جاء بكلمة (السبيل) مع ترادف المعنىٰ بينها وبين (الحجة) لزيادة تأكيد الكلام على المعنىٰ المقصود ، وهو الزام العبد في جميع الحالات . وقد ورد في الكتاب المجيد كثير من هذا القبيل مثل قوله ـ تعالى ـ : ﴿**ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس**﴾[١٤] . وقد ورد هذا المعنىٰ بلفظ السلطان في قوله ـ تعالى ـ : ﴿**ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً** . . . ﴾[١٥] الآية قال المفسرون المراد بجعل السلطان لوليّه تسليطه شرعاً على قتل قاتل وليه قصاصاً ، وهذا السلطان بمعنىٰ الحق في القصاص وهو بمعنىٰ الإلزام ، كما أن الحجة تثبت الحق للقائم بها .

وبذلك يتجلىٰ ما قاله ـ عليه السلام ـ من أن الحجة والسبيل لله عليه

---

(١٤) سورة الشورىٰ ، آية : ٤١ ، ٤٢ .

(١٥) سورة الإسراء ، آية : ٣٣ .

وعلى العباد كافة هو إلزامه بكلمة التقوىٰ ، وأن الإنسان مهما بذل في طاعة الله فهو لا يزال في تقصير ، ومهما بذل من طاعة فإنها تنحسر أمام هذه النعم الكثيرة التي لو حوسب الإنسان عليها كلها واحدة فواحدة لما بقي معه شيء من أعماله ..

قال عليه السلام :

[يٰا مَنْ سَتَرَنِي مِنَ الآبٰاءِ وَالأُمَّهٰاتِ أَنْ يَـزْجُرُوني ، وَمِنَ الْعَشٰـائِرِ وَالإِخْـوانِ أَنْ يُعَيِّرُوني ، وَمِنَ السَّـلاٰطينِ أَنْ يُعٰاقِبُـوني ، وَلَوِ اطَّلَعـوُا يٰـا مَـوْلاٰيَ عَلىٰ مَـا اطَّلَعْتَ عَلَيْـهِ مِنِّي إذاً مَـا أَنْـظَرُوني ، وَلَـرَفَضُـوني ، وَقَـطَعُوني ، فَهٰـا أَنَا ذٰا بَيْنَ يَـدَيْكَ ، يٰـا سَيِّدي خَـاضِعاً ذَليـلاً ، حَصيـراً حَقيراً ، لاٰ ذُو بَرٰآءةٍ فَأَعْتَذِرُ ، وَلاٰ ذُو قُوَّةٍ فَأَنْتَصِـرُ ، وَلاٰ حُجَّةٍ لِي فَـأَحْتَجُّ بِهٰا ، وَلاٰ قٰائِلٌ لَمْ أَجْتَرِحْ ، وَلَمْ أَعْمَلْ سُوّءاً] .

اللُّغَة

يزجروني : الزجر المنـع والنهي والإنتهار ، وزجـر السبع والكلب وزجـر بـه نهنهـه . قـال تعـالى : ﴿**ولقـد جـاءهم من الأنبـاء مـا فيـه مزدجر**﴾(١) . وقال سيبويه : وقالوا هو مني مزجر الكلب أي بتلك المنزلة وهو من الظروف المختصة أو التي أجريت مجرىٰ المختصة ، والزجر أن يزجر طائراً أو خبياً سانحاً أو بارحاً متطيراً فيه وقد نهي عن الطير . والزجر

---

(١) سورة القمر ، آية : ٤ .

العيافة وهو ضرب من التكهن ، والزجر للطير هو التيمّن والتشاؤم بها والتفاؤل بطيرانها كالسانح والبارح ، وهو نوع من الكهانة والعيافة ، وزجر البعير أي ساقه .

يعيروني : قال الأزهري : فرّق بعضهم بين عايرت وعيّرت ، فجعل عايرت في المكيال ، وعيرت في الميزان . والصواب هو أن يكون عيرت من العار والتعيير ، وأنشد الباهلي قول الراجز :

وإن أعارت حافراً معاراً   وأباً حمت نسوره أوكاراً

وقال الشاعر الآخر :

عيّرتني بالشيب وهو وقار   ليتها عيرت بما هو عار
إن تكن شابت الذوائب مني   فالليالي تزينها الأقمار

وقال السموأل ابن عاديا :

تعيرنا إنا قليل عديدنا   فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا إنا قليل وجارنا   عزيز وجار الآخرين ذليل

السلاطين : جمع سلطان بوزن براكين جمع بركان . والسلطان الحجة والبرهان ولا يجمع ؛ لأن مجراه مجرىٰ المصدر . قال ـ تعالى ـ : **﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾**(٢) وقد مرّ هذا المعنىٰ في آخر البحث السابق . والسلطان الوالي وهو (فعلان) يذكر ويؤنث ، وهو قدرة الملك . وسمي سلطاناً قيل : لتسليطه ، وقيل لأنه حجة من حجج الله ـ ان كان عادلاً ـ فمرة يذكر في معنىٰ الرجل السلطان ، ومرة يؤنث وهو في معنىٰ الحجة . قال ـ تعالى ـ : **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾**(٣) .

---

(٢) سورة الزخرف ، آية : ٤٦ .
(٣) سورة الحجر ، آية : ٤٢ .

ولرفضوني : الرفض ترك الشيء ، وارفضّ الدمع سال وتفرق وتتابع سيلانه ، وكل متفرق مرفض ، والرفض أن يطرد الرجل غنمه وأبله حيث يهوىٰ ، فإذا بلغت لها يمنها تركها .

حصيراً : الحصر ضرب من العي ، حصر الرجل حصراً مثل تعب تعباً ، وقيل لم يقدر على الكلام ، وحصر صدره ضاق . وإذا ضاق المرء عن أمر قيل حصر صدر المرء عن أهله يحصر حصراً . قال الله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿**إلّا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاقاً أو جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم**﴾[٤] . والحصير المحبس وفي التنزيل : ﴿**وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً**﴾[٥] ، ورجل حصر كتوم للسر حابس له لا يبوح به . قال جرير :

ولقد تسقطني الوشاة فصادفوا　　　حصراً يسرك يا أميم ضنينا

أجترح : جرح الشيء واجترحه كسبه . وفي التنزيل : ﴿**وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار**﴾[٧] وفلان جارح أهله وجارحتهم أي كاسبهم ، والجوارح من الطير والسباع والكلاب ذوات الصيد ؛ لأنها تجرح لأهلها ، أي تكسب لهم وجوارح الإنسان أعضاؤه وعوامل جسده كيديه ورجليه .

البيان

الستر هو خلاف الظهور ، والستر قد يكون على الفعل القبيح وغير

---

(٤) سورة النساء ، آية : ٩٠ .

(٥) سورة الإسراء ، آية : ٨ .

(٦) سورة الأنعام ، آية : ٦٠ .

(٧) سورة عبس ، آية : ٣١ .

القبيح ، إلّا أن الإستعمال فيه في المجال اللغوي أكثر ، وبهذا ورد النص في الدعاء لحملة العرش : (يا من أظهر الجميل وستر القبيح . . . الدعاء) . إلّا أن الإستعمال الوارد في العبارة الماثلة أمامنا خاص بفعل القبيح ؛ وذلك بقرينة وجود الزجر ؛ لأنه لا يكون إلّا على الفعل القبيح ، وكذلك التعيير من الإخوان لا يكون إلّا على الفعل القبيح أيضاً ومثله العقاب .

ومن الملاحظ في هذا الأسلوب دقة التركيب ورص الكلمات رصاً غريباً ، حتىٰ لتأخذ الواحدة منها بعنق الأخرىٰ . فلقد استعمل الزجر من الآباء والأمهات بواقع السيطرة والمسؤولية لهما على الإبن . واستعمل التعيير من الإخوان وهو بمعنىٰ التأنيب ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا أكثر من ذلك في حال تفشي الخطأ وعمل القبيح من بعضهم خصوصاً إذا قلنا بأن معنىٰ الإخوان هم القرناء والأصدقاء .

ثم قرن العقاب بالسلاطين وذلك بحكم المحافظة على الطمأنينة في المجتمع ، وكف أكف السوء من بين الناس عن بعضهم البعض وقطع دابر الفتنة .

ومن الملاحظ أيضاً في قوله ـ عليه السلام ـ : (يا من سترني من الآباء والأمهات أن يزجروني ، ومن العشائر والإخوان أن يعيروني ، ومن السلاطين أن يعاقبوني) أنه قد طرح أساليب التربية الإنسانية في مراحلها المختلفة . فقد ذكر ثلاث مراحل عن التربية تتطور بتطور حياة الإنسان سنطرحها للبحث قريباً .

ولقد قال علماء النفس من جملة ما قالوا : من الذات الفردية إلى المجتمع الواسع يتطور الطفل في نموه الإجتماعي . وقد مرّ معنا ما يقرب

من هذا في ما مضىٰ من أبحاث الكتاب .

وقد ذكروا أيضاً في كثير من أبحاثهم في مقام التساؤل عن مسؤولية التربية عند الإنسان هل هو البيت ؟ أم المدرسة ؟ أم المجتمع ؟ بأن لكل من هذه المرافق الثلاث دوراً هاماً في تكوين شخصية الإنسان الحر ، وتكاد أن تكون المسؤولية موزعة بين هذه المرافق الحيوية الضرورية في حياة الإنسان .

مراحل التربية

ونعود مرة ثانية فنذكر تلك المراحل التربوية الثلاثة التي أشرنا إليها توّاً ، وهي التي يمر بها الإنسان عبر مطاوي عمره حتماً فتقول :

المرحلة الأولى : وهي مرحلة الطفولة ، وهذه المرحلة تمتد إلى ما قبل سن البلوغ ، يعيش فيها الإنسان حراً طليقاً بعيداً عن التكليف ، لأنه لم يصل إلى مرحلة الكمال العقلي والجسماني ، فالتربية في هذه المرحلة لم تخرج عن كونها ملاحظات عامة ومدارات في أول أيامها ، ثم قد تتطور في نهاية الأمر إلى الضرب الذي يدخل ضمن معنىً الزجر الذي ذكره النص ، ولكنه زجر مشوب بالمحبة والرأفة ، وفيه كثير من الحذر ضمن المحافظة على نفسية الطفل من التعقيد ؛ لأنه صادر من الآباء والأمهات ، وهم أقرب الناس إلى الولد ، والولد من أحب الناس إليهم .

وفي هذه المرحلة يتجسد الدور الذي يؤديه كل من الأم والأب اتجاه الولد بتوجيهه الوجهة الصالحة ، وإعطائه المحبة مرة ، ومحاسبته على أخطائه مرة أخرىٰ ، فيوضع كل شيء في محله ووقته شدة وليناً حتى لا ييأس الولد من والديه ، ويفلس بذلك من الحنان والعطف ، ولا يستهين بقدرهما فيفلت الزمام ويبتعد عن الواقعية بعدم الإكتراث بهما .

على أننا لا ننكر الشواذ من الطرفين ، أي سواء من جانب الآباء والأمهات ، أو الأولاد ، فإن هناك من كلا الطرفين ما يتعب الواحد منهما الآخر . ومن الملاحظ في هذا النص بأن الحسين ـ عليه السلام ـ قد طرح مسؤولية التربية على الأب والأم جميعاً ، لأنه قد شرك بينهما بحرف العطف (و) ، إلّا أنه بتقديمه الآباء على الأمهات ألصق بهم التربية بالزجر دون الأمهات ؛ لأن الأمهات قد ملئت قلوبهن عطفاً ومحبة وحناناً على أبنائهن ، فهن أقرب إلى اللين منهن إلى الشدة والزجر .

المرحلة الثانية : وهي مأخوذة من قوله ـ عليه السلام ـ : (ومن العشائر والإخوان أن يعيروني) ، والعشائر هنا جمع مفرده عشير على وزن نظائر ونظير وهم الخلطاء الذين يعاشرهم الإنسان في غدوه ورواحه ويأنس بهم إذا كانوا من أترابه حيث يطلعهم على أسراره ويبث إليهم همومه ليواسوه في كثير من أزماته . مع أنه قد يسيء الإختيار للأصدقاء ، فيحسب الطيب رديئاً وبالعكس .

أما الإخوان فإنهم أخص من العشائر ، والعبارة من باب ذكر الخاص بعد العام نظير قوله ـ تعالى ـ : ﴿**وفاكهة وأبّا**﴾ وفي ذلك نكات بلاغية منها التنبيه على أهمية المخصوص بالذكر دون غيره من ذلك العموم .

وفي هذه المرحلة وهي المرحلة الخطرة من حياة الإنسان نجد أن علماء التربية قد أعطوها أهمية خاصة بعد أن شغلت بالهم . ويتمثل ذلك في كيفية المخالطة والمعاشرة ، وكيفية اختيار الأصدقاء وانتخابهم ؛ لأن ذلك له أثر بالغ في توجيه الإنسان ، فإن كان الخليط والعشير صالحاً فإنه

بحكم المخالطة والمجاورة ينصلح الخليط الآخر ، والعكس بالعكس فإن قرين السوء لـه أثر كبيـر في انهدام الأخـلاق ، وقد قـال الشاعـر في هذا المعنى :

صـاحب أخىٰ ثقـة تحظ بصحبتـه فالطبع مكتسب من كل مصحـوب
كـالـريـح آخـذة ممـا تمـر بـه نتنـاً من النتن أو طيبـاً من الـطيب

وتبدأ هذه المرحلة ببلوغ الإنسان التكليف الشـرعي التي يبدأ فيهـا طرح بعض المسؤوليات على الإنسان وتبدأ محاسبته على التفريط فيها ؛ لأنه قد بلغ حين ذاك إلى الكمال العقلي والجسماني ، وبذلك يصل إلى الكمال الإنساني العام . وفي هذه المرحلة أيضاً تكون مسؤوليته عن نفسه باختيار الخليط الصالح ، وتكون مسؤولية الأبوين أيضاً مـراعاة الـولد في حركاته وسكناته التي لا تخلو من الطيش في كثير الأحيان . فلا ينبغي أن نجرد الأبوين في هذا العمر للولد من مسؤوليتهما في إرشـاده ونصحه في دلالتـه إلى النهج القـويم ، هذا إذا كـان الأبوان صـالحين . أما إذا كـان الأبوان غير ذلك فإن الولد في هذه الحال يرتمي في أحضان الرذيلة إلّا من عصمه الله . ولا يبقىٰ أمام الولد والحـال هذه إلّا اختيـار القرين الصـالح الذي يأخذ بيده إلى جادّة الطريق ولا نقول بعد هذا أن الدور البـاطل قـد تحقق ؛ لأن الله ـ سبحانه ـ قد أعطىٰ الإنسان في هذه المرحلة من العمر النضج العقلي والكمال الجسمي ويمكنه بذلك الإعتماد على نفسـه دون أي عنصر خارجي .

المرحلة الثالثة : وهي التي أشار إليها بقوله ـ عليه السلام ـ : (ومن السلاطين أن يعاقبوني) ولقد قلنا في ما مضى ان المهمة الملقاة على عاتق السلاطين هي المحافظة على الأمن والإستقرار ، والضرب على يد الظالم من الإستمرار في ظلمة . وفي هذه المرحلة من حياة الإنسان يكون هو في

عنفوان قوته ، فهو بما آتاه الله من قوة الشباب وحيويته ربما أساء إستعمال هذه القوة ، فيعتدي على غيره ، فينتشل ويسرق ويقتل ، ويضرب ، وليس له رادع أمام هذه القوة العارمة إلّا العقاب لكف الأذىٰ وقطع دابر الشر . ولا يتكفل بهذا العشائر والإخوان والوالدان ، فإن هؤلاء يساوونه في القوة فلا يؤثرون عليه . ولكن السلاطين بما أوتو من قوة في العتاد والعدة وكثرة الجند يستطيعون أن يؤدبوه أدباً رادعاً .

فالستر من الله على هذا كله هو من باب المحافظة على كيان الإنسان وسمعته ونفسيته من التعقيد . فالآباء والأمهات يزجرونه لأن لهم الصلاحية الكافية في ضربه وتأديبه بحسب ما كلفهم الله به ضمن الضوابط الشرعية .

والعشائر والإخوان يعيرونه ويحقرونه ويزدرونه إذا ما صدرت منه هذه الأعمال ؛ لأنهم لا يستطيعون أكثر من ذلك ـ كما مر ـ .

وأما السلاطين فبحكم مسؤوليتهم في السلطة يضربون علي يده ليمنعوه من الإجرام ، وممارسة أعمال الشر ، حفاظاً على المجتمع من أن ينتشر فيه الفساد .

ثم عاد يكرر ويؤكد بقوله ـ عليه السلام ـ : (ولو اطلعوا يا مولاي على ما أطلعت عليه مني إذاً ما أنظروني ولرفضوني وقطعوني) .

أما الآباء والأمهات فيزجرونه لئلّا يتكرر منه الجرم ولكي يجعلوا من إبنهم إنساناً صالحاً ، وذكراً لهم جميلاً وحسنة من حسناتهم .

وأما الإخوان فيعيرونه ليردعوه عن ممارسة مثل ذلك الجرم ؛ لأنه لصيق بهم ومن ثم يتصل العار بهم منه ، فهم يحاولون بذلك أن يبتعدوا عن العار بتعييره لئلّا تقع فيهم التهمة ، أو بدافع التطاول عليه وهتكه لا

لغرض آخر ، وذلك من شأن قرناء السوء .

وأما السلاطين فقد قلنا العلة في معاقبته . فمنهم من يـرفضه لأنـه عمل المنكر ، ومنهم من يقطعه لينفي عن نفسه العار .

فإذا كان الآباء والأمهات والعشائر والإخوان والسلاطين هؤلاء جميعاً كلهم يريدون فضيحته ، وكشف سره كل بحسب مسؤوليته فإن الإنسان في هذه الحال لا يسعه إلّا أن يلجأ إلى الله ويلقي إليه القياد ، ويتوكل عليه في جميع الأمور ؛ ولهذا فإنا نجد ذلك يتجلّى في قوله ـ عليه السلام ـ : (فها أنا ذا بين يديك يا سيدي خاضعاً ذليلاً حصيراً حقيراً) وهذا تسليم كامـل وخضوع وتذلل لله ربِّ العالمين .

ثم انتقل ـ عليه السلام ـ إلى لون آخر من ألوان التذلل والإعتـراف بالتقصير فقال : (لا ذو براءة فأعتذر ، ولا ذو قوة فأنتصر) أما البراءة وهو عدم إقتراف الذنب فقد بحثنا ذلك في الحديث عن المتن السابق بمـا لا مزيد عليه وذكرنا الإحتمالات التي يمكن أن تحل الإشكال الذي يداعب الفكر من معنىٰ هذه العبارة ، وهو كيف يكون الإعتذار مع البراءة فليرجع إليه من أراد .

أما القوة التي ذكرها هنا فقد ذكرها أيضاً هناك في النص السـابق ، وقد تعرضنا لها هناك أيضاً وذكرنا أسبابها بشيء من التفصيل .

أما ها هنـا فسنذكـر القوة المستعملة في حـالتي السلب والإيجاب فنقول :

القوة بخيرها وشرها

قبل التوغل في هذا الموضوع نود الإشارة ولو بلمحة خاطفة إلى أن كفتي الميزان تمثلان القوة والمقاومة . ومعنىٰ ذلك أنه لكي يتميّز الميزان بالعدل ينبغي أن يتساوىٰ ذراع القوة وذراع المقاومة ، وإلّا فإن أي زيادة في أحدهما نقصان في الآخر . وقد استخدمت هذه الظواهر الطبيعية عند الإنسان قديماً وحديثاً ، وعلى ضوء ذلك استطاع أن يستغل هذه الظواهر ، فأوجد الرافعات التي تحمل عشرات الأطنان ، وذلك بزيادة طول ذراع القوة وتقصير ذراع المقاومة ، وهذا الموضوع ذو شعب لا نريد أن نطيل فيه ؛ لأن له مواطن أخرىٰ يبحث فيها .

بعد ذلك نقول : إن القوة قد عرفها الإنسان بفطرته وغريزته حتىٰ استغلها في كثير من المواطن وخلط فيها بين السلب والإيجاب ، فمرة يستخدمها إستخداماً صحيحاً فيدافع بها عن نفسه وعرضه وماله . ومرة يستخدمها بدافع الغرور في الإعتداء والسطو والتقتيل والتنكيل .

وقد عرف الإنسان القوة منذ القدم واستغلها أكثر ما استغلها بدافع الأنانية في كثير من المواطن السالبة البحتة . فساسة الأمم لا تعرف غير القوة ، وهي عندهم فوق القانون . والذين بالمعاني الإنسانية يحتمون قوم

مستضعفون ، وإنسان هذه الأرض إما آكل وإما مأكول ، بـل كل مـوجود كذلك ، إنه صراع من أجل البقاء بدافع القوة المغرية .

إن الإنسان سلك منذ أن دبّ على سـطح هذه الأرض مسـالك في العيش بلغت به على السنين والقرون مراتب من مراتب الحضارات بعضها فوق بعض ، فهو ضبط في نفسه شراسة البهم ، وهو هدأ في طباعـه من عرام النهم ، وهو آلف وأئتلف ، واجتمع وصنع في المجتمعات القوانين ورأى فيها الخير آخر الأمر فأطاع ، ورأىٰ في بعضها الشر وعصىٰ .

ولكن بقيت من طبـاعه آخـر الدهـر بقية من تلك العهـود البـدائيـة الأولى ، يرتد إليها في الظروف إذا حزّ به منها ، مثل ما يحز به الرأس من شعره الطويل في لبدته ، والوجه مغمور في الكث من لحيته ، والظهـر لا يقيه من حرّ وبرد غير فروته . ويعينـه على ارتداده النفسي هـذا إلى تلك العصور القديمة في هذه العصـور الحديثـة ما يحس بـه في يديـه من قوة بالغة .

حتىٰ بين الأفـراد في مدن وريف ، يقـوم القانـون بمنع التعـدي ، ولكن هيهات ، القوي بجسمه ، القوي بماله ، والقوي بعزوته ، والقوي بشره ، يأخذ من الضعفاء جزية الضعف ، ولا يكـاد قانـون يستطيـع منع ذلك .

ومن أنصار هذه النزعة (ميكيا فلي) وزير فلورنسا الشهير وهو أول من سن للقوة شأناً في عصورنا الحديثة . وتابعه على ذلك هتلر أبو النازية آمن بـالقـوة وحـدهـا وكفـر بسـائـر القيم ، وتـابعهـمـا على ذلـك أيضـاً « موسوليني » وأراد إحياء الدولـة الرومـانية بـالقوة ولـو على حساب الأمم الأخـرىٰ، وتبع هؤلاء كثيـر من زعماء أمم وقـادة حروب وليست النـازيّـة والفاشية مشتقّة إلّا من ذلك.

ودخلت القوة الفلسفة فقامت عند كثير من الساسة مقام القانون ما تجيزه هو الحق وما تمنعه فهو الباطل . إذاً فالقوة في هذه الأيام صارت هي حجر الركن في كل سياسة ترسمها الأمم .

على أننا لا نستهين بقدر القوة في مجالاتها الخاصة فهي من أهم العوامل الفاعلة والمؤثرة تأثيراً مباشراً في حياة الإنسان وكيانه ، أما أن تستعمل في كل مجال من مجالات الحياة فهذا لا يقره العقل والمنطق .

والقوة صفة من صفات الباري التي تمدّح بها نفسه في الكتاب العزيز مثل قوله ـ تعالى ـ : **﴿إن ربّك هو القوي العزيز﴾**(٨) وقوله ـ تعالى ـ : **﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله لقوي عزيز﴾**(٩) . وقال ـ سبحانه ـ : **﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾**(١٠) قال المفسرون في قوله ـ تعالى ـ : **﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي . . . الآية﴾** الكتابة هو القضاء منه ـ تعالى ـ .

وظاهر إطلاق الغلبة شمولها من حيث الحجة وحيث التأييد الغيبي ومن حيث طبيعة الإيمان بالله ورسوله .

أما من حيث الحجة فإن الإنسان مفطور على صلاحية إدراك الحق والخضوع له ، فلو بيّن له الحق من السبيل التي يألفها لم يلبث دون أن يعقله ، وإذا عقله اعترفت له فطرته وخضعت له طويته ، وإن لم يخضع له عملاً إتباعاً لهوىً ، أو أي مانع يمنعه عن ذلك . وأما الغلبة من حيث التأييد الغيبي والقضاء للحق على الباطل فيكفي أنواع العذاب التي أنزلها

---

(٨) سورة هود ، آية : ٦٦ .
(٩) سورة المجادلة ، آية : ٢١ .
(١٠) سورة الحديد ، آية : ٢٥ .

الله ـ تعالى ـ على مكذبي الأمم الماضية ، كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وغيرهم ممن يشير ـ تعالى ـ إليهم بقوله : **﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون﴾**(١١) وعلى ذلك جرت السنّة الإلٰهية وقد أجمل ذكرها في قوله ـ تعالى ـ : **﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾**(١٢) .

وأما الغلبة من حيث طبيعة الإيمان بالله ورسوله فإن إيمان المؤمن يدعوه إلى الدفاع والذب عن الحق ، والمقاومة اتجاه الباطل مطلقاً ، وهو يرىٰ أنه إن قُتِل فاز ، وإن قتل فاز . فثباته على الدفاع غير مقيد بقيد ، ولا محدود بحد ، وهذا بخلاف من يدافع لا عن الحق بما هو حق بل عن شيء من المقاصد الدنيوية ، فإنه إنما يدافع لأجل نفسه فلو شاهد نفسه مشرفة على هلكة أو راكبة مخاطرة تولى منهزماً ، فهو إنما يدافع على شرط ، وإلى حدٍّ ، وهو سلامة النفس وعدم الإشراف على الهلكة ، ومن الضروري أن العزيمة المطلقة تغلب العزيمة المقيدة بقيد ، المحدودة بحد . ومن الشاهد عليه غزوات الرسول ـ صلى الله عليه وآله ـ بما أدت إليه من الفتح والظفر ، في حين أنها كانت سجالاً ، لكن لم تنته إلاّ لتقدم المسلمين وغلبتهم . ولم تقف الفتوحات الإسلامية ، ولا تفرقت جموع المسلمين أيادي سبأ إلاّ بفساد نياتهم وتبديل سيرة التقوىٰ والإخلاص لله وبسط الدين الحق من بسط السلطة وتوسعة المملكة **﴿ذلك أن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم﴾**(١٣) وقد اشترط الله

---

(١١) سورة المؤمنون ، آية : ٤٤ .

(١٢) سورة يونس ، آية : ٤٧ .

(١٣) سورة الأنفال ، آية : ٥٣ .

عليهم حين أكمل دينهم وآمنهم من عدوهم أن يخشوه إذ قال : **﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشونِ ﴾**[14] .

ويكفي في تسجيل هذه الغلبة قوله ـ تعالى ـ فيما يخاطب المؤمنين : **﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾**[15] قاله السيد الطباطبائي في الميزان (ج ١٦ ص٩٥) .

ومن هذا الكلام يظهر لك معنىٰ القوة المتعددة إلى ثلاثة أنواع ، إما باللسان وهي الحجة الغالبة الظاهرة والبرهان الساطع ، وأما بالإيمان الذي يقرب إلى الله زلفىٰ ، وأما بالسنان وهي القوة المادية ، ولا يمكن أن يتصور قوة فيما وراء ذلك خصوصاً إذا تأمّلنا معنىٰ الآيات الثلاث السابقة . ومع ذلك فإنا لا زلنا نقول ونصر على هذا القول بأن (القوة) ليست هي كل شيء في هذه الحياة وإن كانت هي التي يتحقق بها النصر المادي كما أشار النص الماثل أمامنا **﴿ولا ذو قوة فأنتصر﴾** إلى ذلك .

صحيح أن النصر لا يأتي إلاّ بالقوة ، ولكنه ليس في كل أفراده يكون نصراً حقاً ، فربما كان نصراً بظلم ، وهذا إحدى حالات إستعمال القوة في الجوانب السلبية ، أو إساءة استعمالها ـ كما أشرنا إلى ذلك في صدر هذا البحث ـ .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (ولا حجة لي فأحتج بها فالحجة في مقام البيان هي الغلبة بالبرهان ، وقد ذكرنا ما قاله ، علماء الميزان في بحث سابق وهي عبارة عما يتألف من قضايا يتجه بها إلى مطلوبه يستحصل بها .

---

(١٤) سورة المائدة ، آية : ٣ .

(١٥) سورة آل عمران ، آية : ١٣٩ .

ومعنىٰ كلامه ـ عليه السلام ـ في هذه العبارة إن الإنسان يدافع عن نفسه بما يتوفر لديه من وسائل الدفاع لكي ينجو من الخطر ، سـواءً كان ذلك بالوسائل المادية كالسلاح والعتاد ، أو بالوسائل الكـلامية التي تقـوم على المنطق السليم والحجة الواضحة ، أما إذا فقدت هذه الوسائل فـإنه يستسلم للأمر الواقع في أي حال من الحالات ، فهو يشير إلى أنه لا يملك شيئاً من ذلك حتىٰ يستطيع الدفاع عن نفسه ، وهذا ما يفسره كلامه السابق (فها أنا ذا بين يديك يا سيدي خاضعاً ذليلاً حصيراً حقيراً) .

ثم انتقل ـ عليه السـلام ـ في قولـه : (ولا قائـل لم أجترح ، ولم أعمل سوءاً) إلى حالة تعتري الإنسان في وقوفه بين يـدي ربّه ، وهـو أنه يرىٰ ربّه وحيداً بعيداً كل البعد عن غيره من الناس ؛ وذلك لعدم الحصول على من يعتذر عنه في ذلك الموقف ، فالناس جميعاً كل مشغول بنفسه قد ذهلت المرضعة عمّا أرضعت فوضعت كـل ذات حمل حملهـا ، والناس سكارىٰ وما هم بسكارىٰ ولكن عذاب الله شديد ، ومـع هذا كله فـإنه لم يجد حجة يحتج بها لكي يتخلص من هول ذلك اليوم العظيم ـ كما أشار إليه ذلك النص ـ .

والإجتراح بحسب ما ورد في فصل اللغة هـو الكسب بمعناه العـام سواءً أكان خيراً أو شراً ، إلاّ أن الإستعمال بحسب القرائن اللغوية كثيراً ما تشير بحسب الإستعمال في جـانب الشر ، ومن ذلـك العبارة المـاثلة بين أيدينا أمام هذا البحث . فإنه ـ عليه السلام ـ يقـول : إنه ليس هنـاك من معتذر عني بأن يقول : إني لم أجترح ولم أعمل سوءاً حتىٰ يقبل هذا العذر منه ؛ لأنه لكـلِّ امرءٍ منهم شـأن يغنيه . ويلوح من أفق العبـارة أن العذر والتعـذر عن الإنسان الغيـر هو أخف وقعـاً على لسان الإنسـان من العذر لنفسه ، فلا يمكن أن يقدم الإنسان عذراً لنفسه ، أو أن يقدم مدحاً وثناءً

لها ؛ لأنه يتهم في جميع ذلك . كما يلوح أيضاً أنه ينبغي للإنسان أن يعين أخاه خصوصاً في ساعة العسرة ؛ لأنه من لازم كلامه ـ عليه السلام ـ : (ولا قائل لم أجترح ، ولم أعمل سوءاً) يعني أن الملازمة الموجودة بين العشائر والإخوان الخلص تقف عند ذلك الحد الذي ينبغي أن يحاسب فيه الإنسان على كل شيء فلا يمكن أن تصدر المساعدة ممن لا يستطيع على إغاثة نفسه إلاّ ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم .

قال عليه السلام :

[وَمَا عَسَىٰ الْجُحُودُ ، وَلَوْ جَحَدْتُ يَا مَوْلَايَ يَنْفَعُنِي ، وكَيْفَ ؟ وَأَنَّى ذٰلِكَ ؟ وَجَوَارِحِي كُلُّها شَاهِدَةٌ عَلَيَّ بِمَا قَدْ عَمِلْتُ ، يَقيناً غَيْرَ ذي شَكٍّ أَنَّكَ سَائِلي مِنْ عَظَائِمِ الأُمُورِ ، وَأَنَّكَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الَّذي لا يَجُورُ ، وَعَدْلُكَ مُهْلِكِي ، وَمِنْ كُلِّ عَدْلِكَ مَهْرَبِي ، فَإِن تُعَذِّبْنِي فَبِذُنُوبِي يَا مَوْلَايَ بَعْدَ حُجَّتِكَ عَلَيَّ ، وَإِنْ تَعْفُ عَنِّي فَبِحِلْمِكَ وَجُودِكَ وَكَرَمِكَ] .

اللُّغَة

عسىٰ : حكىٰ الأزهري : عسىٰ تجري مجرىٰ لعلّ ، تقول عسيت وعسيتما وعسيتم وعست المرأة وعستا وعسين . قال ـ تعالى ـ : **﴿فهل عسيم أن توليتم أن تفسدوا في الأرض﴾**[1] وقال ـ تعالى ـ : **﴿قال هل عسيتم أن كتب عليكم القتال ألّا تقاتلوا﴾**[2] يتكلم بها على فعل ماض ، لا يقال يعسي ، ولا مفعول له ولا فاعل ، وقيل عسىٰ تكون للشك واليقين قال الأزهري : وقد قال ابن مقبل فجعله يقيناً أنشده أبو عبيد :

(١) سورة محمد ، آية : ٢٢ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٤٦ .

ظني بهم كعسى وهم بتنوفة   يتنازعون جوائز الأمثال

أي ظني بهم يقين . وقال الأصمعي : ظني كعسىٰ : أي ليس بثبت كعسى . يريد أن الظن هنا وإن كان بمعنىٰ اليقين فهي كعسى في كونها بمعنىٰ الطمع والرجاء .

الجحود : نقيض الإقرار ، كالإنكار والمعرفة . وقال الجوهري : الجحود الإنكار مع العلم . وجحده حقه ويحقه . والجحد بالضم والفتح ، الضيق في المعيشة . يقال جحد عيشهم حجداً إذا ضاق واشتد . قال بعض الأعراب :

لئن بعثت أم الحميدين مائراً   لقد غنيت في غير بؤس ولا جحد

وفرس جحد الغليظ القصير . وسورة الجحد في القرآن هي سورة (الكافرون) ، وهي مكية وآياتها (ستّه) ورقمها (١٠٩) .

أنىٰ : أنا الشيء يأني أنياً وهو آني حان وأدرك . قال ـ تعالى ـ : ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله**﴾[٣] وأنىٰ الماء سخن وبلغ في الحرارة .

وأنّىٰ ظرف مكان استعملت كثيراً في الإستفهام ، قال ـ تعالى ـ : ﴿**قال يا مريم أنّىٰ لك هذا قالت هو من عند الله**﴾[٤] واستعملت شاذةً في الزمان ، ولذلك اختلفوا في تفسير الآية الكريمة وما تحمله من حكم وهو قوله ـ تعالى ـ : ﴿**نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّىٰ شئتم**﴾[٥] .

---

(٣) سورة الحديد ، آية : ١٦ .
(٤) سورة آل عمران ، آية : ٣٧ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٢٢٣ .

يقيناً : اليقين العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر ، واليقين نقيض الشك ، وقوله ـ تعالى ـ : ﴿**واعبد ربّك حتى يأتيك اليقين**﴾[٣] أي حتىٰ يأتيك الموت . ويقنت الأمر بالكسر وأنا على يقين منه . وربما عبروا بالظن عن اليقين ، وباليقين عن الظن . قال أبو سدرة الأسدي :

تحسب هواس وأيقن أنني بها مقتد من واحد لا أغامره

يجور : الجور نقيض العدل والميل عن القصد ، وجار عليه في الحكم وجوّره نسبه إلى الجور . والجور بمعنىٰ الظلم ، والجور المجاورة ، والجار الذي يجاورك ، والجار الشريف في العقار ، والمقاسم ، والحليف ، والناصر .

مهلك : الهلاك الممات ، ورجل هالك وجمعه هوالك وهلكىٰ وهلّاك وهالكون ، وهلك الشيء وهلّكه وأهلكه . والتهلكة من نوادر المصادر ، وهي ليست مما يجري على القياس . وفي المثل (فلان هالك في الهوالك) وأنشد الطعان :

تجاوزت هنداً رغبة عن قتاله إلى مالك أعشو إلى ذكر مالك
فأيقنت أني ثائر ابن مكدم غداتئذٍ أو هالك في الهوالك

فبحلمك : الحلم صفة من صفات الله ـ تعالى ـ ومعناه الصبور . قالوا في معناه الذي ينسب إليه ـ سبحانه ـ أنه الذي لا يستخفه عصيان العصاة ، ولا يستفزه الغضب عليهم ، ولكنه جعل لكل شيء قدراً ، فهو منتهٍ إليه ، وقوله ـ تعالى ـ : ﴿**إنك لأنت الحليم الرشيد**﴾[٦] قال الأزهري جاء في تفسيرها إنه كناية عن أنهم قالوا إنك لأنت السفيه الجاهل وذلك نوع من التبكيت والإستهزاء .

---

(٦) سورة هود ، آية : ٨٧ .

الإنسان كتلة من المآثم والذنوب ، وإن كان ينكر أو يتنكر لذلك في كثير من الأحيان ، ويحاول أن يتخلص من تبعات ذنوبه بأساليب شتىٰ بعضها خير وبعضها شر ، فمنها :

١ ـ الإعتراف بذلك الذنب إذا كان أمام من هو أشد منه قوة وأوسع علماً ؛ وذلك بعد أن لا مندوحة غير الإعتراف ، فهو يطمع في العفو بعد ذلك ، وهو فيما إذا أحسن الظن بمن يعترف أمامه بالذنب .

ولكن النفسيات عند الناس تختلف باختلاف تربيتهم ومعايشهم ومدىٰ إنصهارهم بدينهم ، ومدىٰ ترويضهم لنفوسهم . فمنهم من يعترف بالذنب على عدم الخوف وملؤه طمأنينة ، وله طمع كبير بالعفو والغفران ، ومنهم من يعترف بالذنب على خوف ووجل من الإنتقام على التفريط الذي صدر منه . وأصحاب هذه النفسيات المهزوزة كثيراً ما يخطئون من حيث بقصد الصواب ، وبذلك ينعكس الإعتراف بالذنب إلى ذنب فاضح آخر ؛ لسوء التصرف الذي يعانونه في حياتهم العملية وتعايشهم بين الناس وتعاملهم مع الله ـ تبارك وتعالى ـ فإن اليأس والقنوط من الرحمة هو ذنب مستقل آخر ، بل هو من أعظم الذنوب ؛ لأنه يفك الإرتباط بين الله والعبد ويبعده عن ظن الخير بربّه ، ويبعد الإنسان عن الإلتجاء إلى الله في ساعة العسرة .

٢ ـ الجحود والإنكار : وذلك لمحاولة التخلص من تبعات الذنب الذي يصدر من الإنسان . والجحود في هذه الحالة قد يفيد الإنسان إذا ما حاول التخلص من التبعات ـ كما قلنا ـ إلاّ أنه ربما تتكشف الأمور وتتغير الأحوال ويفتضح هذا المنكر ويصبح كاذباً بعد أن كان صادقاً ، وفاسقاً بعد

أن كان مؤمناً ، وخائناً بعد أن كان أميناً ، وبذلك يكون العـذاب ضعفاً ؛ لأن الذنب كذلك ؛ لأنه أضاف إليه الكذب والمخادعة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرىٰ أن الإنسان إذا كان له وازع من ضمير ، وذرة من إيمان ، وشيء من حب الخير ، فلا بـد من أن تؤنبه نفسـه ويرجـع مرة ثـانية إلى طبيعته الخيرة ، والفطرة التي فطر الله الناس عليها .

وإشارة إلى ما تقدم نقول : إن الجحود يفيد فيما إذا لم يكن هناك علم ولو اجمالاً بذلك الذنب الصادق ، وبعبارة أخرىٰ أن الذنب لا يعلم به إلّا من ارتكبه فهو إن شاء أخفاه ، وإن شاء أبداه ، وقلنا ولو إجمالاً يعني ولو من أي جهة من الجهات ، لا من شاهد عدلٍ ولا من حـاكم عدلٍ ، ولا من أي الأطراف التي لها مساس بذلك الذنب أو يعنيهم الذنب . أما إذا كان الذنب يعلم به الحاكم بجميع خباياه أكثر مما يعلم به المذنب نفسه فلا يكون معنىٰ بعد هذا للجحود والإنكار ، وهذا ما أشار إليه بقوله ـ عليه السلام ـ : (وما عسىٰ الجحود لو جحدت يا مولاي ينفعني) وذلك لعدم الفائدة في الجحود ؛ لأنه كذب ، والكذب فاضح ، وهو لا يكون إلّا على من لا يعلم . أمـا على من يعلم السـر والنجـوىٰ فـلا يـرد هـذا بحـال . وللحديث مجال في هذا الموضوع نرجؤه إلى مكان آخر .

ثم نراه ـ عليه السلام ـ يطرح هـذا الإستفهام الغيـر حقيقي والذي يستبعـد فيه كـل ما تقـدم ، ثم يـذكـر سبب الإستبعـاد في قـولـه ـ عليـه السلام ـ : (وكيف ؟ وأنّىٰ ذلك ؟! وجوارحي كلها شـاهدة عليَّ بمـا قد عملت) وهذا من كلام العقلاء الحاذقين العارفين الذين لا يعملون شيئاً إلّا لنتيجة ، ولمّا كانت النتيجة معدومة في مثل ذلك الجحود وإنكار الذنب إذ لا يترتب عليه الخلاص فإنه لا يريد أن يعمل شيئاً لا فائدة فيه .

والإنسان بوده أن لو وسعه ذلك ، ولكن كيف يكون وهو شاهد على

نفسه في كل ما اقترفه من ذنب ، وجميع جوارحه كلها تنطق عليه بما عمل ، وقد ورد ذلك في الكتاب المجيد في قوله ـ تعالى ـ : **﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم . . .﴾**[7] الآية ، وقوله ـ تعالى ـ : **﴿حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم . . .﴾**[8] الآية قال في الميزان في تفسير هاتين الآيتين إن شهادة الأعضاء أو القوىٰ يوم القيامة ذكرها وإخبارها ما تحملته في الدنيا من معصية صاحبها فهي شهادة أداء لما تحملته ، ولولا التحمل في الدنيا حين العمل كما لو جعل الله لها شعوراً ونطقاً يوم القيامة فعلمت ثم أخبرت بما عملته أو أوجد الله عندها صوتاً يفيد معنىٰ الإخبار من غير شعور منها به لم يصدق عليه الشهادة ، ولا تمت بذلك على العبد المنكر حجة وهو ظاهر .

وقال في مقام آخر لا شك أن الله ـ سبحانه ـ خالق كل شيء لا موجد غيره ، فلا يحول بين خلقه وبينه شيء ، ولا يحجب خلقه من حاجب ، فهو تعالى مع كل شيء أين ما كان وكيف ما كان . قال ـ تعالى ـ : **﴿إن الله على كل شيء شهيد﴾**[9] وقال : **﴿وكان الله على كل شيء رقيباً﴾**[10] .

فالإنسان أين ما كان كان الله معه ، وأي عمل عمله كان الله مع عمله ، وأي عضو من أعضائه استعمله ، وأي سبب أو أداة أو طريق اتخذه لعمله كان مع ذلك العضو والسبب والأداة والطريق . قال تعالى : **﴿وهو**

---

(٧) سورة فصّلت ، آية : ٢٢ .

(٨) سورة فصّلت ، آية : ٢٠ .

(٩) سورة الحج ، آية : ١٧ .

(١٠) سورة الأحزاب ، آية : ٥٢ .

معكم أين ما كنتم﴾[11] وقال : ﴿أفمن هو قائم على كلّ نفس بما كسبت﴾[12] .

ومن هنا يستنتج أن الإنسان ـ وهو جار في عمله ـ واقع بين مراصد كثيرة يرصده من كل منها ربّه ويرقبه ويشهده . فمرتكب المعصية في سيئته وهو متوغل فيها غافل عن الله ـ تعالى ـ في جهل عظيم بمقام ربّه واستهانة به ـ سبحانه ـ وهو يرصده ويرقبه .

وهذه الحقيقة هي التي تشير إليها الآية في قوله : ﴿وما كنتم تستترون﴾ . إلى آخر ما قال .

ثم يقول ـ عليه السلام ـ مواصلاً لهذا الحرج الذي ينغمس فيه الإنسان إلى مشاشه أمام خالقه الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور : (يقيناً غير ذي شك أنك سائلي من عظائم الأمور) ؛ لأن السؤال إذا صدر ممن كان يعلم بالجواب فلا مناص من الإعتراف ، واعتراف الإنسان بما اقترفه صعب مستصعب ؛ لأنه لا يعلم النتائج المترتبة على هذا الإعتراف فيبقىٰ الأمر موكولاً إلى الله بعد ذلك ، فإما أن يعفو فهو أهل للعفو والمغفرة ، وأما أن يعاقب فذلك جزاء بما اقترفه الإنسان وهو مقتضىٰ العدل الذي لا جور فيه ، وسيوافينا بحث في ذلك بعد قليل إن شاء الله . والمسألة التي ذكرها ـ عليه السلام ـ في هذه العبارة هي ما أشارت إليه الآية في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾ فقد اختلف المفسرون في هذه المسألة فقيل يسألون عن قول لا إله إلاّ الله ، وقيل : عن شرب الماء البارد إستهزاءً بهم ، وقيل عن ولاية علي ـ عليه

---

(١١) سورة الحديد ، آية : ٤ .

(١٢) سورة الرعد ، آية : ٣٣ .

السلام ـ وهذه الوجوه تشير إلى بعض مصاديق ما يسأل عنه ، والسياق يشهد أن السؤال هو ما يشتمل عليه قوله : ﴿**ما لكم لا تناصرون**﴾ في ذيل الآية ، أي لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم تفعلونه في الدنيا فتستعينون به على حوائجكم ومقاصدكم . قاله في الميزان .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (وأنك الحكيم العدل الذي لا يجور ، وعدلك مهلكي ، ومن كل عدلك مهربي) فإن إقحام كلمة الحكيم في هذه العبارة يدل على شيء كثير ، وهو يظهر بعد التأمل في كلمة الحكمة التي اشتق منها الحكيم . فقد ذكرنا في الجزء الأول من الكتاب (ص ٧٣) معنىٰ الحكمة . وهي عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم ، والحكيم من أسماء الله ـ تعالى ـ .

فوجود هذه الكلمة إلى جانب كلمة (العدل) تدل على الدقة في الحكم وعدم الحيف وهذا ما يفسره ـ عليه السلام ـ (الذي لا يجور) . غير أنه إذا كانت الدقة في الحكم وعدم إهمال الصغيرة والكبيرة ؛ وذلك للإنتصاف من الظالم للمظلوم ، فإن ذلك لا ينجو منه إلاّ القليل من العباد الذين تشبه أفعالهم أقوالهم . إلاّ أن الإنسان يأخذه الطمع في عفو الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وثوقاً منه بربّه ، وكما وعد بذلك عباده في كتابه العزيز في مثل قوله ـ تعالى ـ : ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . .**﴾[١٣] الآية فقد جاء في تفسيرها أن الله أمر نبيه أن يدعو العباد من قبله ويناديهم بلفظة ﴿**يا عبادي**﴾ وفيه تذكير بحجة الله ـ سبحانه ـ على دعوتهم إلى عبادته وترغيب لهم إلى استجابة الدعوة . أما

---

(١٣) سورة الزمر ، آية : ٥٣ .

التذكير بالحجة فلأنه يشير إلى أنهم عباده وهو مولاهم ، ومن حق المولى على عبده أن يطيعه ويعبده ، فله أن يدعوه إلى طاعته وعبادته ، وأما ترغيبهم إلى إستجابة الدعوة فلما فيه من الإضافة إليه ـ تعالى ـ الباعث لهم إلى التمسك بذيل رحمته ومغفرته .

وقال جمع : إن المراد بالعباد المؤمنون ، وقد غلب إستعماله فيهم مضافاً إليه ـ تعالى ـ في القرآن . فمعنىٰ ﴿**يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم**﴾ أيها المؤمنون المذنبون . قاله في الميزان وفي الآية أقوال أخر ليست من غرضنا .

ثم نراه ـ عليه السلام ـ يردف في كلامه (وعد لك مهلكي ، ومن كل عدلك مهربي) فكيف يكون العدل مهلكاً ؟ وكيف يهرب العبد من العدل ؟

إنه يهرب من ذنوبه ؛ لأن مقتضىٰ العدل أن توزن الحسنات والسيئات ، فإذا وزنت سيئات العبد وحسناته صار مديناً لله بالنعم التي تغمره ليلاً ونهاراً . فالعبد مشفق على نفسه إذا كان من العقلاء لأن النعم لها حساب آخر ، وأين يضع الإنسان حسناته ؟ هل يضعها أمام النعم المستمرة والتي لا تنقطع أبداً ؟ أو يضعها أمام سيئاته التي يقترفها بين عشية وضحاها ؟ ولا يمكن أنّ نتصور أنّ عدل الله مهلك ، ومسبّب للهرب إلاّ بهذا المعنىٰ ؛ لأن عدله ـ سبحانه ـ يختلف عن عدل العباد ؛ لأنه حكيم ، ولأن الحكيم يتقن الأمور إتقاناً تاماً ، ويضع الأشياء في مواضعها ، فالإنسان ـ والحال هذه ـ يخاف أن يخسر ميزانه إذا ما عامله ربّه بعدله ولم تدركه رحمته .

العدل

العدل كلمة لطيفة على السمع ، ولها معنىً ناعم على الفؤاد يشتاقها كل من له نفس خيرة ويحب الخير . وهي كلمة يتهافت عليها أبناء البشر ، ويتسابقون للأخذ بها ، والعمل بمضامينها ، وبهـا عمرت هـذه الدنيـا ، وأقيمت الحضارات ، وأسست المنشآت العامة والخـاصة وادعىٰ العمـل بمقتضاها الملوك والسلاطين الذين مرّ بهم شريط هذا الزمن .

ومن أجل هذه الكلمة أقيمت الأنظمة ونشأت النظريات ، وطرحت كثير من المفاهيم حول موضوع (العدل) .

وإن الفطرة الإنسانية قد جبلت على هذه الحالة التي تأمن في ظلها النفس ، وتترعرع في كنفها الحياة وتطمئن إليها القلوب ، وتعمر بها حياة الإنسان .

ومن ثم فقد ذهب علماء الشريعة إلى إشتراط العدالـة في الشهداء لإثبات الحقوق ؛ ولأن ذلك أقرب إلى العدل والإطمئنان في الحكم ، قال ـ تعالى ـ : ﴿**وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله**﴾[١٤] قال في

---

(١٤) سورة الطلاق ، آية : ٢ .

الدر المنثور : أخرج سعيد بن منصور ، وعبدالله بن حميد عن إبراهيم النخعي قال : العدل في المسلمين من لم تظهر منه ريبة . وأخرج فيه أيضاً عن ابن مردوية عن ابن عباس إن رجلاً سأل النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ عن الشهادة ، فقال : لا تشهد إلّا على مثل الشمس .

وفيه عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : لا تشهد على شهادة حتىٰ تكون عندك أضوأ من الشمس . وفيه عن أبي قتادة : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ قال : خيركم من كانت عنده شهادة لا يعلمها فتعجلها . قبل أن يسألها . وللحديث جانب آخر من جوانب البحث من تفسير الخاصة ، إلّا أنه لا يبعد كثيراً عمّا ذكرناه من الآيات والروايات .

هذا هو العدل المنسوب إلى الإنسان ، أما ما ينسب إلى الله فهو وإن ألمحنا إليه في مطاوي الكلام المتقدم إلّا أننا نريد أن نبحثه مستقلاً عن هذا الجانب فنقول :

العدل الإلهي

إن العدل بهذا الإعتبار يتمم التوحيد ، وتتوقف عليه سائر الأصول من النبوة والإمامة والمعاد ؛ لأنه من أصول المذهب ، فهو وإن كان داخلاً في جملة صفاته تعالى ، وقد تقدم الكلام بصورة مختصرة في مواطن كثيرة من الجزء الأول والثاني ، ولكن في جوانب أخرىٰ من جوانب هذا الموضوع المتشعبة إلاّ أنه يحمل معنى مستقلاً عن تلك الصفات لأنه تتوقف عليه كثير من أفعاله ـ تعالى ـ وتنزيهه عن العبثية في أفعاله بإثبات الحكمة منها كما تقدم الكلام عليه في صدر هذا البحث وكما هو وارد في النص الماثل أمامنا .

فمعنىٰ قولنا عادل مثلاً : انه حكيم ليس بظالم ، فهو إما من الصفات الكمالية أو الجلالية ، ولكنه أفرد لكثرة متعلقاته ليسهل فهمه . وقد ورد عن أمير المؤمنين عليّ ـ عليه السلام ـ قوله : (التوحيد ألاّ تتوهمه ، والعدل ألاّ تتهمه) .

قال السيد عبدالله شبر في حق اليقين : العدل هو إعتقاد أنه تعالى عادل في مخلوقاته ، غير ظالم لهم ، لا يفعل قبيحاً ، ولا يخل بواجب ، ولا يجور في قضائه ، ولا يحيف في حكمه وابتلائه ، يثيب المطيعين ، وله

أن يعاقب العاصي ، ولا يكلف الخلق ما لا يطيقون ، ولا يعاقبهم زيادة على ما يستحقون ، ولا يقابل مستحق الأجر والثواب بأليم العذاب والعقاب ، وإنه ـ تعالى ـ لم يجبر عباده على الأفعال سيما القبيحة ويعاقبهم عليها ، والأدلة على ذلك مضافاً إلى الضرورة والبداهة من العقل والنقل كتاباً وسنّةً ، آية ورواية كثيرة لا تحصىٰ(١٥) .

إن مسألة العدل الإلٰهي تختلف عن غيرها في أنها قد استولت على اهتمام عامة الناس ، فراح يفكر فيها القروي الأمّي ، والفيلسوف المفكر ؛ ولهذا فإن لمسألة العدل أهمية خاصة وموقعاً لا نظير له . وهذا ما يفسر لنا موقف العلماء المسلمين من الشيعة والمعتزلة الذين إعتبروا العدل ثاني أصل من أصول الدين . فلو كان العدل باعتباره صفة من صفات الله داخلاً ضمن أصول الدين لوجب أن نعد من أصول الدين صفات الله الأخرىٰ من قبيل العلم والقدرة والإرادة ، ولكن هناك سبباً آخر لإعتبار الشيعة العدل واحداً من أصول الدين ـ وإن كان البعض يسميه أصلاً من أصول المذهب ـ وهو أن (العدل) صفة تحمل كثيراً من الصفات الإلٰهية ، وينطوي تحتها كثير من أفعال الباري ، كالحسن والقبح ـ كما أشرنا إلى ذلك في بعض المواطن من الكتاب .

إلّا أن الشيعة لم تختلف عن السنّة في بقية صفات الله ، وإذا كانوا مختلفين معهم في شيء منها فهي غير مطروحة للبحث . ولكنهم إختلفوا معهم في مسألة العدل . فقد كان الإعتقاد بالعدل أو عدمه يعتبر علامة على الإنتماء إلى مذهب معين ، أي اختلفوا في ذلك من حيث الوجود والعدم . ولقد قلنا بأن هناك صفتين متقاربتين من صفات الله من حيث

(١٥) حق اليقين ج١ ص١١٩ .

الشبهات والإشكالات الواردة عليهما ، وهما العدالة والحكمة .

والمقصود من كون الله عادلاً أنه لا يهمل إستحقاق ولياقة أي موجود ، فيعطي أي شخص ما يستحق .

أما المقصود من كونه حكيماً فهو كون النظام الذي أبدعه هو أحسن وأصلح نظام ، وبهذا المعنىٰ يتجلىٰ قول النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ (بالعدل قامت السماوات والأرض) . ويقول الخواجة نصير الدين الطوسي في بعض شعره الحكمي :

(لا يوجد حكم لائق غير حكم الحق ، ولن يأتي حكم يفضل الحكم الحق .

كل شيء موجود قد أوجد كما ينبغي ولم يوجد شيء لا ينبغي وجوده) .

ولازم الحكمة والعناية الإلٰهية هو أن يكون للكون والوجود معنىً وغاية ، فأي شيء يوجد إما أن يكون خيراً لنفسه وإما أن يكون وسيلة للوصول إلى الخير . فالحكمة من لوازم كونه عليماً ومريداً ، وتوضح أصل العلّة الغائبة للكون .

أما العدالة فليس ليها علاقة بصفتي العلم والإرادة ، ولكنها تكون من شؤون فاعلية الله ، أي أنها من صفات الفعل وليست من صفات الذات[١٦] .

وقال في شرح الباب الحادي عشر : المراد بالعدل هو تنزيه الباري ـ تعالى ـ عن فعل القبيح والإخلال بالواجب .

---

(١٦) العدل الإلهي للمطهري ، ص٨٠.

وقد ورد عن أهل البيت الطاهر أحاديث توضح ما نحن فيه فمنها ما رواه في كتاب التوحيد قال : حدثنا أبو الحسن محمد بن سعيد بن عزيز السمرقندي الفقيه بأرض بلخ قال : حدثنا أبو أحمد محمد بن محمد الزاهد السمرقندي ، بإسناده رفعه إلى الصادق ـ عليه السلام ـ ، انه سأله رجل فقال له : إن أساس الدين التوحيد والعدل ، وعلمه كثير ولا بد لعاقل منه ، فاذكر ما يسهل الوقوف عليه ويتهيأ حفظه ، فقال ـ عليه السلام ـ : أما التوحيد فألاّ تجوز على ربّك ما جاز عليك ، وأما العدل فألاّ تنسب إلى خالقك ما لامك عليه[17]

وفيه حدثنا محمد بن أحمد الشيباني المكتّب ـ رضي الله عنه ـ قال : حدثنا محمد بن أبي عبدالله الكوفي ، قال : حدثنا سهل بن زياد الادمي ، عن عبد العظيم بن عبدالله الحسني ، عن الإمام علي بن محمد ، عن أبيه محمد بن علي ، عن أبيه الرضا علي بن موسى ـ عليه السلام ـ قال خرج أبو حنيفة ذات يوم من عند الصادق ـ عليه السلام ـ ، فاستقبله موسى بن جعفر ـ عليه السلام ـ فقال له : يا غلام ممن المعصية ؟ قال : لا تخلو من ثلاث : إما أن تكون من الله ـ عزّ وجلّ ـ ، وليست منه فلا ينبغي للكريم أن يعذب عبده بما لا يكتسبه وإما أن تكون من الله ـ عزّ وجلّ ـ ومن العبد ، وليس كذلك فلا ينبغي للشريك القوي أن يظلم الشريك الضعيف ، وإما أن تكون من العبد وهي منه ، فإن عاقبه الله فبذنبه وإن عفا عنه فبكرمه وجوده[18] .

---

(١٧) التوحيد للصدوق ص ٩٦ .

(١٨) التوحيد للصدوق ص٩٦ .

حكاية حادثة

يحدثنا التاريخ عن حادثة وقعت أيام داود النبي ـ عليه السلام ـ تقول الحكاية دخلت امرأة على داود ، وهي مرتعشة باكية ، فقالت : يـا داود أتقول أن الله عدل ؟! فلما سمعها ارتاع لها . فقال : يا أمة الله ما شأنك ؟ وما خبرك ؟! ومن يكون عدلاً إذا لم يكن هو الله ،؟ وما الذي جرى عليك فجرأك على هذا القول ؟ فقالت : إعلم إني كنت أرملة من زوجي ، ولي منه أطفال ، وكنت أعللهم بما أنسجه لهم طيلة أيام الأسبوع ، فقد كنت أعمل قطعة النسيج لعدة أيام ، حتىٰ إذا انتهيت منهـا ذهبت أبيعها لآخـذ بثمنها طعاماً لهم .

وفي هذه المرة عندما انتهيت من ذلك النسيج وخرجت به لأبيعه في السوق ، وإذا قد انقض علي نسر اختطف قطعة النسيج التي صنعتها من بين يدي ، وطار بها فبقيت حائرة ورجعت إلى البيت مذهولة ، لا أهتدي سبيلاً إلى لقمة من العيش لي ولأطفالي ، فأين العدل والإنصاف ؟

فبقي داود حائراً مبهوتاً ثم قال لها : يا أمة الله ! هوني هذا الخطب عليك فإن الله هو مولاك ، وهو أرأف بأطفالك منك . هذا والمرأة لا ترقى لها عبرة ولا تهدأ لها زفرة .

وبينما هم في هذه الحال وإذا بطارق يطرق الباب ، فقام داود ليفتحه وإذا بجماعة من الرجال واقفون ، ولما رأوه قالوا يا نبي الله لقد كنا في عرض البحر في سفينة ذهبنا في تجارة ، ونحن عشرة تجار من بين إسرائيل ، وبينما نحن نسير في عرض البحر إذ عصفت بنا الريح ، فانخرقت السفينة وعلانا الموج ، فلم يهدأ لنا قرار ويئسنا من الحياة ، فنذرنا لئن أنجانا الله إلى البر من البحر ليتصدقن كل واحد منا بمئة دينار قربة إلى الله ـ تعالى ـ . وبينما نحن كذلك وإذا بنسر قد رمىٰ لنا قطعة نسيج فسددنا ذلك الخرق ، فوقف الماء بانسداد الخرق ، وسارت السفينة حتىٰ وصلنا إلى الشاطىء ، فحمدنا الله ـ تعالى ـ على النجاة وهذه يا نبي الله نذورنا العشرة وهي ألف دينار خذها وفرقها على أهلها من الضعفاء ، فتسلمها داود كلها ، ثم سلمها إلى المرأة كلها وقال : خذي يا أمة الله فهل رأيت عدل الله كيف أخدمك الطيور في جو السماء . فسجدت المرأة لله شكراً واستغفرت الله على ما بدر منها .

ومن هذه الحكاية المعقولة جداً ، الممكنة عقلاً نستطيع أن نفهم معنىٰ العدل ، وهو ـ كما سبق تفسيره ـ وضع الأشياء في مواضعها ، وبعكسه الظلم .

وقد أحببت صياغة هذه الحادثة في مقطوعة شعرية فجاءت في هذه الأبيات .

نظم الحكاية

جاءت لداود تهمي الدمع أرملة ... تبكي وقد مزجت دمعاً لها بدم
تميل من حزن والقلب في شجن ... وتندب الحظ في وجد وفي ألم
تساءلت عنده واللون مختطف ... والقلب كالطير بالسهم المصيب رمي

هل أن ربّك (عدل) لا يجور وقد	جارت علي الليالي فاستمع كلمي
قد كنت أغزل نسجاً كل آونة	ولي عيال رعاك الله كالرمم
أبيع غزلي وأعطي الأهل قوتهم	ولا غرابة أن أحنو على رحمي
فجاء طير السما وانقض مقتنصاً	رزقي ورزق عيالي من لهاة فمي
وابتز مني ذاك النسج مرتفعاً	وصير الأمل المنسوج في العدم
هذي شكاتي فاسمعها برمتها	فاعجب لها فهي شحم ليس بالورم

* * *

فقال داود إن الله ربّك قد	أقام للعدل آيات من الحكم
والعدل قام به أمر الوجود فما	يدريك ذاك ولولا العدل لم يقم
لا تجزعي فالإله الحق يعلم ما	يجري عليك وحال العسر لم يدم
توقعي فرجاً منه فإن له	يداً تفيض على المخلوق بالنعم
لا تيأسي إن يأس المرء منقصة	للعقل بل تهمة من أعظم التهم

* * *

وبينما كان داود يؤنبها	طوراً وطوراً يذيف الصوت بالنغم
دقت على بابه قوم تقول ألا	يا أيها السيد المنصوب للأمم
ويا نبياً حباه الله مكرمة	سبحانه فهو ربّ واسع الكرم
خذ هذه ألف دينار فقد وجبت	نذراً علينا وخلف النذر في الذمم
لقد ركبنا وكان البحر مركبنا	والمركب الصعب يذري الدمع كالديم
طغىٰ علينا وهاج الموج مرتفعاً	(طغي الجياد إذا عضت على الشكم)
ونحن عشرة تجار سفينتنا	ترنحت مثل فتك الحوت بالبلم
تسرب اليم من خرق ألم بها	والموج مغتلم في جوف مغتلم
وليس ثمة منجاة وما برحت	أكبادنا من أليم الخطب في ألم
حتىٰ نذرنا بهذا حين واجهنا	صعب من الصعب أوخوف من

إذا بـطيـر السمــا ينقض في فمـه نسج من الصوف في تلك السفين رمي
وأصلح الفلك حيث الخرق متسع والله معتصم بـل خيـر معتصـم
الـمــرء يـحـسـب أن الله أهـمـلـه والله يــرعــاه في داج من الــظلم

***

وسـبــح الله داود وقــال لــهــا قومي خذي المال ألفاً غيـر منقسم
هذا هو (العـدل) لا ظلم يساوره فـالعـدل لله يـا هـذي من القــدم
واستغفــري الله إن الله يغفـر مــا جنيت بـالقـول إن الـذنب بـالكلم
ثقي بــربّــك فـهــو الله ليس لــه نـد فهـذا الـذي قـد خط بــالقلم

***

ومما تقدم ندرك ما قاله ـ عليـه السلام ـ : (وأنـك الحكيم العدل الذي لا يجور ، وعدلك مهلكي ، ومن كل عدلك مهربي) فإنه إذا قلنـا بمعنىٰ العدل المتقدم وهـو وضع الشيء في مـواضعه فـإن الله إذا عامـل الإنسان بعدله فوضع كل شيء في موضعه ـ كما قلنا ـ وحـاسبه على كـل نعمة أنعمها عليه ، وإحسان فضله عليه فإن عمل العبد لا يساوي إذا قيس بنعم الله ـ سبحانه ـ شيئاً . نسأل الله الاّ يعاملنا بعدله ، ونسأله أن يعاملنا بعفوه ورحمته .

ثم انتقل ـ عليه السلام ـ إلى الإعتراف بما صدر منه وهو مـوصول بما تقدم فقال : (فإن تعذبني فبذنوبي يا مولاي بعد حجتـك عليّ) هذه هي لهجـة المعصوم ولغتـه في خطابـه مع ربّـه ، لهجة ملؤهـا الإعتراف بالذنب ـ مع تجاوز في التعبير ـ ، لهجة ملؤها التذلل والخضوع والخشوع والخنوع ، مع كونه بتلك المنزلة التي أنزله الله فيها ، إنها منزلة العصمة ، وهي منـزلة السيـادة على العالمين ، وهـو إذ يخاطب ربّـه بهـذه اللهجـة المنكسـرة والأنفاس المتحشـرجة في صـدره لهو أعـرف بمن يخـاطب ،

وأعلم بمن يتضرع إليه ، نعم هذه لهجته في تعامله مع ربّه بإخـلاص لا حدود له ، فما هي لهجتنا نحن في خطابنا مع الباري ، ومقدار إخلاصنا في عبادته يا ترىٰ ؟!

إن العـذاب الـذي يستحقـه الإنسـان بعـد أن تلقىٰ عليـه الحجـة والتبعات ، أما التبعات فهي الذنـوب التي إقترفهـا ، فهو يستحق الجـزاء عليها بمقتضىٰ العدل . وأما الحجة فإن الله ـ سبحانه ـ قد أرسل المرسلين والنبيين مبشرين ومنذرين ، ثم وهب الله الإنسان قلباً حافظاً ولساناً لافـظاً لكي يؤدي بهما واجبه في مختلف الجهات في ما بينه وبين الله وفيما بينه وبين الناس ، وفيما بينه وبين نفسه ، وهذا غاية في الحجة .

ثم نـراه ـ عليـه السـلام ـ ونسمعـه يقـول متعـرضـاً للحلم والجـود والكرم ، يطلب بذلك النوال من الله بعد أن ألقىٰ قياده إليه ، واعترف أمامه جملةً وتفصيلاً ـ مع تجاوز في التعبير أيضاً ـ نظراً لمقـام الإمامـة السامي والمتنزه عن كل نقيصة والذي يختص به ـ عليه السلام ـ (وإن تعف عني فبحلمك وجودك وكرمك) فالعفو يطلب من أهله ، والله ـ سبحانـه ـ أهل للعفو والرحمة . والعفو لا يكون إلّا عن الذنب ، ولكنه ـ عليه السلام ـ مع كل ما عرفنا من شأنه ربط بين العفو والحلم والجود والكرم ؛ وذلك مبالغة في تعظيم الذنب ؛ لأن الذنب القليل لا يحتاج إلى أن يتصف العافي بكل هذه الصفات ، وهذا مبالغة في التذلل والخضوع ، ومبالغة أيضاً في الثناء على الله وهو ذكر محامده وصفاته الحسنة ، ليكون العبد بذلك أقرب إلى الرأفة والرحمة . وقد مرّ كثير من هذه المعاني التي يحملها عبارات شتىٰ في مطاوي كلامه السابق والتي تشير إلى إعترافه صراحة بالذنب مع براءته منه ، وقد أوضحناها في مـا مضىٰ من أبحاث الكتـاب خصوصـاً في هذا الجزء .

وبنـظرة بلاغيـة محضة ان تقـديم الجـود على الكـرم ، وهـو ذكـر الخاص قبل العام يدل على الإهتمـام بذكـر الخاص المتقـدم على العام المتأخر . فان الجود أخص من الكرم ، لأن الجواد هو الذي يسخـو بكل شيء في يـده ، أما الكـريم فإنـه ذلك الـذي يعـطي ولكن لا يعـطي إلاّ بمقدار ، وليس بالضرورة أن تسمح يده بكل شيء وبذلك يكون قد وصف ربّه بالصفة الأخص ؛ لأنها أقرب إلى الله من الصفة الأعم قال الشاعر في هذا المعنىٰ :

يجـود بالنفس إن ظن الجـواد بهـا   والجود بالنفس أقصىٰ غاية الجـود

قال عليه السلام :

[لا إِلَـهَ إلاَّ أَنْتَ ، سُبْحَانَـكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الـظَّالِمينَ ، لا إِلَـهَ إلاَّ أَنْتَ ، سُبْحَانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الْمُسْتَغْفِرينَ ، لا إِلَهَ إلاَّ أَنْتَ ، سُبْحَانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الْمُوَحِّدينَ ، لا إِلَهَ إلاَّ أَنْتَ ، سُبْحَانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الْوَجِلينَ ، لا إِلَـهَ إلاَّ أَنْتَ ، سُبْحَانَـكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الرَّاجِينَ الـرَّاغِبِينَ ، لا إِلَـهَ إلاَّ أَنْتَ ، سُبْحَانَكَ أنّي كُنْتُ مِنَ السَّائِلينَ ، لا إِلَهَ إلاَّ أَنْتَ ، سُبْحَـانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الْمُهَلِّلينَ الْمُسَبِّحِينَ ، لا إِلَـهَ إلاَّ أَنْتَ ، رَبِّي وَرَبُّ آبَـآئي الأَوَّلينَ] .

اللُّغَة

المستغفرين : الغفور والغفار من أسمائه ـ سبحانه ـ وهو من أبنية المبالغة ، ومعناهما الساتر لذنوب عباده ، والمتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم ، وغفر الله ذنوبه أي سترها ، وغفره غفراً ستره ، وكل شيء سترته فقد غفرته ، ومنه قيل للذي يكون تحت بيضة الحديد على الرأس مغفر ، لأنه يستر الرأس ، واستغفر الله من ذنبه ولذنبه بمعنىً واحد .

قال ـ تعالى ـ : ﴿يوسف أعرض عن هذا واستغفري

لذنبك . . . ﴾[1] الآية . واستغفر الله ذنبه على حذف الحرف ، فكان متعدياً بعد أن كان لازماً ، أي طلب منه غفره وأنشد سيبويه :

استغفر الله ذنباً لست محصيه   ربّ العباد إليه القول والعمل

والمستغفر أي طالب الستر من الله على ذنبه .

الوجلين : الوجل الفزعْ والخوف ، وفي الحديث وعظنا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ موعظة وجلت منها القلوب ، قال ـ تعالى ـ : **﴿قالوا لا توْجل إنا نبشرك بغلام عليم﴾**[2] وقال الشاعر معن ابن أوس المزني :

لعمرك ما أدري وإني لأوجل   على أيّنا تعدو المنية أول

وكان لها جاران لا يخفرانها   أبو جعدة العادي وعرفاء جيأل

الراجي : الرجاء من الأمل ، وهو نقيض اليأس ممدود ، وهمزته منقلبة عن واو بدليل ظهورها في رجاوة ، والرجاء بمعنىٰ التوقع والأمل . قال بشر يخاطب بنة :

فرجي الخير وانتظري إيابي   إذا ما القارض العنزي آبا

ويكون الرجاء بمعنىٰ الخوف . قال ـ تعالى ـ : **﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً﴾**[3] .

وقال أبو ذؤيب :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها   وخالفها في بيت نيب عواسل

---

(١) سورة يوسف ، آية : ٢٩ .

(٢) سورة الحجر ، آية : ٥٣ .

(٣) سورة نوح ، آية : ١٣ ، ١٤ .

المهللين : هلل الرجل أي قال : لا إله إلّا الله . وهيلل إذا قال ذلك . وقد أخذنا في الهيللة إذا أخذنا في التهليل ، وهو مثل قولهم : حولق الرجل وحوقل إذا قال : لا حول ولا قوة إلّا بالله . قال الشاعر :

فداك من الأقوام كل مبخل   يحولق إما سأله العرف سائل

وقال الخليل : حيعل الرجل إذا قال حي على الصلاة ، أوحي على الفلاح ، أوحي على خير العمل . والعرب تفعل هذا إذا كثر إستعمالهم لكلمة ، وأهلّ بالتسمية على الذبيحة أي ذكر اسم الله عليها ، وقوله ـ تعالى ـ : ﴿**وما أهلّ به لغير الله** . . .﴾[٤] الآية أي نودي عليه بغير إسم الله .

البيان

في هذه الفقرة يبالغ ـ عليه السلام ـ في الإعتراف بالتقصير في الطاعة ، ولعمري إن هذه لهجة خاصة تتعامل بها المقربون مع خالقهم . يقول ـ عليه السلام ـ : (لا إلٰه إلّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) هذه اللغة التي تنبأ عن الخنوع والخضوع لله ـ سبحانه نقلها القرآن المجيد على لسان كثير من الأنبياء ومنهم يونس ـ عليه السلام ـ إذ قال ـ سبحانه ـ : ﴿**وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادىٰ في الظلمات أن لا إلٰه إلّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**﴾[٥] فقد ذكر السيد الطباطبائي في الميزان هو اعتراف بالظلم من حيث أنه أتىٰ بعمل كان يمثل الظلم ، وإن لم يكن ظلماً في نفسه ، ولا هو ـ عليه السلام ـ قصد به الظلم والمعصية ، غير أن ذلك كان تأديباً منه ـ تعالى ـ ، وتربية

---

(٤) سورة البقرة ، آية : ١٧٣ .

(٥) سورة الأنبياء ، آية : ٨٧ .

لنبيه ليطأ بساط القرب بقدم مبرأة في مشيتها عن تمثيل الظلم فضلاً عن نفس الظلم .

وتوضيحاً لهذا القول إن الذي يمارس عملاً من الأعمال سواءً كان خيراً أو شراً ، ظلماً أو عدلاً ، وينغمس فيه ، هو المسؤول عنه بالدرجة الأولى ؛ لأنه أتىٰ به على وجهه . أما الذي يمثل الفاعل لتلك الأعمال فإنه يختلف عن نفس الفاعل إختلافاً كبيراً .

لا يقال إن كلًّا منهما يحب عمل الآخر ؛ لأنا نقول : إن الإتيان لتمثيل عمل ما لا يعني محبته ؛ لأن المحبة شيء وممارسة العمل شيء آخر .

فالقاتل للنفس المحترمة ـ مثلاً ـ دفعه دافع معين لعملية القتل ، أما لغرض الإنتقام ، وإما بدافع الأنانية ، وأما القتل إبتداءً بدون ذنب ، وبذلك يسمىٰ ظلماً بالدرجة الأولى ؛ لأنه لا يقابل هذا القتل جرم كبير ولا صغير . أما التمثيل للقتل وهو الذي يفعله الممثلون لا بدافع القتل ولا بدافع الإنتقام ، ولا بدافع الأنانية فهو ليس قتلاً ؛ لأنه تمثيل لعمل من الأعمال ، ولكنه فعل مستهجن ومشين لا يناسب الرجل الشريف الذي يتطلع إلى معالي الأمور . فقوله ـ تعالى ـ على لسان نبيه : **﴿إني كنت من الظالمين﴾** إشارة إلى ذلك الفعل المستهجن الذي يمثل عمل الظالمين ، والذي ينبغي للأنبياء أن يتنزهوا عن الإتيان به ؛ لأنه خلق لمهمات أسمىٰ من ذلك .

وقال السيد المرتضىٰ ـ رحمه الله ـ في كتاب تنزيه الأنبياء بعد أن أورد أشكالاً وهو أنه يمكن أن يريد بقوله : **﴿إني كنت من الظالمين﴾** أي من الجنس الذي يقع منهم الظلم ، فيكون صدقاً ، وإن ورد على سبيل

الخضوع والخشوع لأن جنس البشر لا يمتنع منه وقوع الظلم .

ثم أجاب عنه ـ رحمه الله ـ فقال : الفائدة في ذلك التطامن لله ـ تعالى ـ والتخاضع ونفي التكبر والتجبر ؛ لأن من كان مجتهداً في رغبة إلى مالك قدير ، فلا بدّ من أن يتطأطأ ، ويجتهد في الخضوع بين يديه ، ومن أكبر الخضوع أن يضيف نفسه إلى القبيل الذي يخطئون ويصيبون كما يقول الإنسان إذا أراد أن يكسر نفسه وينفي عنه دواعي الكبرياء والخيلاء . إنما أنا من البشر ولست من الملائكة ، وأنا ممن يخطىء ويصيب ، وهو لا يريد إضافة الخطأ إلى نفسه بل يكون الفائدة ما ذكرناها .

والظلم في أصل اللغة هو النقص والثلم ومن ترك المندوب إليه . وهو لو فعله لاستحق الثواب ، ويجوز أن يقال : أنه ظلم نفسه من حيث نقصها ذلك الثواب ، وليس يمتنع أن يكون يونس ـ عليه السلام ـ أراد هذا المعنىٰ ؛ لأنه لا محالة قد ترك كثيراً من المندوب ، فإن استيفاء جميع النذر يتعذر ، وهذا أولىٰ مما ذكره من جواز الصغائر على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وقوله : ﴿**إني كنت من الظالمين**﴾ أنه ليس بواجب أن يكون خبراً عن المعصية .

الإستغفار

ثم إنتقل ـ عليه السلام ـ إلى معنىً آخر ، وحالة تجيش عند الإنسان كـل إنسان يحضـر ذلك المـوقف الرهيب ، ويهيمن عليـه ذلـك الـظرف بعظمته وجلاله ، حالة يكون فيها العبـد أقرب إلى الله ، حـالة عبـاده في أشق أنواعها تجرد فيها الإنسان من كل شيء في هـذه الدنيـا إلاّ ما يستـر عورته ويواريها ، وبـذلك يقـرب من الله ليس كمثله قرب ، والقـرب منه ـ سبحانه ـ هو الحصيلة من عبادة الإنسان . قال ـ عليه السلام ـ : (لا إله إلاّ أنت سبحـانك إني كنت من المستغفـرين) . والإستغفار هـو نوع من الحـالات التي تعتـري الإنسـان للرجـوع إلى الله ، وتجـره إلى السعـادة والراحة النفسية لطرح ما عليه من الذنوب ، كل الإنسان الذي يحمل عبئاً ثقيلاً يطلب من يـطرحه عن ظهـره ؛ لكي يستريـح من هذا التعب الـذي يعانيه ، وإذا ما بقي ذلك الحمل عليه فإنه يؤل أمره إلى الهلاك ، وعجيب أمر هذا الإنسان الذي يشعر بالتعب الجسدي ، ولا يشعر بالتعب النفسي والروحي من الذنوب التي إحتطبها على ظهره .

إن رسـول الله ـ صلى الله عليه وآلـه ـ وهو سيـد الكائنـات وأشرف المخلوقات ، ورد عنه في المأثور قال : (إني لأتوب إلى ربي في اليـوم

سبعين مرة) . مع ما كان عليه من الدرجة العالية والتنزيه عن الصغائر والكبائر والنقائص ، وقد تحدث القرآن عن هذه الظاهرة التي ينبغي للإنسان أن يلازمها في جميع أوقاته ؛ لكي يطرح عن نفسه الذنوب ، ويمحو آثامها وآثارها بالإستغفار . قال ـ تعالى ـ : **﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً﴾**[٦] فلقد جمع من المفسرين إلى عدة آراء في غفران هذه الذنوب فمن ذلك :

١ ـ أن المراد بمغفرة ما تقدم من ذنبه مغفرة ما تقدم من ذنب أبويه آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ ببركته ـ صلى الله عليه وآله ـ ، والمراد بمغفرة ما تأخر منه مغفرة ذنوب أمته بدعائه .

٢ ـ ومن ذلك أن المراد بالذنب في حقه ترك الأولىٰ ، وهو مخالفة الأوامر الإرشادية دون التمرد عن إمتثال التكاليف المولوية ، والأنبياء على ما هم عليه من درجات القرب يؤاخذون على ترك ما هو أولى ، كما يؤاخذ غيرهم على المعاصي المعروفة ، كما قيل : (حسنات الأبرار سيئات المقربين) .

٣ ـ ومن ذلك ما ارتضاه جمع من أصحابنا من أن المراد بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ما تقدم من ذنوب أمته ، وما تأخر منها شفاعته . وهذا الوجه ، والوجه السابق عليه سليمان عن عامة الإشكالات .

لكن اشكال عدم الإرتباط بين الفتح والمغفرة على حاله .

٤ ـ ما عن علم الهدى ـ رحمه الله ـ : إن الذنب مصدر ، والمصدر يجوز إضافته للفاعل والمفعول معاً ، فيكون هنا مضافاً إلى المفعول والمراد ما تقدم من ذنبهم إليك في منعهم إياك من مكة ، وصدّهم لك عن

---

(٦) سورة الفتح ، آية : ٢ .

المسجد الحرام . ويكون معنىٰ المغفرة على هذه الإزالة والنسخ لأحكام أعدائه من المشركين ، أي يزيل الله ـ تعالى ـ ذلك عنك ، ويستر عليك تلك الوصمة بما يفتح لك من مكة فتدخلها فيما بعد .

ومن ذلك ندرك ما قاله الحسين ـ عليه السلام ـ في الجملة السابقة من الفقرة المطروحة أمامنا للبحث ، وندرك بذلك المعنىٰ المقصود بالإستغفار . إذ ليس من الضروري أن يستغفر الإنسان عن ذنبه حيث لا ذنب له فإن الله قد أمر نبيه الكريم أن يستغفر للمؤمنين قال ـ تعالى ـ : **﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾**(٧) ، وقال ـ تعالى ـ : **﴿شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا﴾**(٨) وقال ـ تعالى ـ على لسان إخوة يوسف وقد طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم : **﴿قالوا يا أبانا إستغفر لنا ذنوبنا إنّا كنا خاطئين﴾**(٩) .

وقد روينا أيضاً عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ بطرق متعددة صحيحة أن المؤمن ينبغي له أن يدعو لأخيه المؤمن ويستغفر بظهر الغيب ، خصوصاً في نافلة الليل ، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في الجزء الأول من الكتاب فراجع .

ويحتمل قوياً ، بل هو صحيح كل الصحة ، وارد كل الورود بأن الإستغفار المذكور في العبارة هو لأهل الموقف عامة . لأن الحسين ـ عليه السلام ـ لا يدعو لنفسه بل لأهل الموقف لتدعو له ملائكة السماوات السبع ؛ لأنه ـ عليه السلام ـ لم يفته هذا المعنىٰ لأنه لم يخرج للناس إلاّ منه ومن آبائه وأبنائه ، كما أوضحنا ذلك فيما مضىٰ .

---

(٧) سورة آل عمران ، آية : ١٥٦ .

(٨) سورة الفتح ، آية : ١١ .

(٩) سورة يوسف ، آية : ٩٧ .

التوحيد

ثم قال ـ عليه السلام ـ واصفاً نفسه بأكمل الصفات وأشرفها وأعزها (لا إله إلّا أنت سبحانك إني كنت من الموحدين) . والتوحيد كلمة تنفي جميع الشركاء لله ـ سبحانه وتعالى ـ ، والحديث في هذا الموضوع يأخذ جوانب متفرقة من الكلام ، فهو سهل وصعب في آن واحد .

سهل لأن الله قد جعل معرفته معرفة فطرية ، لا تحتاج إلى عناء وبحث وهذا ما ذهب إليه كثير من علمائنا ـ رضوان الله عليهم ـ . وقد ذكرنا ذلك في ما مضىٰ في الجزء الأول (ص ٣١٤) .

وصعب لأنه يدخل فيه كثير من الأدلة العقلية المتصارعة التي تدور في فلك النقض والإبرام .

ونريد هنا أن نبحث هذا الموضوع بما يتسنىٰ لنا من وجهة النظر لأهل البيت ـ عليهم السلام ـ مربوطاً بالكتاب ، قال ـ تعالى ـ : ﴿**وإذا قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم**﴾[١٠] جاء في تفسير هذه الآية إن عظمة كل عمل بعظمة أثره ، وعظمة المعصية

---

(١٠) سورة لقمان ، آية : ١٣ .

لعظمة المعصي ، فإن مؤاخذة العظيم عظيمة ، فأعظم المعاصي معصية الله ؛ لعظمته وكبريائه فوق كل عظمة وكبرياء بأنه الله لا شريك له ، وأعظم معاصيه معصية غير تقييد بقياسه إلى سائر المعاصي ، ويدل هذا على أن له من العظمة ما لا يقدر .

إن الله ـ سبحانه ـ قد فرض على الإنسان معرفته ، وفرض معرفته على نفسه للإنسان ، فالمعرفة ليس من حق الإنسان ؛ لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ هو الذي يعرف نفسه لعبده ، وبمقدار هذه المعرفة التي يتجلىٰ بها الجبار للعبد تكون الطاعة أو المعصية ، وقد ورد عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ هذا المضمون ، وروايات أخرىٰ كثيرة تشير إلى أهمية التوحيد إضافة إلى الآيات الواردة بهذا المعنىٰ مثل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[١١] وغيرها من الآيات الدالة على نفس المعنىٰ فقد ورد في الفقيه في الحقوق المروية عن سيد العابدين : (حق الله الأكبر عليك أن تعبده ولا تشرك به شيئاً ، فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة) .

وفي الكافي بإسناده عن عبدالله بن سنان قال : سمعت أبا عبدالله يقول : (إن من الكبائر عقوق الوالدين ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، ـ وقد روي أكبر الكبائر ـ الشرك بالله) .

ورویٰ الصدوق في التوحيد قال : حدثنا محمد بن إبراهيم بن إسحاق الطالقاني ـ رضي الله عنه ـ قال : حدثنا محمد بن سعيد بن يحيىٰ البزوري ، قال : حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي ، قال : حدثنا أبي ، عن المعافي بن عمران ، عن إسرائيل ، عن المقدام بن شريح بن هاني ،

---

(١١) سورة النساء ، آية : ٤٨ .

عن أبيـه ، قال : إن إعـرابياً قـام يـوم الجمـل إلى أميـر المؤمنين ـ عايه السلام ـ فقال : يـا أمير المؤمنين أتقـول : إن الله واحد ؟ فحمـل الناس عليه ، قالوا : يا إعرابي أما ترىٰ ما فيـه أمير المؤمنين من تقسيم القلب، فقال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : دعوه فإن الذي يريـده الإعرابي هـو الذي نريده من القوم ، ثم قال : يا إعرابي إن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام : فوجهان منهمـا لا يجوزان على الله ـ عـزّ وجلّ ـ ووجهـان يثبتان فيه ، فأما اللذان لا يجوزان عليه ، فقول القائل : واحد يقصـد به باب الإعداد ، فهذا ما لا يجـوز ، لأن ما لا ثـاني له لا يـدخل في بـاب الإعداد ، أما ترىٰ أنه كفر من قال : ثالث ثلاثة ، وقول القائل : هو واحد من الناس ، يريد به النوع من الجنس ، فهذا ما لا يجوز عليه لأنه تشبيه ، وجل ربّنا عن ذلك وتعالى .

وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه قول القائل : هـو واحد ليس لـه في الأشياء شبه كذلك ربّنا . وقول القـائل : إنـه عزّ وجـلّ أحدي المعنىٰ ، يعني بـه أنـه لا ينقسم في وجـود ولا عقـل ولا وهم ، كـذلـك ربّـنـا عـزّ وجلّ[١٢] .

قال الصدوق ـ رحمه الله ـ بعد نقل هذه الرواية في كتاب التوحيد ، بعد كلام طويل :

فأما توحيد الله ـ تعالى ـ ذكره فهو توحيد بصفاته العلىٰ ، وأسمائـه الحسنىٰ ، كان كذلك إلٰهاً واحداً لا شريك له ولا شبيه ، والموحد هو من أقرّ به على ما هو عليه ـ عزّ وجلّ ـ من أوصافه العلىٰ ، وأسمائـه الحسنىٰ على بصيرة منه ومعرفة وايقان وإخلاص ، وإذا كان ذلك كـذلك فمن لم

---

(١٢) كتاب التوحيد للصدوق : ص٨٣ .

يعرف الله ـ عزّ وجلّ ـ متوحداً بأوصافه العلىٰ ، وأسمائه الحسنىٰ ، ولم يقر بتوحيده بأوصافه العلىٰ فهو غير موحد ، وربما قال جاهل من الناس : إن من وحد الله وأقر أنه واحد فهو موحد وإن لم يصفه بصفاته التي توحد بها ؛ لأن من وحد الله فهو موحد في أصل اللغة ، فيقال له : أنكرنا ذلك لأن من زعم أن ربّه إلٰهٌ واحد وشيء واحد ، ثم أثبت معه موصوفاً آخر بصفاته التي توحد بها فهو عند جميع الأمة وسائر أهل الملل (ثنوي) غير موحد ومشرك مشبه غير مسلم ، وإن زعم أن ربّه إلٰه واحد وشيء واحد وموجود واحد ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون ـ تبارك وتعالى ـ متوحداً بصفاته التي تفرد بالإلٰهية من أجلها ، وتوحد بالوحدانية بتوحده بها ، ليستحيل أن يكون إلٰهٌ آخر ، ويكون الله واحداً والإلٰه واحداً لا شريك له ، ولا شبيه ؛ لأنه إن لم يتوحد بها كان له شريك وشبية كما أن العبد لما لم يتوحد بأوصافه التي من أجلها كان عبداً كان له شبيه ، ولم يكن العبد واحداً وإن كان كل واحد منّا عبداً واحداً ، وإذا كان كذلك فمن عرفه متوحداً بصفاته وأقر بما عرفه واعتقد ذلك كان موحداً ، وبتوحيد ربّه عارفاً .

والأوصاف التي توحد الله ـ عزّ وجلّ ـ بها ، وتوحد بربوبيته لتفرده بها هي الأوصاف التي يقتضي كل واحد منها أن لا يكون الموصوف بها إلاّ واحداً لا يشاركه فيه غيره ، ولا يوصف به إلاّ هو .

وتلك الأوصاف هي كوصفنا له بأنه موجود واحدٌ لا يصح أن يكون حالاً في شيء ، ولا يجوز أن يحلّه شيء ، ولا يجوز عليه العدم والفناء والزوال ، مستحق للوصف بذلك بأنه أول الأولين ، وآخر الآخرين ، قادر يفعل ما يشاء ولا يجوز عليه ضعف ولا عجز ، مستحق للوصف بذلك بأنه أقدر القادرين ، وأقهر القاهرين عالم لا يخفىٰ عليه شيء ، ولا يعزب عنه شيء ولا يجوز عليه جهل ولا سهوٌ ولا شك ولا نسيان ، مستحق بالوصف

بذلك بأنه أعلم العالمين ، حي لا يجوز عليه موت ولا نوم ، ولا ترجع إليه منفعة ، ولا تناله مضرة ، مستحق بالوصف بذلك بأنه أبقىٰ الباقين ، وأكمل الكاملين فاعل لا يشغله شيء عن شيء ، ولا يعجزه شيء ولا يفوته شيء .

مستحق للوصف بذلك ، بأنه إله الأولين والآخرين وأحسن الخالقين وأسرع الحاسبين ، غني لا يكون له قلة ، مستغن لا يكون له حاجة ، عدل لا يلحقه مذمة ولا يرجع إليه منقصة ، حكيم لا تقع منه سفاهة ، رحيم لا يكون له رقة فيكون في رحمته سعة ، حليم لا يلحقه موجدة ، ولا يقع منه عجلة ، مستحق للوصف بذلك بأنه أعدل العادلين ، وأحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسبين ، وذلك لأن أول الأولين لا يكون إلّا واحداً وأسرع الحاسبين ، وذلك لأن أول الأولين لا يكون إلّا واحداً وكذلك أقدر القادرين وأعلم العالمين وأحكم الحاكمين وأحسن الخالقين ، وكلما جاء على هذا الوزن ، فصح بذلك ما قلناه ، وبالله التوفيق ومنه العصمة والتسديد(١٣) .

وقد تحصل ما تقدم ذكره إن (التوحيد) هو الدرجة العالية والمرتبة القصوىٰ التي ينافس فيها المتنافسون ببلوغ غايتها فالعقول على ما أوتيت من طاقات هائلة في التفكير إلّا أن بعضها قد يضل الطريق ويخطىٰ الهدف ؛ لأن التوحيد كما أن قدمنا هو سهل صعب كما أوضحنا في كثير من مطاوي أبحاث الكتاب المتقدمة أن معرفته ـ سبحانه ـ قد اختلفوا فيها ، فإما أن تكون كسبية وإما أن تكون فطرية ، فإن كانت كسبية فإن الإنسان بعقله القوي الضعيف يستحيل عليه أن يصل في ذلك إلى غاية ،

---

(١٣) كتاب التوحيد للصدوق : ص٨٦ .

فكلما بلغ إلى مرحلة من المعرفة ، وجب عليه الإنتقال إلى مرحلة أخرىٰ منها وهي لا تنتهي ، وعلى ذلك فإن الإنسان يبقىٰ يراوح في مكانه .

أما إذا كانت فطرية فإن الله قد تكفل بأن يهب الإنسان ويلقنه معرفته ـ سبحانه ـ ، فلا على الإنسان بعد ذلك إلّا أن يمتثل ما أمر الله ، وأن يأخذ ما أعطاه : ﴿**فمن ابتغىٰ وراء ذلك فأولئك هم العادون**﴾[١٤] .

---

(١٤) سورة المعارج ، آية : ٧ .

الوجل ـ الخوف

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (لا إله إلّا أنت سبحانك إني كنت من الوجلين) والوجل كما ورد في بحث اللغة هو الخوف ، إلّا أنه ربما يختص في بعض الأحيان بالقلب ، أما بقية الأعضاء كالجوارح والحواس فانفعالاتها تأتي في حالات الخوف ، وربما قيل أن الوجل لا يعتري الإنسان إلّا من الله ، أما الخوف فإنه يأتي من الله ومن غيره ، وعلى ذلك فإن النسبة بينهما لا تكون نسبة التساوي ، وإنما تكون نسبة العموم والخصوص المطلق ، قال تعالى : ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربّهم يتوكلون**﴾[١٥] ذكرت هذه الآية صفات المؤمنين ، وبدأت بذكر الوجل عند ذكر الله وزيادة الإيمان عند استماع آيات الله والتوكل على الله . ومن الملاحظ أن نور الإيمان إنما يشرق على القلب تدريجاً ، فلا يزال يشتد ويضاعف حتى يتم ويكمل بحقيقته ، فأول ما يشرق يتأثر القلب (بالوجل) والخشية إذا تذكر بالله عند ذكره وهو قوله ـ تعالى ـ : ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم. . . الآية**﴾ ثم لا يزال ينبسط

---

(١٥) سورة الأنفال ، آية : ٢ .

الإيمان ويتعرق وينمو ويتفرع بالسير في الآيات الدالة عليه ـ تعالى ـ والهادية إلى المعارف الحقة ، فكل ما تأمل المؤمن في شيء منها زادته إيماناً ، فيقوىٰ الإيمان ويشتد حتى يستقر في مرحلة اليقين ، وهو قوله ـ تعالى ـ : ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً . . .﴾ الآية . وإذا زاد الإيمان وكمل كمالاً عرف عندئذٍ مقام ربّه وموقع نفسه معرفة تطابق واقع الأمر ، وهو أن الأمر كله لله ـ سبحانه ، فإنه ـ تعالى ـ وحده هو الرب الذي إليه يرجع كل شيء ، فالواجب الحق على الإنسان أن يتوكل عليه ويتبع ما يريده منه بأخذه وكيلاً في جميع ما يهمه في حياته ، فيرضىٰ بما يقدر له في مسير الحياة ، ويجري على ما يحكم عليه من الأحكام ويشرعه من الشرائع ، فيأتمر بأوامره ، وينتهي عن نواهيه ، وهو قوله ـ تعالى ـ : ﴿وعلى ربّهم يتوكلون﴾ .

وقد اختار ـ عليه السلام ـ بعد هذا التضرع الذي كرره ولا يزال ، الترتيب في الخطاب الموجه إلى الله . فبعد أن اعترف بأنه من الجنس الذي يكون ظالماً وهو الإنسان ـ لولا عصمة الله ـ إنتقل بعد ذلك إلى الإستغفار ، وهي حالة لازمة للمذنبين ينبغي ألّا ينساها الظالم إذا ظلم والمذنب إذا أذنب ، فإنه لا سبيل إلى طرح أثقال الذنوب إلّا الإستغفار .

ثم يأتي بعد ذلك توحيده لربّه ، وهو شيء عظيم عند الله ، فهو يتوسل إليه في غفران الذنوب بعد الإعتراف بها بالتوحيد والمعرفة ثم يأتي بعد ذلك الوجل ، وهو الخوف كما قلنا من عدم قبول توسله واستغفاره واعترافه في ذلك الموقف العظيم ، ولكنه ليس في يأس ولا خيبة أمل . إن الوجل في هذه الحال وهو اشفاق الإنسان من عمله وسوء ظنه بنفسه يدل على منتهىٰ التضرع والخشوع لله ـ سبحانه ـ .

ثم نراه بعد ذلك يشوب هذا الخوف بالرجاء والرغبة فيقول :

الرجاء والرغبة

(لا إله إلّا أنت سبحانك إني كنت من الراجين الراغبين) . والرجاء بهذا الإعتبار يأتي متسلسلاً في ما قال من بين فقرات الدعـاء ، وذلك أن الـرجاء يـأتي بعد الخـوف مباشـرة ، فيحدث بينهمـا تـوازن في القلب ، فالوجل أو الخوف هو الذي يأتي نتيجة الإشفاق من العمل السيء والذنوب المقترفة فيخاف الإنسان من عدم الإجابة . وأما الرجاء فإنه يأتي نتيجة لثقة الإنسان بربّه لعلمه بأن الرحمة التي وسعت كل شيء تسعه هو أيضاً ؛ لأنه شيء من تلك الأشياء .

وهـذا التوازن بينهمـا هو حـالة نفسيـة ، تؤثـر على مظهـر الإنسان المسلم وسلوكه ، فلا يفرط به الوجل حتى يبلغ به إلى حد اليأس والقنوط من الرحمة والمغفرة ، ولا يفرط به الرجاء حتىٰ يبلغ به إلى حـد الإهمال في كل شيء ، وقد سجل هذه الظاهرة في السلوك الإنساني الشاعر الشيخ حسن الدمستاني في وصفه للمؤمنين المتقين الذين تعتز بهم هذه الحال ، وهو معنىٰ مأخوذ مما قاله أمير المؤمنين في إحدىٰ روائع نهج البلاغة في وصف المتقين قال :

ألا تـرىٰ أولـيـاء الله كيف قلت طيب الكرى في الدياجي منهم المقل
يـدعـون ربّهم في فـك عنقهـم من رق عنقهم والـدمـع ينهمـل

نحف الجسوم فلا يدري إذا ركعوا قسي نبل هم أم ركع نبل
خمص البطون طوى ذبل الشفاة ظمىً عمش العيون بكىً ما عبها الكحل
يقال مرضىٰ وما بالقوم من مرض أو خولطوا خبلاً حاشهم الخبل
تعادل الخوف فيهم والرجاء فلم يفرط بهم طمع يوماً ولا وجل
إن ينطقوا ذكروا أو يصمتوا شكروا أو يغضبوا غفروا أو يقطعوا وصلوا
أو يظلموا صفحوا أو يوزنوا رجحوا أو يسألوا سمحوا أو يحكموا عدلوا

وأنت إذا تأملت الحالة التي يكون عليها الناسك في ذلك اليوم جزمت بما قاله في هذه الفقرة . فإن الذي أخلص لله عبادته وأعماله ذلك اليوم لا بدّ أن تعتريه هذه الحالات الواردة أي شيء منها . نقول هذا إذا كان الإنسان في ذلك اليوم قد محض العبادة لله وتعلق نظره بالسماء ، وتملق وألح في المسألة . أما من لم يكن كذلك فإنه بعيد كل البعد عن هذه الصفات القائمة بذاتها في ذلك اليوم .

الإلحاح في المسألة

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من السائلين) والسؤال مرة يكون للإستفهام عن شيء مجهول فيأتي الجواب بذكر المسؤول عنه فيرفع الإبهام ، هذا بالنسبة إلى ما يرد على خاطر الإنسان للإنسان .

أما السؤال إلى الله فهو يختلف عن ذلك كل الإختلاف ؛ لأنه يقصد منه العطاء ، وقد يسأل الإنسان من الله ـ تعالى ـ عطاءً لكنه ليس بتلك الصيغة المتعارفة بين الناس ، فقد أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ بسؤاله ، بل والإلحاح في ذلك السؤال ، وحبب ذلك لنفسه ، ولكنه كرهه لغيره من الإنسان إلى الإنسان ، فقال ـ تعالى ـ : **﴿تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً﴾**(١٦) ، ولكنه ـ سبحانه ـ ندب عباده لذلك ـ كما قلنا ـ في سؤالهم إياه فقال ـ تعالى ـ : **﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليماً﴾**(١٧) . فظاهر الآية أنها مسوقة للنهي

---

(١٦) سورة البقرة ، آية : ٢٧٣ .

(١٧) سورة النساء ، آية : ٣٢ .

عن تمني فضل وزيادة موجودة ثابتة بين الناس وأنه ناشيء عن تلبس بعض طائفتي الرجال والنساء بهذا الفضل ، وأنه ينبغي الإعراض عن التعلق بمن له الفضل ، والتعلق بالله بالسؤال من الفضل الذي عنده ـ تعالى ـ وبهذا يتعين بأن المراد بالفضل هو المزية التي رزقها الله ـ تعالى كلاً من طائفتي الرجال والنساء بتشريع الأحكام التي شرعت في خصوص ما يتعلق بالطائفتين كلتيهما لمزية الرجال على النساء في عدد الزوجات ، وزيادة السهم في الميراث ومزية النساء على الرجال في وجوب جعل المهر لهن ، ووجوب نفقتهن على الرجال .

فالنهي عن تمني هذه المزية التي اختص بها صاحبها إنما هو لقطع شجرة الشر والفساد من أصلها ، فإن هذه المزايا مما تتعلق به النفس الإنسانية لما أودعه الله في النفوس من حبها والسعي لها لعمارة هذه الدار . فيظهر الأمر أولاً في صورة التمني ، فإذا تكرر تبدل حسداً مبطناً ، فإذا أديم عليه فاستقر في القلب سرىٰ إلى مقام العمل والفعل الخارجي .

ومن هنا يظهر أن النهي عن التمني نهي إرشادي تعود مصلحته إلى مصلحة حفظ الأحكام المشرعة المذكورة ، وليس بنهي مولوي . قاله في الميزان .

وعلى هذا يمكن القول بأن السؤال إلى الله ـ سبحانه ـ ينقسم إلى قسمين :

١ ـ وهو أن يسأل الله شيئاً هو نوع من التمني ، وهو الذي يكون ضرباً من المستحيل ، وهذا لا تتعلق به القدرة قطعاً ، لا لنقص في تلك القدرة الإلٰهية ، بل نقص في ذلك المستحيل . فإنه إنما نهىٰ الله عن ذلك في الآية السابقة لأن الدعاء بهذا التمني هو نوع من العبث . وشيء آخر

وهو أن الإنسان تعتريه خيبة أمل ، ويساوره سوء الظن بربّه إذا لم يستجب له دعاؤه في طلب المستحيل .

٢ ـ وهو أن يسأل الله شيئاً ممكناً كما شرع الله وأمر وفي هذا السؤال أو الدعاء تتحقق الإجابة إذا توفرت شروط الدعاء ، وقد عرضنا ذلك في ما مضىٰ من أبحاث الكتاب .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (لا إلٰه إلاّ أنت سبحانك إني كنت من المهللين المسبحين) فإن التهليل ـ كما ورد في فصل اللغة ـ هو أن ينطق الإنسان بكلمة الإخلاص (لا إلٰه إلاّ الله) والتسبيح هو أن يقول الرجل : (سبحان الله) وقد جمعتا في هذه العبارة فكأنه يقول : إني أقول هذا وأفعله وأعتقده في آن واحد . والتهليل والتسبيح هما من أبرز العبادات عند الإنسان لانهما تختصان به ـ سبحانه ـ ، فلا تقالان لأحد سواه ، فكأنه ـ عليه السلام ـ بعد أن ذكر أنه من السائلين والسائل يريد العطاء هلل وسبح ، وهما قولتان من أعظم ما يقول العبد لمولاه . ومعنىٰ ذلك أنه يوحده بهاتين الكلمتين اللتين جمعتا كثيراً من المحامد ، فهو قد تقرب إلى الله بأجب صفاته إليه ، لأنهما من أخص الصفات ، وجعلهما وسيلة لإحراز مطلبه الذي سأل الله أن يعطيه .

ذكر الآباء الأولين

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (لا إله إلاّ أنت ربّي وربّ آبائي الأولين) فتنطوي تحته عدة معاني ، وقبل التطرق إليها نود أن نشير إلى ما ذكره المفسرون في معنىٰ قوله ـ تعالى ـ : ﴿قال ربّكم وربّ آبائكم الأولين﴾[1] قالوا بأنه جواب موسىٰ لما رأىٰ تمويه فرعون على من حوله ، وقد كان أجاب عن سؤاله : ﴿وما رب العالمين﴾ بتفسير (العالمين) من العالم الكبير كالسماوات والأرض وما بينهما عدل ثانياً إلى ما يكون أصرح في المقصود فذكر ربوبيته ـ تعالى ـ لعالمي الإنسانية ، فإن العالم الجماعة من الناس أو الأشياء ، فعالمو الإنسان هو الجماعات من الحاضرين والماضين ؛ ولذلك قال : ﴿ربّكم وربّ آبائكم الأولين﴾ .

أما المعاني التي أشرنا إليها في صدر هذا البحث فتتمثل في النقاط التالية :

١ ـ إنه ـ عليه السلام ـ قد هلل الله كما هلّله آباؤه الأولون من الأنبياء والمرسلين الذين عرفوا الله حق معرفته وعبدوه حق عبادته .

---

(١) سورة الشعراء، آية : ٢٦ .

٢ ـ إنه ـ عليه السلام ـ أراد أن يعامله ـ سبحانه ـ في العطف والحنان كما عامل به آبائه السابقين من الأنبياء والمرسلين الذين كرمهم الله ـ سبحانه ـ على العاملين ، وأنزلهم المنازل العالية في جنات النعيم .

٣ ـ عندما يذكر في العبارة الآباء الأولين ، وهم أكرم على الله من سائر الخلق أجمعين فإن ذلك يعني التوسل بهم في ذلك المحضر الحاشد ، والتوسل بأمثال آبائه من الأنبياء والصديقين لا يرد من الله ـ سبحانه ـ ؛ لأن الله لم يعطهم الدرجات العالية إلاّ لأنهم يستحقون ذلك ، ومن تلك الدرجات الشفاعة ، فهو ـ عليه السلام ـ يريد أن يحرز الإجابة من الله بهم .

٤ ـ يظهر من ذكر الآباء الأولين ومنهم آدم أنه ـ عليه السلام ـ يريد أن يذكر ما تفضل به ـ سبحانه ـ على عباده وهؤلاء خاصة من ايجادهم ثم رعايتهم بما يستحقه كل منهم من الرعاية ، وبما أنه ينتسب إليهم فهو ـ عليه السلام ـ داخل في جملتهم يشمله ما يشملهم ، ويستحق ما يستحقون ، ولكنه مع ذلك لم ينس التوسل بهم أيضاً .

٥ ـ (إن ذكر الأولين) يشير إلى أنه يخاطب الله بأنك يا إلٰهي لأنه ربّ الأرباب قديماً وحديثاً لا إله سواك فكأنه يصفه بالقدم لأنه ربّ الأولين ، أي قديم عليهم ، وربّه أي في الوقت الحاضر ، فكأنه قال ـ عليه السلام ـ : أنت قديم لا بداية لك . لأنك قبل كل أول وحديث لا نهاية لك لأنك ربّي وأنا الفاني الذي أموت وأنت الباقي الحيّ الذي لا يموت .

والعبارة مختصرة نقول بأن التهليل الموجود في هذه الفقرة المطروحة أمامنا للبحث وما أضافه إليها من معاني تدل على أن الحسين

ـ عليه السلام ـ . قد توسل أيضاً بالله ـ تبارك وتعالى ـ فهو يهلله ويسبحه وهذا لا يجوز لغير الله لأنه يدل على التوحيد الخالص وهو ما يحبه الله ـ سبحانه ـ من عبده ، وقد أشرنا إلى ذلك في صدر هذا البحث .

قال عليه السلام :

[اَللَّهُمَّ هٰذا ثَناۤئي عَلَيْكَ مُمَجِّداً ، وَإِخْلاصي لَكَ مُوَحِّداً ، وَإِقْراري بِآلاۤئِكَ مُعَدِّداً ، وَإِنْ كُنْتُ مُقِرّاً أَنّي لاَ اُحْصِها ، لِكَثْرَتِها وَسُبُوغِها ، وَتَظاهُرِها وَتَقادُمِها اِلىٰ حادِثٍ ، ما لَمْ تَزَلْ تَتَغَمَّدُني مَعَها ، مُذْ خَلَقْتَني وَبَرَأْتَني مِنْ اَوَّلِ الْعُمْرِ ، مِنَ الإِغْناۤءِ بَعْدَ الْفَقْرِ ، وَكَشْفِ الضُّرِّ ، وَتَسْبيبِ الْيُسْرِ ، وَدَفْعِ الْعُسْرِ ، وَتَفْريجِ الْكَرْبِ ، وَالْعافِيَةِ في الْبَدَنِ ، وَالسَّلامَةِ فِي الدّينِ] .

اللُّغَة

ممجداً : التمجيد هو أن ينسب الرجل إلى المجد ، ومجده عظمته والثناء عليه التمجيد له . والمجيد فعيل للمبالغة ، والمجيد من صفاته ـ تعالى ـ . قال في التنزيل العزيز : ﴿ذو العرش المجيد﴾[1] قال علي ـ عليه السلام ـ : (أما نحن بني هاشم فأنجاد أمجاد) أي أشراف كرام ، وقال بعضهم : الماجد الحسن الخلق السمح .

---

(١) سورة البروج ، آية : ١٥ .

إخلاصي : خلص الشيء بالفتح يخلص خلوصاً ، وخلاصاً إذا كان قد نشب ثم نجا وسلم . وأخلص لله دينه أمحضه ، وقوله ـ تعالى ـ : ﴿**إلاّ عبادك منهم المخلصين**﴾[٢] والمخلصين ، يعني بالمخلصين (بالكسر) الذين أخلصوا العبادة لله ـ تعالى ـ ، وبالمخلصين (بالفتح) الذين أخلصهم ـ عزّ وجلّ ـ واصطفاهم . وقال ابن الأثير في سورة الإخلاص سميت بذلك لأنها خالصة في صفة الله ـ تعالى ـ ، أو لأن اللاّ فظ بها قد أخلص التوحيد لله وكلمة الإخلاص (التوحيد) . قالت الزهراء ـ عليها السلام ـ في خطبتها المشهورة : (وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، كلمة جعل الإخلاص تأويلها) أي كلمة لا إله إلاّ الله .

تظاهرها : الظهر من كل شيء خلاف البطن ، والظهر من الإنسان من لدن مؤخر الكاهل إلى أدنىٰ العجز مذكر لا غير ، وقلب فلان أمره ظهراً لبطن ، وظهره لبطنه أي اختبره وتأمله ، وثقيل الظهر كثير العيال ، والظهري الذي تجعله بظهر أي تنساه . ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿**واتخذتموه وراءكم ظهرياً**﴾[٣] أي لم تلتفتوا إليه ، وتظاهر النعمة ظهور الواحدة بعد الأخرىٰ ، والظهور الظفر بالشيء ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿**فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين**﴾[٤] .

تتغمدني : الغمد جفن السيف ، وتغمدت فلاناً سترت ما كان منه وغطيته ، وقد اختلف في إشتقاقه ، فقال ابن الكلبي سمي غامداً ، لأنه تغمد أمراً كان بينه وبين عشيرته فسماه بذلك ملك من ملوك حمير ، وغمدان حصن في رأس جبل بناحية صنعاء ، وبرك الغماد موضع باليمن .

---

(٢) سورة ص، آية: ٨٣ .
(٣) سورة هود ، آية : ٩٢ .
(٤) سورة الصف ، آية : ١٤ .

البيان

ذكرنا في الجزء الأول من الكتاب لمحة خاطفة عن كيفية إعراب الإسم الأعظم إذا إلتحقت به الميم في آخره . ولما كان هذا الإسم هو من أعرف المعارف كما ذهب إلى ذلك سيبويه وهو الحق ، وهو أكثر دوراناً عند الداعي في مناجاته ودعواته وصلواته ، فإنه لا بدّ لنا من وقفة أخرىٰ لنضيف إلى ما مضىٰ من البحث حوله شيئاً آخر فنقول :

(أللهم) إسم خصصته الميم المشددة في آخره بنداء الباري ـ سبحانه ـ ، والتزم معها حذف حرف النداء ؛ لوقوع الميم خلفاً عنه ، ولمحل اللام في أوله ، لأنه لا يلي حرف النداء لام التعريف إلاّ في قولهم : (يا الله) ؛ لتكون اللام الزائدة نائبة عن حرف أصلي وهي همزة إلٰه فصارت كالأصلي ، وفي غير هذا الإسم تتجرد اللام للزيادة في أول الإسم ، و (يا) زائدة في أوله كذلك وهما جميعاً لتخصيص الإسم وإزالة شياع التنكير عنه ، فلما تقاربا في المعنى وتشابها في الزيادة وطلب كل واحد منهما أن يليا الإسم دون صاحبه ترك إستعمال الجمع بينهما في أول الإسم إلاّ في ضرورة الشاعر لإقامة الوزن .

وأما اللام في قولهم (يا الله) فلما كانت نائبة عن حرف أصلي خفيت زيادتهما فلما زادوا الميم في آخره فضحت اللام وشهرت معنىٰ فامتنعت (يا من) أوله إلاّ عند الضرورة كإمتناعها من غيره .

ثم إنا ذكرنا في ما مضىٰ من البحث السابق أنه ـ عليه السلام ـ قد ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأعظم صفاته وبالغ في ذكر صفتين هما الوحدانية والتنزيه ، أما ها هنا فإنه ذكر ما مضىٰ ، لأنه في حاجة إلى ذكره ، فقد ذكر ما أثنىٰ به على الله والغرض منه فقال ـ عليه السلام ـ :

(أللهم هذا ثنائي عليك ممجداً) والثناء على الله من أغراضه التمجيد ، وهو مأخوذ من المجد والشرف ، وهو من أسماء الله ـ سبحانه وتعالى ـ . وقد أشار إلى ذلك الكتاب العزيز في قوله ـ تعالى ـ : ﴿**رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد**﴾[٥] ، وقال ـ تعالى ـ : ﴿**ق . والقرآن المجيد**﴾[٦] . قال في الدر المنثور عن ابن عباس : والقرآن المجيد قال : الكريم . وعنه أيضاً قال : القرآن المجيد ليس شيء أحسن منه ولا أفضل منه .

ومعنىٰ ما قاله ـ عليه السلام ـ : إني أكرمك وأفضلك بهذا الثناء الذي ذكرته ، وأنزهك عن المشابه لأحد ؛ لأنك وحدك لا شريك لك ولا شبيه .

والتمجيد في هذه الحال وارد ؛ لأنه مقبل على الله في ذلك اليوم لغرض المسألة . فلا بدّ أن يصفه بالتمجيد الذي يعني الكرم والشرف وبكل صفة يحملها هذا اللفظ في معناه كما ورد عن ابن عباس ، وذلك لكي يستجيب له في دعائه ومسألته .

ثم إن التمجيد والثناء على الله يجب أن يكون في جميع الأحوال . لأنه أهل لذلك في جميع ذلك . فهو يحمد ويمجد ويكرم ويثني عليه في السراء والضراء ، وفي الشدة والرخاء ، وفي المكروه والسرور .

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (وإخلاصي لك موحداً) وقد ورد نص مشابه لهذا النص شرحناه في الجزء الأول من الكتاب (ص٣٠٣) وهو قوله ـ عليه السلام ـ : (وخالص صريح توحيدي) . والتوحيد يعني الذي

---

(٥) سورة هود ، آية : ٧٣ .

(٦) سورة ق ، آية : ٢ .

لا يشوبه شيء آخر في السر والعلانية لأنه معنى متواطىء ؛ ولأنه نفي الشريك عن الله وهو أن لا يدعو الإنسان إلٰهاً آخر ، وإن الله ـ سبحانه ـ لا يريد من العبد إلاّ ذلك التوحيد الخالص ، والتوحيد الخالص ـ كما يلوح في أفق العبارة ـ هو أن يتوكل الإنسان على الله في جميع أموره ، ويلقي إليه بقياده ، ويثق به في كل الحالات ، فإذا فعل العبد ذلك كان موحداً خالصاً .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (وإقراري بآلائك معدداً) فالإقرار بالآلاء يعني الإعتراف بالنعم الواحدة بعد الأخرىٰ ، ثم يعقب كل واحدة بالثناء والحمد ، فإن الإعتراف بالنعم وتعددها يعني بالضرورة أنك راضٍ بما قسم الله إليك من الرزق ، وإن كان قليلاً ، وبالمقابل فإن الله ـ سبحانه ـ يرضىٰ منك بالعمل القليل أيضاً ، كما ورد ذلك في كثير من النصوص عن أهل البيت الطاهر .

ثم يقر ـ عليه السلام ـ بعدم استطاعته على إحصائها ، لا لأنه ضعيف في الإحصاء ، ولا لسبب آخر ، ولكن لا يستطيع إحصاءها لكثرتها فيقول : (وإن كنت مقراً أني لا أحصيها لكثرتها) فالكثير يبلغ من العدد ما لا يحصىٰ ، وبذلك يخرج عن طاقة البشر ، ويتعدى إلى ما بعد الإحصاء ، كتعدد حبات الرمل وكتعدد نجوم السماء ، وكتعدد ذرات الماء ، فإن إحصاء مثل هذه الأعداد ضرب من المستحيل .

ثم إن إحصاء الأشياء مستطاع إذا كان عددها ثابتاً ، أما إذا كانت في زيادة مضطردة في كل وقت كالنعم التي أفاضها الله على الإنسان فإن ذلك أيضاً مما يعسر عدّه . (وسبوغها) وقد مرّ في مقام سابق تفسير هذا المعنىٰ ، وقد قلنا بأن معنىٰ السبوغ هو الزيادة عن الحاجة ، ودرع سابغة يعني طويلة (وتظاهرها) والتظاهر يعني التوارد وعدم الإنقطاع ، فطالما

كانت حياة الإنسان مستمرة فالنعم لا تزال مستمرة ، وبالتالي فإن الرزق لا يزال مستمراً ؛ لأنه لا يمكن للإنسان العيش واستمراريته بدون إستمرارية الرزق ، وإلى هذا أشار قوله ـ تعالى ـ : ﴿**ألم تر أن الله سخر لكم ما في السمٰوات وما في الأرض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة . . .**﴾[7] الآية قال في الميزان : الإسباغ الإتمام والإيساع ، أي أتم وأوسع عليكم نعمه . والمراد بالنعم الظاهرة والباطنة بناءً على كون الخطاب للمشركين النعم الظاهرة للحس كالسمع والبصر وسائر الجوارح ، والصحة والعافية والطيبات من الرزق والنعم الغائبة عن الحس كالشعور والإرادة والعقل .

وبناءً على عموم الخطاب لجميع الناس الظاهرة من النعم هو ما ظهر للحس كما تقدم وكالدين الذي ينتظم به أمور دنياهم وآخرتهم ، والباطنة منها كما تقدم ، وكالمقامات المعنوية التي تنال بإخلاص العمل .

وقد ورد عن أهل البيت الطاهر ـ عليهم السلام ـ تفسير لهذه الآية في أحاديث كثيرة . ففي إكمال الدين بإسناده إلى حمّاد بن أبي زياد ، قال : سألت سيدي موسى بن جعفر ـ عليه السلام ـ عن قول الله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿**وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة**﴾ فقال : النعمة الظاهرة الإمام الظاهر ، والباطنة الإمام الغائب .

وفي تفسير القمي بإسناده عن جابر قال : قال رجل عند أبي جعفر ـ عليه السلام ـ : ﴿**وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة**﴾ قال : أما النعمة الظاهرة فالنبي ـ صلى الله عليه وآله ـ وما جاء به من معرفة الله عزّ وجلّ وتوحيده ، وأما النعمة الباطنة فولايتنا أهل البيت وعقد مودتنا .

وقال في المجمع في قوله ـ تعالى : ﴿**وأسبغ عليكم . . .**﴾ الآية

---

(٧) سورة لقمان ، آية : ٢٠ .

في رواية الضحاك عن ابن عباس قال : سألت النبي عنه فقال يا ابن عباس أمـا ما ظهـر فالإسـلام ، وما سـوّى الله من خلقك ومـا أفاض عليـك من الرزق ، وأما ما بطن فستر مساويء عملك ولم يفضحك به . يا ابن عباس إن الله ـ تعـالى ـ يقول : (ثـلاثـة جعلتهن للمؤمن ولم يكن لـه : صـلاة المؤمنين عليه من بعد انقطاع عمله ، وجعلت له ثلث ماله ، أكفر به عنه خـطاياه ، والثـالث سترت مسـاويء عمله ولم أفضحه بشيء منـه ، ولـو أبديتها عليه لنبذه أهله فمن سواهم .

أما تقادم الآلاء أي النعم فهو اشارة إلى سبقها عليه أي وجودها قبل وجوده ، ولنا أن نتساءل عن وجود النعمة للإنسان قبل خلقه ، وكيف وأنّى ذلك ؟

لقـد سبق أن قلنا في كثيـر من المـواطن في الكتـاب أن لـلإنسـان وجودين متغايرين وهما :

١ ـ **الوجود الظلي** : ونعني به وجوده في عالم الذر قبل أن يوجد تاماً سوياً وقبل أن يودع الأصلاب . فإذا أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعله شيئاً بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً قذفه من صلب إلى رحم ، هكذا يتعقب العصور ، وهكذا يخترق الحواجز . وهذا ما أشار إليه ـ عليه السلام ـ في فقرة سبق شرحها في الجزء الأول من الكتاب وهي قوله ـ عليه السلام ـ : (إبتدأتني بنعمتك قبل أن أكون شيئاً مذكوراً ، وخلقتني من التراب ، ثم أسكنتني الأصلاب آمناً لريب المنون ، واختلاف الدهور ، فلم أزل ظاعناً من صلب إلى رحم في تقادم الأيام المـاضية ، والقـرون الخاليـة . . . . الدعاء) .

٢ ـ **الوجود الحقيقي** : وهو منذ بداية تخلقه وتكونه جنيناً في بـطن

أمه ثم نراه بعد الولادة يتطور في حياته حتىٰ نهايتها ، وقد مرّ بحث ذلك مفصلاً في الجزء الأول .

وبهذا المعنىٰ أن تقادم النعم ووجودها قبل وجود الإنسان أو وجودها قبل حاجته إليها .

ثم ذكر ـ عليه السلام ـ مدىٰ الإمتداد لهذه النعم فقال : (إلى حادث ما لم تزل تتغمدني معها) أي إلى زمان قريب ووقت متصل بوقت آخر لم تزل تسترني بهذه الآلاء ، أي تجعلني في غير حاجة إلى أحد فأفتضح بمسألتي إلى الناس ، ولكنك سترتني وكفيتني أمر السؤال بأن أسبغت علي هذه النعم متتابعة متقادمة غير متناهية ، فإنك لم تزل تتغمدني معها وترعاني ، وهذا ما يفسره قوله ـ عليه السلام ـ : (مذ خلقتني وبرأتني من أول العمر) ، والنعم التي تحوط الإنسان منذ خلقه الله وبرأه من أول عمره كثيرة لا تحصىٰ ، فهو جنين في بطن أمه جعله في قرار مكين ـ كما صرّح بذلك الكتاب العزيز ـ أي في مكان آمن مستكن مستقر منذ الساعات الأولى التي تتميز فيها خلقته حتىٰ ينشأ ويتطور ثم يولد ، وهذه المرحلة من حياة الإنسان هي أول مراحل العمر ، وأهمها . وفي هذه المرحلة يكون الجنين بعيداً عن كل المشاكل حتىٰ مشكلة الغنىٰ والفقر .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (من الإغناء بعد الفقر) فإنه يشير بذلك إلى النعم التي وفرها ـ سبحانه ـ للإنسان فلم يعوزه بعد ذلك إلى أحد ، ومشكلة الغنىٰ والفقر قد أخذت شوطاً بعيداً في حياة الإنسان المادية والإقتصادية واستحوذت على عقله في معظم تصرفاته في حياته العامة .

وهنا يرد إحتمالان أو أكثر بالنسبة للإغناء بعد الفقر .

١ ـ وهو أن الإنسان يأتي إلى هذه الدنيا وهو لا يملك شيئاً للضرورة ولا يعلم شيئاً بالضرورة ، وذلك كما أشار إليه تعالى في الكتاب المجيد : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً . . . ﴾[٨] الآية ، فممتلكاته في هذه الحال تساوي صفراً ، وعلمه يساوي صفراً ، إذاً فكله حاجة ، وكله فقر ، وإن كان لم يزل في سيره في حياته محتاجاً ، ولكن في صغره أمس وأكثر إفتقاراً .

٢ ـ ويحتمل أيضاً أن يكون هذا الإغناء بعد الفقر هو أنه يستطيع أن يدير شؤونه ويعرف سبل العيش التي شرعها الله لعباده ، فيضرب في الأرض في سبيل ذلك .

٣ ـ ويحتمل أيضاً بعد التأمل أن أنعم الله عليه بالعقل ، والعقل عطية سنية ، وهو القوة الفاعلة للتخطيط في السير للحصول على لقمة العيش ، وبذلك يصبح وسيلة للغنىٰ بعد الفقر . قال تعالى : ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾[٩] .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (وكشف الضر) فقد تقدم الحديث عن هذا المعنىٰ ، ونضيف هنا بأن الضر هو ما كان أذىً للإنسان ، ولكنه ليس من الضروري أن يكون بعوض ؛ وذلك لأنه ليس مسبب عن الله ؛ لأن الله ـ سبحانه ـ هو الذي يكشف الضر . أما البلاء فهو يختلف عن الضر ، لأن الأول له عوض ، وذلك لأنه مسبب عن الله كما هو حال أيوب ويعقوب وسائر الأنبياء ، وفي قوله ـ تعالى ـ : ﴿وأيوب إذ نادىٰ ربّه أني مسني الضر

(٨) سورة النحل ، آية : ٧٨ .

(٩) سورة الملك ، آية : ١٥ .

وأنت أرحم الراحمين﴾[10] كلام يطول لذكره الإملاء أعرضنا عنه إختصاراً .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (وتسبيب اليسر ودفع العسر) فإن بهذا المعنىٰ جاء قوله ـ تعالى ـ : ﴿فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً﴾[11] ، أما تسبيب اليسر فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد يسّر الأمور لعبده أي سهلها ، وهذا التيسير لا يختص به عبد ذو نمط معين من العباد ، ولكنه عام شامل لجميعهم ؛ لأن الله هو خالقهم ورازقهم ؛ ولأن العبد فهما كانت هويته لا يمكنه أن يستمر في العيش إلاّ بمعونة الله ـ سبحانه ـ في جميع الأمور ، وقد أشار إلى هذا في قوله ـ تعالى ـ : ﴿أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه . . .﴾[12] الآية فالإستفهام للتقرير والمعنىٰ هو يكفيهم ، وفيه تأمين للنبي قبل تخويفهم إياه بآلهتهم ، وكناية عن وعده بالكفاية ـ كما صرّح به في قوله : ﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾[13] .

فتسبيب اليسر أي بذل كل ما فيه خير لأنه أعطىٰ عبده عطاءً غير مجذوذ . وأما دفع العسر فهو ناتج عن تسبيب اليسر ، فكلما سبب يسراً أزال عسراً . وقد ورد في الدر المنثور قال أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فإن مع العسر يسراً﴾ قال أتبع العسر يسراً . وعنه بالسند السابق عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿إن مع العسر يسراً﴾ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ :

---

(١٠) سورة الأنبياء ، آية : ٨٣ .

(١١) سورة الإنشراح ، آية : ٥ ، ٦ .

(١٢) سورة الزمر ، آية : ٣٦ .

(١٣) سورة البقرة ، آية : ١٣٧ .

ابشروا آتاكم اليسر لن يغلب عسر يسرا .

وفيه عن جابر بن عبدالله قال : بعثنا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ ونحن ثلاثمائة أو يزيدون علينا أبو عبيدة الجراح ليس معنا من الحمولة إلاّ ما نركب فزودنا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ جرابين من تمر فقال بعضنا لبعض قد علم رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ أين تريدون وقد علمتم ما تعلم من الزاد فلو رجعتم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ فسألتموه أن يزودكم فرجعنا إليه فقال : إنّي قد عرفت الذي جئتم له ، ولو كان عندي غير الذي زودتكم لزودتكموه فانصرفنا ونزلت : **﴿فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً﴾** فأرسل نبي الله إلى بعضنا فدعاه فقال : ابشروا فإن الله قد أوحىٰ إليّ : **﴿فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً﴾** ولن يغلب يسر يسرين .

وقد ذكر ذلك المفسرون فقالوا إن في الآيتين دلالة على أن مع العسر يسرين ، بناءً على أن المعرفة إذا أعيدت ثانية في الكلام كان المراد بها عين الأولى ، بخلاف النكرة ، كما أنه لو قيل : إذا اكتسبت الدرهم أو درهماً فأنفق الدرهم كان المراد بالثاني هو الأول ، بخلاف ما لو قيل : إذا اكتسبت درهماً فأنفق درهماً ، وليست القاعدة بمضطردة .

تفريج الكرب

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (وتفريج الكرب) فإن المقصود ما هو أعم وأشمل من المصيبة ، أو الهم والغم فهو كلما يمس الإنسان في ماله أو عرضه أو نفسه أو شرفه ومجده . فالمساس بهذه النواحي سبب في إصابة الإنسان بالكرب . على أن الإنسان يختلف إختلافاً كبيراً فيما بين أفراده ، فمنهم من يحتمل الخطوب الكبيرة ، ومنهم من لا يحتمل ذلك . فالأول يجتر المصيبة والنازلة أو ترتطم به وهو كالجبل الأشم ، لا تزعزعه العواصف ، ولا تزعجه الرعود القواصف ، والثاني يكون كالريشة في مهب الريح عندما يتعرض لأقل تغير في حياته اليومية الجامدة ، لا يثبت أمام أي نازلة صغيرة أو كبيرة ، وإلى هذا أشار الشاعر بقوله :

وإذا كانت النفوس كباراً ... تعبت في مرامها الأجسام
والنفوس الكبار لا تقبل الضيم ... وما للأبي جنب يضام
وحياة الإنسان في هذه الدار ... حياة فيها الخطوب الجسام
فالأبي الأبي من يرفع الضيم ... بقلب كالطود ليس يرام
فاستعذ بالإله من كل هول ... هو للدهر غاية ومرام(١٤)

(١٤) الأبيات الأربعة الأخيرة من تذييل المؤلف .

وهنا تظهر ثمرة الإيمان بالله فإنه يحمي الإنسان من الإضطراب النفسي إذا ما كان مستعداً لمثل ذلك عارفاً بأن هذا البلاء وليس المقصود به التنكيل والأذىٰ .

فقد زار بعض الحكماء بعض العارفين في مرضه فقال الحكيم يسلي المريض العارف : ينبغي أن يعرف الإنسان أن هذا إبتلاء والإبتلاء في صالحه فيصبر فأجاب العارف بقوله : بل ينبغي أن يشعر هذا المبتلىٰ بلذة الإبتلاء وإلّا لم يكن مؤمناً حقاً .

وإذ قد عرفنا ذلك نقول : إن الكرب لا يكشفه إلّا الله سواء في ذلك المؤمن والكافر ، إلّا أنه ينكشف الكرب بأسباب قد تعرض في هذه الحال ، وهي لدىٰ المؤمن أكثر ، كما لو تصدق المؤمن فإن الصدقة تدفع البلاء ، وقد أبرم ـ كما ورد في المأثور ـ أو سأل الله كشف الكرب ، أو بدا لله أمر في أي نوع من أنواع البلاء والكرب ، وهنا يظهر موضوع البداء ، وله مكان آخر نستوفي الحديث عنه إن شاء الله .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (والعافية في البدن) . ويظهر بحسب إستعمال هذه الكلمة كما وردت في العبارة أنها أعم من الصحة فالعافية في البدن هو أن يتمتع الإنسان بكامل قواه الجسمية والعقلية وما سوىٰ ذلك من بقية العوارض التي تعرض على الإنسان من الداخل والخارج . أما الصحة فهي السلامة في أعضاء البدن من الأمراض ، ولكن قد تأتي الكلمتان بمعنىً واحد بوجود بعض القرائن في كثير من الإستعمالات اللغوية . فهناك إضافة إلى الأمراض العاهات التي تنقص وتزيد في أعضاء البدن .

وقد سأل ـ عليه السلام ـ من الله (العافية في البدن) بهذا المعنىٰ ؛ لأنه لا يمكن أن يعطي الصحة إلّا من أعطىٰ المرض . ولكن في قوله

ـ تعالى ـ : ﴿**وإذا مرضت فهو يشفين**﴾[١٥] نسب المرض إلى نفسه لئلا يختل المراد بذكر ما هو سلب النعمة بين النعم ، وأما قول القائل إنه إنما نسب المرض إلى نفسه مع كونه من الله للتأدب فليس كذلك .

(والسلام في الدين) هو أن يكون سليم الإعتقاد في ما يجري عليه أوله ، وبنظرة أدق إن السلامة في الدين تتمثل في نواحي ثلاث :

الأولى : السلامة في ما يقوله اللسان فإن له أهمية ومركزية في هذا المجال . فكلمة الإخلاص وهي التي تتمثل في قول : (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله) تحقن الدم وتحفظ النفس والأموال والأعراض ، وتكون سداً مانعاً وحصناً حصيناً للإنسان في دار الدنيا ، فلا يجوز أن يؤخذ من ماله أو يؤذىٰ في عرضه أو في نفسه بعد أن يقولها .

وبالتالي تترتب كثير من الأحكام ، فالإقرار والشهادات والإيقاعات والعقود تتوقف على اللسان .

وبكلمة أخيرة إن إسلام المرء لا يتحقق إلاّ باللسان إضافة إلى العمل ، مع تجاوز في التعبير ، وبه يحكم له أو عليه . فاللسان ينطق بالشهادتين ، وبالشهادتين ينجو من القتل ، واللسان سلاح ذو حدّين فمرة ينجي من العطب ، وأخرىٰ يردي الإنسان إلى الهلكة وهذا معروف لا يحتاج إلى بحث ، فإذا طاب اللسان طاب الكلام ، فلا يقول هجراً ولا يقول زوراً ، ولا يقول كذباً ولا يقول غيبة ، ولا يقول نميمة ، فإذا سلم الإنسان من جريمة اللسان فقد سلم له دينه في لسانه .

وبهذا المعنى جاء قوله ـ تعالى ـ : ﴿**واجعل لي لسان صدق في**

---

(١٥) سورة الشعراء ، آية : ٨٠ .

الآخرين﴾ وظاهر جعل هذا اللسان له أن يكون مختصاً به كلسانه لا يتكلم إلّا بما في ضميره مما يتكلم هو به ، فيئول المعنىٰ إلى مسألة أن يبعث الله في الآخرين من يقوم بدعوته ، ويدعو الناس إلى ملته وهو دين التوحيد[16] ، قال الشاعر :

وزن الكلام إذا نطقت ولا تكن   ثرثارة في كلِّ نادٍ تخطب

وبهذا المعنى جاءت هذه الأبيات ضمن البحث :

الصدق خير في اللسان إذا حكىٰ   ولقد تسيل من اللسان دماء
فالمين يرميه اللسان كأسهم   ولربما عمرت به هيجاء
ولربما جرّت مقالة كاذب   شراً كثيراً واستبيح خباء

الثانية : السلامة فيما يعتقده بالقلب ، فإنه مقر الإيمان والإعتقاد ، ولا يمكن للإنسان أن يقول شيئاً ويأتي على لسانه إلّا بعد الإعتقاد في القلب فإنه السلطان على كلِّ الأعضاء ، وليس عليه سلطان من الداخل أو الخارج ، وهو كما أسموه (المنطقة الحرام) التي لا يجوزها أي من المؤثرات .

إن هذه الجارحة هي التي ترسم الخطوط العريضة وتقوم بمهمة توزيع الأعمال ، وتصريفها على الأعضاء العاملة في الجسم كل في ما يخصه ، وتصدر الأوامر إليها في الأوقات المناسبة بإشارات عجيبة تنظمها . بل وأعظم من ذلك فإنه يحاسب الأعضاء على أخطائها ، ورفض ما تأتي به من عمل لا يرتضيه القلب ، فكأنه ملك متربع على العرش بعيد كل البعد عن جنده ، مختبىء في منطقة بعيدة عنهم . وقد مرّ بعض من الحديث عن القلب في الجزء الأول من الكتاب .

---

(١٦) الميزان : ج١٥ ص٢٨٦ .

الثالثة : الأعضاء في الجسم عامة وسلامة الدين في الأعضاء هو أن لا يستعملها في غيره ، فالعين لا تجوز له أن ينظر بها إلى ما حرم الله ، ولا يتتبع عورات الناس ، والأذن مثلاً : أن لا يسمع بها قول الهجر والغيبة والنميمة ولهو الحديث واليدان سلامة الدين فيهما أن لا يعتدي بهما على أحد من قتل أو ضرب أو إنتشال ، وكل ما ينافي الأوامر والنواهي الشرعية .

وفي الحديث المأثور عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) .

وبكلمة أخيرة إن السلامة في الدين مرتبطة كل الإرتباط (بالعافية في البدن) ، وقد قدم العافية في البدن ثم دعا ربّه بأن يسلمه في دينه ؛ وذلك لأنه كثيراً ما ترتبط الجريمه بالنعمة ، وقد جاء في المأثور عن أهل البيت الطاهر (لا يعصىٰ الله إلاّ بنعمه) فمن كان معافىً في سيرته ، وقد ألبس الصحة والعافية ليس ببعيد أن يعتريه الغرور ، ويستعمل تلك الأعضاء الصحيحة فيما لا يجوز استعمالها ، فيخرج بذلك عن جادة الصواب ؛ ولذلك فإنه سأل الله معقباً بالسلامة في الدين ؛ لعلمه بأن غرور الإنسان قد يخرجه عن دينه ، وبذلك لا يسلم له من تلك الآفات التي يجلبها كثير من النعم .

وقد ورد هذا المعنىٰ على لسان الإمام زين العابدين ـ عليه السلام ـ في دعائه الذي رواه عنه أبو حمزة الثمالي قال : (أللهم أعطني السعة في الرزق ، والأمن في الوطن ، وقرة العين في الأهل والمال والولد ، والمقام في نعمك عندي ، والصحة في الجسم ، والقوة في البدن ، والسلامة في الدين ، واستعملني بطاعتك ، وطاعة رسولك محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ) .

قال عليه السلام :

[وَلَوْ رَفَدَني عَلىٰ قَدْرِ ذِكْرِ نِعَمِكَ عليَّ جَميعُ الْعالَمينَ ، مِنَ الأوَّلينَ وَالآخِرينَ ، لَما قَدِرْتُ وَلا هُمْ عَلىٰ ذٰلِكَ ، تَقَدَّسْتَ وَتَعالَيْتَ مِنْ رَبٍّ عَظيمٍ ، رَحيمٍ ، كَريمٍ ، لا تُحْصىٰ آلاؤُكَ ، وَلا يَبْلُغُ ثَناؤُكَ ، وَلا تُكافىٰ نَعْماؤُكَ ، صَلِّ عَلىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ ، وَأَتْمِمْ عَلَيْنا نِعَمَكَ ، وَأَسْعِدْنا بِطاعَتِكَ] .

اللُّغَة

رفدني : الرفد بالكسر العطاء والصلة ، رفده أعطاه ، ورفده وأرفده أعانه ، وترافدوا أعان بعضهم بعضاً والمرفد بفتح الميم وضمها المعونة ، قال دكين :

خير امرءٍ قد جاء من معدّه — من قبله أو رافدٍ من بعده

والرفادة شيء كانت قريش تترافد به في الجاهلية ، فيخرج كل إنسان مالاً بقدر طاقته فيجمعون من ذلك مالاً عظيماً أيام الموسم ، فيشترون به للحاج الجزر والطعام والزبيب ، فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضي أيام موسم الحج . وكانت الرفادة والسقاية لبني هاشم ،

والسدانة واللواء لبني عبد الدار ، وكان أول من قام بالرفادة هاشم بن عبد مناف ، وسمي هاشماً لهشمه الثريد . والترفيد التسويد والتعظيم .

أسعدنا : السعادة خلاف الشقاوة . يقال : يوم سعد ويوم نحس . ويوم سعد وكوكب سعد وصفا بالمصدر .

والسعد والسعود كلاهما سعود النجوم ، وهي الكواكب التي يقال لكل واحد منها سعد كذا ، وهي عشرة أنجم كل واحد منها سعد : أربعة منها منازل ينزل بها القمر ، وهي سعد الذابح وسعد بلع ، وسعد السعود ، وسعد الأخبيه ، وهي في برجي الجدي والدلو . وستة لا ينزل بها القمر وهي سعد ناشرة ، وسعد الملك ، وسعد السهام ، وسعد الهمام ، وسعد البارح ، وسعد مطر . وكل سعد منها كوكبان بين كل كوكبين في رأي العين قدر ذراع ، وهي متناسقة ، قال ابن كناسة : سعد الذابح كوكبان متقاربان سمي أحدهما ذابحاً ؛ لأن معه كوكباً صغيراً غامضاً ، يكاد يلزق به فكأنه مكبّاً عليه يذبحه ، والذابح أنور منه قليلاً . قال : وسعد بلع نجمان معترضان خفيان . قال أبو يحيىٰ : وزعمت العرب أنه طلع حين قال الله : ﴿**يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي**﴾[1] ويقال إنما سمي بلعاً لأنه كان لقرب صاحبه منه يكاد أن يبلعه . قال : وسعد السعود كوكبان . وهو أحمد السعود ولذلك أضيف إليهما ، وهو يشبه سعد الذابح في مطلعه .

وقال الجوهري هو كوكب نير منفرد .

وسعد الأخبية ثلاثة كواكب على غير طريق السعود ، مائلة عنها وفيها اختلاف ، وليست بخفية غامضة ، ولا مضيئة منيرة ، وسميت سعد

---

(١) سورة هود ، آية : ٤٤ .

الأخبية لأنها إذا طلعت خرجت حشرات الأرض وهـوامها من حجـرتها ، جعلت حجرتها لها كالأخبية ، وفيها يقول الراجز :

قـد جـاء سعـد مقبـلاً بحـره واكـدةً جنـوده لـشـره

فجعل هوام الأرض جنوداً لسعد الأخبية .

البيان

مرة أخرىٰ يعود ـ عليه السلام ـ فيكرر ما فصله ولكن بصورة إجمالية وبشكل آخر ، فقد أخذ يعدد النعم ، ثم أخذ يعترف بعجزه عن إحصائها وعدّها ، ثم زاد على ذلك فقال : (ولو رفدني على قدر ذكري نعمك علي جميع العالمين من الأولين والآخرين لما قدرت ولا هم على ذلك) والرفد هو المعاونة كما ورد في فصل اللغة ، والمعـاونة على هـذا الأمر يقتضي القدرة على إنجاز العمل المطلوب . إلّا أن إنجاز هذا العمل يقتضي ثبوته عنـد حد ، ولكن النعم التي تتـرىٰ ليـلاً ونهـاراً على الإنسـان من اليمين والشمال ومن خلف ومن أمام ومن فوق ومن تحت لا تنتهي .

وهناك يداعب الفكر سؤال يطرح نفسه وهو : كيف لا يقدر هو ولا جميع العالمين من الأولين والآخرين على إحصاء هذه النعم وعدّها ؟

وفي مقام الجواب ينبغي أن نرجع إلى سيرة الإنسان من أول الدهر والذي لم يكن فيه شيئاً مذكوراً ثم ذكر ، ولم يكن موجوداً ثم وجد ، ولم يكن معروفاً ثم عرف .

ذلك إن الإنسان في بدايته وهو يتنقل ما بين أصلاب الرجال وأرحام النساء في حاجة ماسّة إلى رعايـة خاصـة ، وهو لم يـوجد بعـد على وجه الأرض . وإن هذه الرعاية هي نعمة كافية في أن تغمر الإنسان من قرنه إلى قدمه بالتفضل ، وهي كافية في مقـام التحدي . فمن ذا الـذي يدرك من

الأولين والآخرين هذه التنقلات التي يتقلب فيها الإنسان بين ظهر وبطن من لدن آدم إلى يوم ولادته ، ثم منها إلى يوم موته . إن في كل هذه المراحل نعماً ، وفي النعم تفضل لا يدرك الإنسان غايته ، ولا يصل إلى كنه معرفته . قال ـ تعالى ـ : **﴿وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم﴾**[٢] .

ولقد عبّر ـ عليه السلام ـ في هذه الفقرة بكلمة (ذكر) وأعرض عن لفظ الإحصاء ليأسه من ذلك وعدم استطاعته ـ كما عبرت بذلك الآية ـ وذلك لأن ذكر النعم لا يسلتزم إحصاءها ، فإن ذكرها ولو بصورة إجمالية لا يعني عدّها ، أما الإحصاء فهو أخص من الذكر ولذلك أعرض عنه إلى ذكرها على الإجمال .

ثم إن الذكر يقتضي معرفة بداية النعم ونهايتها ؛ لأنه لا يمكن أن يعرف الإنسان شيئاً لا يعلم بزمان حدوثه ، وكم من المرات حدث . فبداية النعم ضاربة في القدم قدم الإنسان بل قبل الإنسان . وكذلك لا يمكن للإنسان معرفة النهاية لهذه النعم .

لا يقال بأن نهاية عمر الإنسان هي نهايتها من حيث انتفاء موضوعها ، لأنّا نقول : إن النعم لا تتوقف عند موت الإنسان ، فإن التنعم فيما بعد الموت وارد على الإنسان خلال الآيات والروايات ، وخصوصاً في يوم القيامة إذا كان الإنسان من أهل النعيم ، بل إن النعم على الإنسان بعد موته هي أعظم منها في حياته ؛ لأن في حياته نعماً فانية ، وأما بعد موته فإن النعم باقية دائمة ما دامت السماوات والأرض ، وهذا لا يحتاج إلى بحث وعناء كثير .

---

(٢) سورة النحل ، آية : ١٨ .

أما التقديس في قوله ـ عليه السلام ـ : (تقدست وتعاليت من رب عظيم كريم رحيم) فهـو يعني التمجيد ، ومعنىٰ ذلـك أنه ـ عليـه السلام ـ يقـول: أمجدك وأقول بعلو شأنك أن أحصي أياديك ونعمك ، وأعظمـك وأجلك عن ذلك ، فأي نعمك أولى بالـذكر ، هـل هو الكـرم الذي تفيضـه على الإنسـان فتغمـره بـه ؟ أو رحمتـك التي وسعت كـل شيء ، وفي هـاتين الصفتين إشارة إلى أن هذه النعم التي يعطيها لعباده بمحض الكرم والجود هي ملؤها الرحمة التي وسعت العباد فإن العطاء في كثير من الأحيان قـد يحدث ومن ورائه دوافع مختلفة عند الإنسان كـالحياء والـرياء والجبـر ، وهذه العوامل لا أثر لها عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالضرورة ، فهو يعطي لأنه كريم ، ومقتضىٰ الكرم العطاء والإنعام ، ويرحم لأنه رحيم ومقتضىٰ الرحمة أن ينشرها على عباده ، ومن مصاديقها في الدنيا الإنعام والإكرام ، ومن مصاديقها في الآخرة المغفرة .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (لا تحصىٰ آلاؤك ، ولا يبلغ ثناؤك ، ولا تكافىٰ نعماؤك) فإنه قد مرّ بنا كثيراً من هذه المعاني في مطاوي الأبحاث المتقدمة من الكتاب . وهو ـ عليه السلام ـ إذ يكرر ذلك يعترف المرة بعد الأخرىٰ بعجزه عن إحصاء النعم التي تناله في كل وقت ، وفي ذلك أبلغ الثناء والتمجيد لله . فإذا كان الحال هذه فإن الثناء على الله ـ تعـالى ـ لا يمكن أن يبلغـه الإنسان لأن النعم غيـر محدودة ، فـإحصاؤهـا ضرب من المستحيل ، وبالتالي فلا يمكن بلوغ الثناء على الله ، وأخيراً لا يمكن أن تكافأ هذه النعم ؛ لأن المكافأة مأخوذة من التكافؤ ، وهو التساوي ، فأي شيء يساوي نعم الباري ، وهي في زيادة مستمرة ؟ وإذا ما حاول الإنسان أن يفعل ذلك فإنه يحاول المستحيل .

أمـا قولـه ـ عليه السـلام ـ : (صلّ على محمـد وآل محمد) فهـو

إقحام لهذه العبارة المباركة فيما يريد أن يبلغه من الثناء والمدح ، لأنها عبارة لا تتردد بين القبول والرد ـ كما ورد في المتواتر من الأخبار ، وبذلك نفسر إعترافه بالعجز والتقصير وإقحامه الصلاة على النبي وآله ليكون الجميع صفقة واحدة ، ويتخذ ذلك وسيلة بقبول ما يقول .

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (وأتمم علينا نعمتك) وقد تقدم بحث إتمام النعمة في الجزء الأول من الكتاب عند قوله ـ عليه السلام ـ : (حتىٰ إذا أتممت علي جميع النعم) ونعود مرة ثانية لنكرر هنا فنقول : إن إتمام النعمة هو إكمالها من جميع الجهات ، ومعنىٰ ذلك عدم حاجة الإنسان إلى غير الله ، والإكتفاء بما أسبغه الله عليه من النعمة الظاهرة منها والباطنة ومنها الصحة وتوفير الغذاء الطعام والشراب وسائر وسائل الحياة .

وفي وقفة تأمل نراه ـ عليه السلام ـ قد عدل عن ضمير المفرد إلى ضمير الجمع ؛ لأنه يدعو إلى أهل الموقف عامة ، وقد تظافرت النصوص على إستحباب ذلك في الروايات الواردة عن أهل بيت العصمة ـ عليهم السلام ـ فقوله ـ عليه السلام ـ : (وأتمم علينا نعمتك) دليل على أنه لا يريد أن يستبدّ أو يستقلّ بالدعاء لنفسه لأنه من الذين يؤثرون على أنفسهم حتىٰ في هذه المواقف .

السعادة

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (وأسعدنا بطاعتك) فإن السعادة ينالها الإنسان بكثير من الوسائل . فالسعادة بهذا الإعتبار سعادة في الدنيا وسعادة في الآخرة ، أما سعادة الدنيا فإن الإنسان ينالها بوسائل شتىٰ منها :

١ ـ **المال** : فالمال زينة الحياة الدنيا ؛ لأنه عصب الحياة واستمرارية العيش وقوام الإنسان عليه بنيت أمور الإنسان ، لكنه مهما وضعه في ميزان القيم وجعله في نظره شيئاً عالياً فإنه لا يعدو كونه وسيلة لا غاية . نعم وسيلة لإستمرارية الحياة وبدونه ينقطع ذلك الشريان فتنقطع كل وسيلة ، ويزول كل أمل عند الإنسان .

٢ ـ **البنون** : والبنون هم الزينة الثانية التي ذكرتها الآية الكريمة في قوله ـ تعالى ـ : ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾[٣] قال المفسرون : إن المال والبنين وإن تعلقت بها القلوب وتاقت إليها النفوس تتوقع منها الإنتفاع وتحف بها الآمال لكنها زينة سريعة الزوال غارّة لا يسعها أن تثيبه وتنفعه في كل ما أراده منها ، ولا أن تصدقه في جميع ما يأمله ويتمناه ، بل ولا في أكثره .

---

(٣) سورة الكهف ، آية : ٤٦ .

وبكلمة مختصرة إن البنين هي أيضاً من زينة الحياة الدنيا ، ولكن ربما حصل للإنسان ما ينعكس معه الوضع وتنقلب به المقاييس والموازين في ما إذا أصبح الولد يسير سيرة غير صالحة ويبتعد عن جادة الطريق ، خصوصاً إذا تلقفه قرناء السوء وخصوصاً أيضاً إذا نشأ في مجتمع تسوده الفوضىٰ ، فإن الولد في هذه الحال يكون بمنزلة النقمة التي تنصبُّ على الأب ، وللكلام مجال آخر في هذا البحث .

٣ ـ **العلم** : وهو الذي يرقىٰ بالإنسان إلى الدرجات العالية ويصل به إلى مراتب الكمال الإنساني ويصعد به إلى قمة المجد ، ويرسم له طريق المستقبل ، ويكشف له خباياه ، ويجعله شريفاً مطاعاً ، وبه بنيت الحضارات وتقدمت الأمم ، وسعدت النفوس ، وتغيرت أحوال البشر من حالة إلى أخرىٰ .

العلم نور كاشف ينير البصيرة ويهدي البصر ، وينعش النفوس الخاملة الكسولة ، قال الله ـ تعالى ـ : **﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾**(٤) ، به عبد الله حق عبادته وبه يتسابق المقربون وينالون من الله الرضا قال الشاعر :

رأيت العلم صاحبه كريم ... ولو ولدته آباء لئام
وليس يزال يرفعه إلى أن ... تعظم أمره القوم الكرام
فلولا العلم ما سعدت رجال ... ولا عرف الحلال ولا الحرام

وفي هذا المجال الحيوي الهام قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب

---

(٤) سورة المجادلة ، آية : ١١ .

ـ عليه السلام ـ : (طلبت القدر والمنزلة ما وجدت ذلك إلّا بالعلم ، تعلموا يعظم قدركم في الدارين ، وطلبت الكرامة فما وجدتها إلّا بالتقوىٰ إتقوا لتكرموا ، وطلبت الراحة فما وجدتها إلّا بترك مخالطة الناس إلّا لقوام عيش الدنيا ، اتركوا الدنيا ومخالطة الناس تستريحوا في الدارين وتأمنوا من العذاب ، وطلبت السلامة فما وجدتها إلّا بطاعة الله ـ تعالى ـ أطيعوا الله تسلموا ، وطلبت الخضوع فما وجدته إلّا بقبول الحق ، اقبلوا الحق فإن قبول الحق يبعد عن الكبر ، وطلبت طيب العيش فما وجدته إلّا بترك الهوىٰ فاتركوا الهوى يطيب عيشكم ، وطلبت المدح فما وجدته إلّا بالسخاء فاسخوا تمدحوا ، وطلبت نعيم الدنيا والآخرة فما وجدته إلّا بهذه الخصال التي ذكرتها) .

وأما سعادة الآخرة فإنها تأتي بعوامل مختلفة وأهمها العمل الصالح ، والعمل الصالح لا يأتي بمجرد العمل وليس بمجرد العزم والتصميم على العمل ، وإنما يأتي بالإخلاص في العمل .

وبنظرة أخرىٰ إن السعادة لا تأتي إلّا إذا رضي الإنسان عن نفسه ، ولا يرضىٰ عن نفسه حتىٰ يرضىٰ عنه ربّه ، وذلك بطاعته لمولاه ، هذه هي السعادة بالطاعة التي عناها الحسين ـ عليه السلام ـ في كلامه .

هذه النظرة البعيدة التي نظرها الحسين ـ عليه السلام ـ عندما قرن السعادة بطاعة الله ـ سبحانه ـ تدل على أن السعادة حقيقة في إطلاقها هي سعادة الآخرة ؛ لأن الدنيا هي سجن للمؤمن وجنة للكافر ، وقد ورد الكثير على لسان الشرع الشريف سواءً في الآيات القرآنية أو الروايات ما يشير إلى ذلك صراحة ، بل ورد ما هو أكثر من ذلك فقد صورت الآيات هذه الدنيا صورة قذرة مثل قوله ـ تعالى ـ : ﴿وما الحياة الدنيا إلّا متاع

الغرور﴾[٥] ، ومعنىٰ ذلك أن الحياة الدنيا متاع أي بلغة يتبلغ به لا بقاء له ، وفي ذلك أروع تصوير للدنيا في عدم ثبوتها وبقائها على حال ، لأنها متقلبة من حال إلى حال ، وفي ذلك برهان كاف على سبب إعراض العقلاء والمؤمنين عنها وجعلها وسيلة يتوصلون بها إلى المقصد الأسمىٰ وهو الفوز برضوان الله في الدار الآخرة .

(٥) سورة آل عمران ، آية : ١٨٥ ، وسورة الحديد ، آية : ٢٠ .

قال عليه السلام :

[سُبْحانَكَ لا إلهَ إلاّ أَنْتَ ، تُجيبُ دَعْوَةَ الْمُضطَّرِّ إذا دَعاكَ ، وَتَكْشِفُ السُّوءَ ، وَتُغيثُ الْمَكْرُوبَ ، وَتَشْفِي السَّقيمَ ، وَتُغْنِي الْفَقيرَ ، وَتَجْبُرُ الْكَسيرَ ، وَتَرْحَمُ الصَّغيرَ ، وَتُعينُ الْكَبيرَ ، وَلَيْسَ دُونَكَ ظَهيرٌ ، وَلا فَوْقَكَ قَديرٌ ، وَأَنْتَ الْعَلِيُّ الْكَبيرُ ، يا مُطْلِقَ الْمُكَبَّلِ الأَسيرِ ، يا رازِقَ الطِّفْلِ الصَّغيرِ ، يا عِصْمَةَ الْخائِفِ الْمُسْتَجيرِ ، يا مَنْ لا شَريكَ لَهُ وَلا وَزير] .

اللُّغَة

المضطر : الإضطرار الإحتياج إلى الشيء ، وقد اضطره إليه أمر ، والإسم الضرة . قال دريد بن الصمة :

وتخرج منه ضرة القوم مصدماً　　وطول السرى دري عضب مهند

ورجل ذو ضارورة وضرورة أي ذو حاجة ، وقد اضطر إلى الشيء أي ألجئ إليه ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿**فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم**

عليه﴾[1] ، وقوله ـ تعالى ـ : **﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله لغفور رحيم﴾**[2] .

تغيث : الغيث المطر والكلأ ، وقيل : الأصل المطر ، وغاث الغيث الأرض أصابها . ويقال : غاثهم الله وأصابهم غيث ، وغاث الله البلاد يغيثها غيثاً إذا أنزل بها الغيث ، ومن الإغاثة بمعنىٰ الإعاذة ، والجمع أغياث وغيوث ، قال المخبل السعدي :

لها لجب حول الحياض كأنه ... تجاوب أغياث لهن هزيم

ومنه قوله ـ تعالى ـ : **﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته﴾**[3] .

المكروب : الكرب بوزن الضرب ، الحزن والغم الذي يأخذ بالنفس وجمعه كروب ، وكربه الأمر والغم يكربه كرباً اشتد عليه فهو مكروب وكريب ، والإسم الكربة ، وكل شيء دنا فقد كرب ؛ ولهذا تستعمل من جملة أفعال المقاربة . وكربت الشمس للمغيب دنت ، وكربت الجارية أوشكت أن تدرك ، وكرب النخل أصول السعف واحدتها كربه .

السقيم : السقام والسقم بالضم والسكون والسقم بالكسر والفتح : المرض مثل حزن وحزن بالضم والسكون ثم بفتحتين قال سيبويه : والجمع سقام جاؤوا ، وأسقمه الداء فهو سقيم . وقال إبراهيم ـ عليه

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٧٣ .

(٢) سورة المائدة ، آية : ٣ .

(٣) سورة الشورىٰ، آية : ٢٨ .

السلام ـ في ما قصه الله في كتابه : ﴿إني سقيم﴾[٤] .

تجبر : جبرت العظم جبراً ، وجبر العظم بنفسه جبوراً أي انجبر ، ويقال جبر الله فلاناً فاجتبر أي سدّ مفاقره ، قال عمرو ابن كلثوم :

من عـال منّا بعـدهـا فـلا اجتبـر ولا سقىٰ المـاء ولا راء الشـجـر

وأجبرني أي أغناني ، من جبر الله مصيبته أي ردّ عليه ما ذهب منه أو عوضه عنه ، وأصله من جبر الكسر . والجبائر العيدان التي تشـدها على العظم لتجبره بها على استواء ، واحدتها جبـارة وجبيرة ، والمجبـر الذي يجبر العظام المكسورة .

ظهير : الظهير العون ، الـواحد والجمـع في ذلك سـواء وإنما لم يجمع ظهير لأن فعيلاً وفعولاً قد يستوي فيهما المذكر والمؤنث والجمع قال ـ تعالى ـ : ﴿وكان الكافر على ربّه ظهيراً﴾[٥] ، يعني بـالكافـر الجنس ولذلك أفرد وفيه أيضاً : ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾[٦] وهـذا ما حكـاه سيبويه من قولهم للجماعة: هم صديق وهم فريق، والظهير المعين. وقال الفراء في الآية يريد أعواناً فقال : ظهير ولم يقل : ظهراء ومن هذا الباب قوله ـ تعالى ـ: ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾[٧] .

المكبل : الكبل قيد ضخم ، ويقال : كبلت الأسيـر (بالتخفيف) وكبلته (بالتشديد) إذا قيدته ، فهو مكبول ومكبل . والمكبول المحبوس ، قال الشاعر :

---

(٤) سورة الصافات ، آية : ٢٩ .
(٥) سورة القيامة ، آية : ١١ .
(٦) سورة التحريم ، آية : ٤ .
(٧) سورة النساء ، آية : ٦٩ .

إذا كنت في دار يهينك أهلها ولم تك مكبولاً بها فتحول

والمكابلة تأخير الدين ، والمكابلة أيضاً أن تباع الدار إلى جنب دارك وأنت تريدها ومحتاج إلى شرائها ، فتؤخر ذلك حتى يستوحيها المشتري ، حتىٰ تأخذها بالشفعة .

وزير : الوزر الملجأ ، وأصل الوزر الجبل المنيع ، وكل معقل وزر . وفي التنزيل العزيز : ﴿**كلّا لا وزر**﴾[8] . قال أبو إسحاق : الوزر في كلام العرب الجبل الذي يلتجأ إليه ، ومعنىٰ الآية : لا شيء يعتصم فيه من أمر الله . والوزر الحمل الثقيل . والوزر الذنب لثقله قال ـ تعالى ـ : ﴿**وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون**﴾[9] . وأوزار الحرب الأثقال والآلات والسلاح قال الأعشىٰ :

وأعددت للحرب أوزارها رماحاً طوالاً وخيلاً ذكوراً

وجاء في الكتاب العزيز : ﴿**حتىٰ تضع الحرب أوزارها**﴾[10] .

والوزير حبأ الملك الذي يحمل ثقله ، ويعينه برأيه . ووازره على الأمر أعانه وقوّاه ، وقيل لوزير السلطان ذلك لأنه يزر عن السلطان أثقال ما أسند إليه من تدبير المملكة . وقال الجوهري الوزير المؤازر لأنه يحمل عنه وزره أي ثقله .

البيان

في هذه الفقرة تنزيه للخالق عن كل ما لا يليق به ـ تعالى ـ وقوله

---

(٨) سورة القيامة ، آية : ١١ .

(٩) سورة الأنعام ، آية : ٣١ .

(١٠) سورة محمد ، آية : ٤ .

ـ عليه السلام ـ : (سبحانك) تنزيه له عن كل صفة لا تليق به ، ثم أردف بعد ذلك بتنزيهه ـ سبحانه ـ عن الشركاء وتخصيصه بالألوهية دون غيره ، وهذه الكلمة هي أفضل ما يقوله العبد لمولاه ، وهي أفضل صفة يحبها الله ـ سبحانه ـ . والعبارة بمجموعها تنزيه للصفات والذات في آن واحد . أما تنزيه الصفات فهو نفي كل صفة لا تلتئم مع عز جلاله وكماله . وأما تنزيه الذات فهو نفي الشريك عنها . وقد مرّ كثير من هذا المعنىٰ ـ في ما سبق من أبحاث الكتاب ـ في بحث الصفات والتوحيد بشكل مسهب .

الإخلاص في الدعاء

ثم أنظر إلى هذا الأسلوب العجيب في سؤاله ـ عليه السلام ـ في قوله : (تجيب دعوة المضطر إذا دعاك وتكشف السوء) فهو في مقام السؤال والتضرع والخشوع ، وهو أحد المضطرين إلى الله ـ سبحانه ـ في كشف السوء لأنه واحد من العباد ، فهو لم يأت بحسب منطقيته وعقلانيته بالسؤال عما يحتاج إليه صراحة ، ولكنه عرّض تعريضاً بالسؤال ، وفي ذلك أعظم وأعلىٰ مراتب الثقة بالله .

فهو ـ عليه السلام ـ كأنه يقول من صفاتك يا إلٰهي أنك (تجيب دعوة المضطر) وأنا مضطر لهذا السؤال في هذا اليوم ؛ لأني لما أنزلت إلي من خير فقير ، وإنه (إذا دعاك) المضطر إلى رحمتك فإنك تجيبه ، لأنك قلت وقولك الحق : ﴿**أدعوني أستجب لكم**﴾[11] ، وتكشف السوء عن السائل الذي تضرع إليك وكله فاقة واضطراب .

وقد جاء في تفسير هذه الآية التي أشار إليها في العبارة ، وهي قوله ـ تعالى ـ : ﴿**أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم**

---

(١١) سورة غافر ، آية : ٦٠ .

خلفاء الأرض . . .﴾[١٢] الآية ان المراد بإجابة المضطر إذا دعاه هو استجابة دعاء الداعين وقضاء حوائجهم . وانما أخذ وصف الإضطرار ليتحقق بذلك من الداعي حقيقة الدعاء والمسألة ، إذ ما لم يقع الإنسان في مضيقة الإضطرار ، وكان في مندوحة من المطلوب لم تتمحض منه الطلب .

فإذا صدق في الدعاء وكان مدعوّه ربّه وحده فإنه ـ تعالى ـ يجيبه ويكشف السوء الذي اضطره إلى نفسه كما قال ـ تعالى ـ : **﴿أدعوني أستجب لكم﴾** ، فلم يشترط للإجابة إلاّ أن يكون هناك دعاء حقيقة ، وأن يكون ذلك الدعاء متعلقاً به وحده .

على أن هناك آيات كثيرة تدل على أن الإنسان يتوجه عند الإضطرار ، أو الخوف كركوب السفينة نحو ربّه ، فيدعوه بالإخلاص فيستجاب له كقوله ـ تعالى ـ : **﴿وإذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً . . .﴾**[١٣] الآية . ويتضح هذا المعنىٰ مزيد اتضاح لو حمل الدعاء والمسألة في قوله : **﴿إذا دعاه﴾** على الأعم من الدعاء اللساني ، إذ يكون على هذا أن جميع ما أوتي الإنسان ورزقه من التصرفات من مصاديق كشف السوء عن المضطر المحتاج إثر دعائه . قاله في الميزان .

ويظهر مما تقدم أن الإنسان يحتاج إلى الدعاء في كل وقت ، ولكنه يكون مخلصاً في دعائه إذا كان مضطراً ، والإخلاص من شروط الإجابة ؛ ولذلك عدل ـ عليه السلام ـ عن قوله : **﴿الداعي﴾** إلى قوله : **﴿المضطر﴾** جرياً مع لفظ الآية الشريفة الآنفة الذكر ، وتوخياً للإجابة ؛

---

(١٢) سورة النمل ، آية : ٦٢ .

(١٣) سورة يونس ، آية : ١٢ .

لأن الله قد وعد من يدعوه بالإجابة إذا كان قد محض الإخلاص في الدعاء والمسألة ، ورأىٰ الإلحاح من العبد بدافع الحاجة والإضطرار ، فإنه قد حبب ذلك لنفسه وكرهه لعباده .

وبنظرة أخرىٰ لما ورد في تفسير هذه الآية في ما ورد عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ نقول : نقلْ السيد هاشم البحراني في تفسيره البرهان عن أمالي المفيد ـ رحمه الله ـ قال : حدثنا أبو بكر محمد بن عمر الجعابي ، قال : حدثنا أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد ، قال : حدثنا جعفر بن محمد بن مروان ، قال : حدثني أبي ، قال : حدثنا إبراهيم بن الحكم ، عن المسعودي قال : حدثنا الحارث بن حصين ، عن عمران بن الحصين ، قال : كنت أنا وعمر بن الخطاب جالسين ، عند النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ وعلي ـ عليه السلام ـ جالس إلى جنبه إذ قرأ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ : ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون﴾ قال : قال فانتفض علي ـ عليه السلام ـ إنتفاضة العصفور فقال له النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ ما شأنك تجزع ؟ فقال : ما لي ما أجزع والله يقول يجعلنا خلفاء الأرض ثم قال له النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ : لا تجزع فوالله لا يحبك إلاّ مؤمن ، ولا يبغضك إلاّ منافق(١٤) .

وفيه أيضاً عن محمد بن إبراهيم النعماني قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن سعيد قال : حدثني محمد بن علي التيملي ، عن محمد بن إسماعيل بن بزيع ، قال : حدثني غير واحد ، عن منصور بن يونس بزرج ، عن إسماعيل بن جابر ، عن أبي جعفر محمد بن علي ـ عليه السلام ـ ، أنه قال : يكون لصاحب هذا الأمر غيبة في بعض هذه الشعاب

---

(١٤) تفسير البرهان : ج٣ ص٢٠٧ .

وأومىٰ بيده إلى ناحية ذي طوىٰ حتىٰ إذا كان قبل خروجه انتهىٰ للمولىٰ الذي معه حتىٰ يلقىٰ بعض أصحابه ، فيقول كم أنتم ها هنا ؟ فيقولون نحواً من أربعين رجلًا ؛ فيقول : كيف أنتم إذا رأيتم صاحبكم ؟ فيقولون والله لو نأوىٰ لنا وبناها ، ثم يأتيهم من القابلة فيقول : أشير إلى رؤسائكم أو خياركم عشرة فيشيرون له إليهم فينطلق بهم حتىٰ يلقوا صاحبهم ويعدهم الليلة التي تليها ، ثم قال أبو جعفر ـ عليه السلام ـ والله لكأني أنظر إليه وقد أسند ظهره إلى الحجر فينشد الله حقه ، ثم يقول : يا أيها الناس من يحاجني في الله فأنا أولىٰ الناس بالله ، أيها الناس من يحاجني في آدم فأنىٰ أولى الناس بآدم ، أيها الناس من يحاجني في نوح فأنا أولىٰ الناس بنوح ، أيها الناس من يحاجني في إبراهيم فأنا أولىٰ الناس بإبراهيم ، أيها الناس من يحاجني في موسىٰ فأنا أولىٰ الناس بموسىٰ ، أيها الناس من يحاجني بعيسىٰ فأنا أولىٰ الناس بعيسىٰ ، أيها الناس من يحاجني بمحمد فأنا أولىٰ الناس بمحمد ، أيها الناس من يحاجني بكتاب الله فأنا أولى الناس بكتاب الله ، ثم ينتهي إلى المقام فيصلي عنده ركعتين وننشد الله حقه ثم قال أبو جعفر ـ عليه السلام ـ : وهو والله (المضطر) الذي يقول : **﴿أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض﴾** وفيه نزلت(٥) .

أما إغاثة المكروب في قوله : **﴿وتغيث المكروب﴾** فإنه أخص من الإجابة ، لأن المكروب أخص من الداعي والمضطر .

وهذا بحسب ما تمليه الظروف من أزمات تعتري الإنسان من الداخل والخارج ، إلاّ أن المكروب وهو بحسب ما ورد في بحث اللغة هو

---

(١٥) سورة النمل ، آية : ٦٢ .

الذي اشتد به البلاء ، وهذا ما يفسره قوله ـ تعالى ـ : ﴿**وإن يستغيثوا يغاثوا بماءٍ كالمهل يشوي الوجوه**﴾[١٦] فإنهم يستغيثون على ما بهم من شدة الحرارة والكرب الذي حلّ بهم فيغاثون بماءٍ كالمهل . قيل : هو خثارة الزيت ، وقيل: هو النحاس الذائب ، ولا يظلم ربّك أحداً .

ثم يواصل ـ عليه السلام ـ بهذا الأسلوب من المسألة كلامه فيقول : (وتشفي السقيم) ولم يقل : أللهم اشفني ، فإنه كما قلنا : تعريض بالمسألة وفي ذلك أروع بيان ، في أعظم تضرع . فشفاء السقم من الله ـ تبارك وتعالى ـ ، ولكن السقم ليس منه بل من أسباب تعود للإنسان نفسه أو غيره ؛ لأن المرض أو السقم هو ضرر ، وإن الله ـ سبحانه ـ هو دافع الضر والبلوىٰ عن العبد ، وإلى هذا أشار قوله ـ تعالى ـ : ﴿**وإذا مرضت فهو يشفين**﴾[١٧] فقد نسب إبراهيم ـ عليه السلام ـ المرض إلى نفسه ونسب الشفاء إلى الله لأنه رؤوف بعباده . وفي العبارة أنه ـ عليه السلام ـ نسب الشفاء في السقم إلى الله ـ تعالى ـ في دعاء بأسلوب خبري ، ومعنىٰ ذلك أنه يطلب من الله الشفاء من السقم بهذه الصيغة . ومثله قوله ـ تعالى ـ : ﴿**فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم**﴾[١٨] .

وإذا تأملنا بنظرة فاحصة ما ورد عن أهل البيت الطاهر ـ عليهم السلام ـ في شأن المرض والصحة نجد أن لكل من هاتين الحالتين ردود بين السلب والإيجاب ونحن ننقل هنا قليلاً مما يروىٰ عنهم ـ عليهم السلام ـ فنقول :

---

(١٦) سورة الكهف ، آية : ٢٩ .

(١٧) سورة الشعراء ، آية : .

(١٨) سورة الصافات ، آية : ٨٨ ، ١٩ .

في معاني الأخبار عن محمد بن أحمد بن أحمد بن تميم عن أبيه عن سعد ، عن أحمد بن أبي عبدالله ، عن محمد بن علي ، عن حارث بن الحسن الطحان ، عن إبراهيم بن عبدالله ، عن فضيل بن يسار ، عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ قال : لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتىٰ يكون فيه ثلاث خصال : حتىٰ يكون الموت أحب إليه من الحياة ، والفقر أحب إليه من الغنىٰ ، والمرض أحب إليه من الصحة ، قلنا : ومن يكون كذا ؟ قال : كلكم ، ثم قال : أيما أحب إلى أحدكم يموت في حبنا أو يعيش في بغضنا ؟ فقلت : نموت والله في حبكم أحب إلينا ، قال : وكذلك الفقر والغنىٰ ، والمرض والصحة ، قلت : أي والله[19] .

وفي أمالي الصدوق عن أحمد بن يحيىٰ المكتّب ، عن أحمد بن محمد الوراق ، عن بشر بن سعيد بن قولويه ، عن عبد الجبار بن كثير قال : سمعت محمد بن حر الهلالي أمير المدينة يقول : سمعت الصادق جعفر بن محمد ـ عليه السلام ـ يقول : العافية نعمة خفية إذا وجدت نسيت ، وإذا فقدت ذكرت[20] .

وفي نهج البلاغة قال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : ألا وإن من البلاء الفاقة وأشد من الفاقة مرض البدن ، وأشد من مرض البدن مرض القلب ، ألا وإن من النعم سعة المال ، وأفضل من سعة المال صحة البدن ، وأفضل من صحة البدن تقوي القلب[21] .

وفي دعائم الإسلام عن الصادق عن آبائه أن رسول الله ـ صلى الله

---

(١٩) معاني الأخبار : ص٢٣٠ .
(٢٠) أمالي الصدوق : ص١٣٨ .
(٢١) نهج البلاغة ، رقم ٣٨٨ من قسم الحكم .

عليه وآله ـ عاد رجلاً من الأنصار فشكىٰ إليه ما يلقىٰ من الحمىٰ ، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وآلـه ـ : إن الحمىٰ طهور ، من ربّ غفـور ، قال الرجل بل الحمىٰ يفور بالشيخ الكبير حتىٰ تحله في القبور ، فغضب رسـول الله ـ صلى الله عليه وآلـه ـ فقـال : ليكن بـك مـا قلت ، فمـات منه[22] .

وقال النبي ـ صلى الله عليه وآلـه ـ : الحسنة في الـدنيا الصحـة ، والعافية في الآخرة المغفرة والرحمة ، وقال النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ إن الله يبغض العفرية النفرية الذي لم يرزأ في جسمه ولا ماله .

وقال : إن الرجل ليكون له الدرجـة عند الله لا يبلغهـا بعمله يبتلىٰ ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك[23] .

والحاصل أنه لما كانت السلامة غالباً تصير سبباً للتوغل في الشرور والمعاصي بين ـ عليه السلام ـ أن مثل تلك السلامة عين الإبتلاء ، ويؤيده قوله ـ عليه السلام ـ : (كفىٰ بالسلامة داءً) أي تصير غـالباً سببـاً للأدواء النفسـانية ، والأمـراض الروحـانية ، أو المعنىٰ أن السـلامة عن معـارضة الناس والمسالمة معهم إنما تجوز إذا كانت مع الإنقياد للحق وموافقة رضا الله .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (وتغني الفقير) فهو كسابقه في الطلب ، وهو بمعنىٰ المسألة في الغنىٰ ، ومعنىٰ ذلك أن الغنىٰ من الله ـ سبحانه ـ ؛ لأنه بهذا الاسلوب يريد منه الغنىٰ .

---

(٢٢) دعائم الإسلام : ج١ ص٢١٧ .

(٢٣) دعوات الراوندي .

أمـا الفقر فـإن أسبابـه تعود إلى الإنسـان بفعل أنـانيتـه واستحـواذه واستقلاله بما يكون لغيره من المال والمتاع ، وعلى هذا يكون الغنىٰ من الله ـ سبحانه ـ دون شك ، وإن الفقر بعد هذه العوامل المذكورة يكون من الإنسان ؛ فهو الذي يجلب لنفسه سوء الحال .

أما جبر الكسير في قوله ـ عليه السلام ـ : (وتجبر الكسير) فإنه كما ورد في بحث اللغة مأخوذ من كسر العظم . ومعنى ذلك أن الإنسان ربما يحصل له انكسار لسبب أو لآخر وفي حالة أو أخرىٰ لا يجد فيها معيناً إلاّ الله ـ سبحانه وتعـالى ـ ، بمعنى أنه لا يستـطيع أحـد من العباد أن يغيث الإنسان ، فإنه ـ سبحانه ـ نعم العون للعبد على ما يلاقيه من المتاعب التي لا تعدّ ولا تحصى يقف أمامها حائراً .

فجبر الكسير يعني إغاثته بعـد اليأس ؛ لأن الكسـر لا حيلة فيه ولا يمكن جبره والحال هذه إلاّ بعد عناء وتعب ، فربما يصلح هذا الجبران من العظم وربما لا يصلح ، ولكن الله على كل حال يصلحه ويجبره حتماً .

الرحمة الخاصة والعامة

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (وترحم الصغير) فالرحمة للصغير أولىٰ منها للكبير ، لأن الصغير أضعف ، فهو أكثر حاجة إلى الرحمة والحنان من غيره ؛ ولأن الرحمة لا تكون إلاّ من القوي للضعيف ، ومن الكبير للصغير ، وعلى هذا يمكن ورود النقاط التالية ضمن هذا المعنىٰ .

١ ـ أنه ـ سبحانه وتعالى ـ كبير متعال ، والكبير والمتكبر من صفاته الثابتة . قال ـ تعالى ـ : ﴿**عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال**﴾[(٢٤)] ، وقال ـ تعالى ـ : ﴿**قالوا ماذا قال ربّكم قالوا الحق وهو العلي الكبير**﴾[(٢٥)] وكثير غيرها الآيات التي تثبت له هذه الصفة . قال المفسرون في الآية الأولى في معنىٰ قوله ـ تعالى ـ ﴿**الكبير المتعال**﴾ هما إسمان من أسمائه الحسنىٰ ، والكبر يقابله الصغر من المعاني المتضايفة ، فإن الأجسام إذا قيس بعضها إلى بعض من حيث حجمها المتفاوت فما احتوى على مثل حجم الآخر وزيادة كان كبيراً ، وما لم يكن كذلك كان صغيراً ، ثم توسعوا فاعتبروا ذلك في غير الأجسام ، والذي يناسب ساحة قدسه ـ تعالى ـ من

---

(٢٤) سورة الرعد ، آية : ٩ .

(٢٥) سورة سبأ ، آية : ٢٣ .

معنىٰ الكبرياء أنه ـ تعالى ـ يملك كل كمال لشيء ، ويحيط به . فهو ـ تعالى ـ كبير ، أي له كمال كل ذي كمال وزيادة .

وفي تفسير الآية الثانية أن معنىٰ : ﴿العلي الكبير﴾ أي هو العلي الذي دونه كل شيء ، والكبير الذي يصير عنده كل شيء . فليس للملائكة المكرمين إلّا تلقي قوله الحق وامتثاله وطاعته كما يريد . قاله في الميزان .

٢ ـ أن المقصود بالصغير بحسب السياق في العبارة هو الذي لا يستطيع أن يقوم بعمل ما أو بأي محاولة في سبيل نفع نفسه ولذلك يعد عمله صفراً ، وذلك لضعفه العقلي والجسماني . فالرحمة يعني إنتشاله من البداية في محاولة لتعويضه بما لا يستطيع الإتيان به .

أما الكبير فإنه ربما يكون له عمل بمحاولة النجاة من أي شيء ، ولكن هذا العمل الذي يأتي به الكبير ربما لا يكفي لتحقيق النجاة أو أي غرض آخر فيحتاج إلى إعانة ـ ومساعدة . وهذا ما أشارت إليه العبارة في قوله ـ عليه السلام ـ :

(وتعين الكبير) . وهذه الإعانة التي يطلبها من ربّه في خطابه هذا هي إضافة إلى ما عمله من أعمال الخير ، فإن رحمة الصغير تعني مراعاته ومداراته ، وأما إعانة الكبير فهو إضافة شيء إلى عمل كان قد عمله ، فإنه ـ عليه السلام ـ لو أنكر عملاً عمله وطلب الرحمة من البداية كما قلنا في تفسيرها لكان في ذلك كفران للنعمة ، إذ أن الله ـ سبحانه ـ هو الذي يوفق العبد ويأخذ بيده لفعل الخير .

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (وليس دونك ظهير) والظهير هو الذي يعتمد عليه في كثير من الأمور المهمة ، وهذه العبارة وما تقدمها من العبارات التي سبق تفسيرها كلها تنسجم في معنىً واحد ، وهو أن الإنسان

ينبغي أن يعتمد في كل أموره على الله ـ سبحانه ـ في ثقة تامة ، وحالة إطمئنان . فحياة الإنسان محفوفة بالمخاطر التي تعتريه بين وقت وآخر ، وفي مكان آخر ، وفي حال وأخرىٰ . وهذه كلها لا يستطيع الإنسان أن يلم بها ، ولكن الله برعايته المستمرة للإنسان ، وبما أنه لم يكله إلى نفسه طرفة عين قادر على أن يخلصه من كل هذه المخاطر . فثقة الإنسان بربّه ثقة في محلها ، واعتماده عليه إعتماد في محله ، وتوكله عليه توكل في محله .

وربما ألمحت الآية الكريمة : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[٢٦] إلى هذا المعنىٰ . قال الطوسي في التبيان وجهاً من ثلاثة في تفسير هذه الآية كان السيد المرتضىٰ علي بن الحسين الموسوي ـ رحمه الله ـ جارانا فيه فاتفق بالخاطر وجه قلته فاستحسنه واستجاده ، وهو أن لا تكون الكاف زائدة ويكون المعنىٰ أنه نفىٰ أن يكون لمثله مثل ، وإذا ثبت أنه لا مثل لمثله فلا مثل له أيضاً ؛ لأنه لو كان له مثل لكان له أمثال ؛ لأن الموجودات على ضربين :

أحدهما : لا مثل له ، كالقدرة فلا أمثال لها أيضاً .

والثاني : له مثل : كالسواد والبياض وأكثر الأجناس فله أمثال أيضاً ، وليس في الموجودات ما له مثل واحد فحسب ، فعلم بذلك أن المراد : أنه لا مثل له أصلاً من حيث لا مثل له .

---

(٢٦) سورة الشورىٰ ، آية : ١١ .

القدرة وعواملها

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (ولا فوقك قدير) وقد عبّر بالفوقية للقدرة لأنها ملازمة لها ، وهذا ما سوف يوافينا بعد قليل في الحديث عن العبارة التالية .

أما الحديث عن القدرة فهو حديث ذو شعب ؛ لأن القدرة إما أن تكون جسمية ، وإما أن تكون عقلية والحديث عن هاتين الناحتين هو الحديث عن الإنسان من حيث قدراته وملكاته وصفاته . أما عن القدرة الإلهية التي يعنيها النص فهي تختلف من حيث الحديث عنها عن الحديث عن قدرة الإنسان من الجذور .

فعوامل القدرة عند الإنسان هي الأعضاء الجسمية ، ولا يمكن أن نتصور ذلك بغيرها عنده ، وكذلك القدرة العقلية مرتبطة بأعضاء الجسم إرتباطاً وثيقاً ولا يمكن لأي حال من الأحوال أن نفرز هذه القدرة عن تلك الأعضاء .

فالقدرة على البطش باليد ، والقدرة على النظر بالعين ، والقدرة على السمع بالأذن ، وهذه الأعضاء العاملة لا يمكنها أن تعمل بإرادة الإنسان ما لم يكن هناك عقل مدبر وتفكير مسيّر لها ، وهذه قوة فاعلة جبارة

غير مرئية ، وكلما تعددت وتشعبت قدرات الإنسان فإن مصدرها عضو من أعضائه مستقر في جسمه ، وينطبق هذا على سائر الكائنات التي خلقها ـ سبحانه ـ من أنس وجن وغيرهما من الأجناس الحيوانية ؛ ولذلك فإن تلك القدرات محدودة مهما بلغت من القوة لأن قدرة الإنسان وبقية الأجناس الحيوانية محدودة مهما تعاظمت ، وهذا يدل بذاته على افتقار الإنسان وغيره من الموجودات إلى مدد وعون من الله في قدرته وقوته ، وهذا بدوره يدل على الإفتقار والحاجة ، وهذا أيضاً على كونه ممكناً بالإمكان الخاص .

أما القدرة الإلٰهية فهي تختلف عمّا نحن فيه إختلافاً كبيراً . فإن لسان العالم وإلباسه الوجود بعد العدم ينادي بثبوت القدرة على الوجه الأتم لصانع هذه الأشياء ، والملبس لها بعد الإمكان الوجود الفعلي . ولهم في تعريف القدرة خلاف لا يرجىٰ زواله . ونحن نختار منها ما أثبتته أخبار أئمتنا ـ عليهم السلام ـ وهذه التعاريف ليست حقيقية بل تقريبية للأفهام ، وللفرق بينها وبين قدرة الأنام ، وإلاّ فقدرته عين ذاته ، فلا تصل إليها الفطن والأفهام ، وقد عرفها الأكثر من الفريقين بمعنىٰ : إنه إن شاء فعل ، وإن شاء ترك ، أي يصح كل من الفعل والترك بحسب الدواعي والمصالح المختلفة خلافاً للفلاسفة ، فقد نفوا القدرة عنه لهذا المعنى ، وأثبتوها له بمعنىً آخر ، بمعنىٰ أنه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، أي وإن وجدت مع ذلك الدواعي والمصالح المختلفة .

وقد أطال علماء الكلام في هذه الصفة الذاتية له ـ سبحانه ـ بين نقض وابرام آثرنا أن نطوي ذلك خوف الإطالة .

وبالجملة فحدوث العالم والقدرة الشاملة لجميع العالم لإجتماع

كثير من الأدلة الضرورية لا يحتاج إلى استدلال بالبرهان ، فهي وإن كانت إقناعية إلّا أن النفس تركن إليها ، وتطمئن بها ، والمعهود بها من أئمة الهدىٰ ـ عليهم السلام ـ في هذا المطلب وغيره الإكتفاء بالإقناعيات .

ولهذا قال نصير الملّة والدين في تجريدة : ووجود العالم بعد عدمه ينفي الإيجاب ، والواسطة غير معقولة .

وفي حديث هشام عن أبي عبدالله ـ عليه السلام ـ في ما كان من سؤال الزنديق له إذ قال : فما الدليل عليه ـ يعني على وجود الصانع للعالم ، أو المحدث له ؟ فقال أبو عبدالله ـ عليه السلام ـ : وجود الأفاعيل دلت على أن لها صانعاً صنعها ، ألا ترىٰ أنك إذا نظرت إلى بناء مشيّد علمت أن له بانياً ، وإن كنت لم تر الباني ولم تشاهده ؟ قال : فما هو ؟ قال : شيء ، فأدفع بقولي شيء بخلاف الأشياء إلى إثبات معنىٰ ، فإنه شيء بحقيقة المشيئة ، غير أنه لا جسم ولا صورة ولا يحس ولا يجس ولا يدرك بالحواس الخمس ، لا تدركه الأوهام ولا تنقصه الدهور ، ولا تغيره الأزمان .

وهذا القدر من الإستدلال كاف في معرفة أنه ـ تعالى ـ قادر . واحتجاج الخصم بأنه لو كان قادراً ، وأثره حادث لزم التعطيل ، واستغناء الممكن عن المؤثر ، فينسد باب إثبات الصانع . والتسلسل في المرجحات مع إستكماله بالمرجح نجيب عنه بأنه : لا وقت له قبل زمان حدوث العالم إلّا موهوماً ، فلا يحتاج إلى مرجح ، وبأنه يجوز ترجيح المختار بإرادته أحد مقدوريه من غير داع ، وإن لم يجز ترجيح أحدهما من غير فعل مرجح فهو بديهي ، ورغيفا الجوعان ، وقدحا العطشان ، وطريقا الهارب شواهد صدق على ذلك ، والنقض عليهم بالحادث اليومي إذ يلزمهم قدمه .

ومذهب أكثر الإمامية والأشاعرة عموم قدرته ـ تعالى ـ على جميع الممكنات ، والإستدلال عليه عقلاً بأن المقتضي للقدرة أو آثارها هو ذاته ـ تعالى ـ ، والمصحح للمقدورية هو الإمكان ، ونسبته إلى جميع الممكنات على السواء ، وهو مبني على أن المعدوم نفي محض ، وأنه لا مادة له ولا صورة ، فلا يتصور إختلاف في نسبة الذات إلى المعدومات ، ولاختصاص بعضها بالمقدورية .

وقد خالف في ذلك جماعة كثيرة .

فقال الديسانية : إن الكواكب بحركاتها مؤثرات في الحوادث السفلية ، والتغيرات الواقعة في جوف فلك القمر من اختلاف الفصول الأربعة ، وتأثير الطوالع في المواليد .

والثنوية قالوا : بأنه ـ تعالى ـ لا يقدر على الشر ؛ لأنّ الواحد لا يكون خيراً وشرّاً . والنظام ذهب إلى أنه ـ تعالى ـ لا يقدر على القبيح ، كما نقله عنه في المواقف .

والبلخي قال : إنه لا يقدر على مثل فعل العبد .

والجبائية والسيد المرتضىٰ ، والشيخ الطوسي قالوا : إنه ـ تعالى ـ لا يقدر على فعل غير العبد ، لأن الدوران لا يفيد العلّية ، والخير والشر لا يكونان لذاتيهما خيراً وشراً بل بالإضافة إلى غيرهما ، فإنه لا قبح في أفعاله .

وهو كلام كما تراه في حاجة إلى تأمل ونقاش ؛ لأنه بعيد كل البعد ، غريب كل الغرابة أن يصدر من مثل هذين العلمين، ولكنا آثرنا الإختصار وعدم الخوض في هذا الموضوع ونطرح في هذا المجال ما أثر من كلام أهل البيت ـ عليهم السلام ـ فنقول :

ذكر في كتاب التوحيد قال : حدثنا محمد بن علي ماجيلويه ـ رحمه الله ـ عن عمه محمد بن أبي القاسم ، عن أحمد بن محمد بن خالد ، عن محمد بن علي الكوفي ، عن عبد الرحمٰن بن محمد بن أبي هاشم ، عن أحمد بن محسن الميثمي ، قال : كنت عند أبي منصور المتطبب ، فقال : أخبرني رجل من أصحابي قال : كنت أنا وابن أبي العوجاء وعبدالله بن المقفع في المسجد الحرام ، فقال ابن المقفع : ترون هذا الخلق ؟ وأومأ بيده إلى موضع الطواف ما منهم أحد أوجب له اسم الإنسانية إلاّ ذلك الشيخ الجالس ـ يعني جعفر بن محمد ـ عليه السلام ـ فأما الباقون فرعاع وبهائم ، فقال له ابن أبي العوجاء : وكيف أوجبت هذا الإسم لهذا الشيخ دون هؤلاء ؟ قال : لأني رأيت عنده ما لم أر عندهم ، فقال ابن أبي العوجاء : لا بدّ من اختبار ما قلت فيه منه ، فقال له ابن المقفع : لا تفعل ، فإني أخاف أن يفسد عليك ما في يدك ، فقال : ليس ذا رأيك ، ولكنك تخاف أن يضعف رأيك عندي في احلالك إياه المحل الذي وصفت ، فقال ابن المقفع : أما إذا توهمت على هذا فقم إليه ، وتحفظ ما استطعت من الزلل ، ولا تثن عنانك إلى استرسال يسلمك إلى عقال ، وسمه مالك أو عليك قال : فقام ابن أبي العوجاء ، وبقيت أنا وابن المقفع ، فرجع إلينا ، فقال : يا ابن المقفع ما هذا ببشر ، وإن كان في الدنيا روحاني يتجسد إذا شاء ظاهراً ويتروح إذا شاء باطناً فهو هذا ، فقال له : وكيف ذاك ؟ فقال : جلست إليه فلما لم يبق عنده غيري إبتدأني فقال : إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء ، وهو على ما يقولون يعني أهل الطواف فقد سلموا وعطبتم وان يكن الأمر على ما تقولون وليس كما تقولون فقد استويتم أنتم وهم ، فقلت له : يرحمك الله وأي شيء نقول وأي شيء يقولون ؟ وما قولي وقولهم إلاّ واحد ، قال : فكيف يكون قولك

وقولهم واحداً وهم يقولون : إن لهم معاداً وثواباً وعقاباً ويدينون بأن للسماء إلهاً وأنها عمران وأنتم تزعمون أن السماء خراب ليس فيها أحد .

قال : فاغتنمتها منه فقلت له : ما منعه إن كان الأمر كما تقول أن يظهر لخلقه ويدعوهم إلى عبادته حتى لا يختلف منهم إثنان ولم احتجب عنهم وأرسل إليهم الرسل ؟! ولو باشرهم بنفسه كان أقرب إلى الإيمان به ، فقال لي : ويلك وكيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك نشوءك ولم تكن ، وكبرك بعد صغرك وقوتك بعد ضعفك وضعفك بعد قوتك ، وسقمك بعد صحتك ، وصحتك بعد سقمك ، ورضاك بعد غضبك ، وغضبك بعد رضاك ، وحزنك بعد فرحك ، وفرحك بعد حزنك ، وحبك بعد بغضك ، وبغضك بعد حبك ، وعزمك بعد إبائك ، وإبائك بعد عزمك ، وشهوتك بعد كراهتك ، وكراهتك بعد شهوتك ، ورغبتك بعد رهبتك ، ورهبتك بعد رغبتك ، ورجاءك بعد يأسك ، ويأسك بعد رجائك ، وخاطرك بما لم يكن في وهمك ، وعزوب ما أنت معتقده عن ذهنك ، وما يزال يعدّ علي قدرته التي هي في نفسي التي لا أدفعها حتىٰ ظننت أنه سيظهر فيما بيني وبينه(٢٧) .

وفيه أيضاً قال : حدثنا علي بن أحمد بن محمد بن عمران الدقاق ـ رحمه الله ـ ، قال : حدثنا أبو القاسم العلوي ، عن محمد بن إسماعيل البرمكي ، قال : حدثنا الحسين بن الحسن قال : حدثنا محمد بن عيسىٰ ، عن محمد بن عرفة ، قال : قلت للرضا ـ عليه السلام ـ : خلق الله الأشياء بالقدرة أم بغير القدرة ؟ فقال : لا يجوز أن يكون خلق الأشياء بالقدرة ، لأنك إذا قلت : خلق الأشياء بالقدرة فكأنك قد جعلت القدرة

---

(٢٧) كتاب التوحيد للصدوق : ص١٢٥ .

شيئاً غيره ، وجعلتها آلة له بها خلق الأشياء ، وهذا شرك . وإذا قلت : خلق الأشياء بقدرة فإن ما تصفه أنه جعلها باقتدار عليها وقدرة ، ولكن ليس هو بضعيف ولا عاجز ولا محتاج إلى غيره[٢٨] .

وفيه أيضاً حدثنا حمزة بن محمد العلوي ـ رحمه الله ـ ، قال أخبرنا علي بن إبراهيم عن أبيه ، عن محمد بن أبي عمير ، عن عمر بن أذنية ، عن أبي عبدالله ـ عليه السلام ـ ، في قوله ـ عزّ وجلّ ـ : **﴿ما يكون من نجوىٰ ثلاثة إلّا هو رابعهم ولا خمسة إلّا وهو سادسهم ولا أدنىٰ من ذلك ولا أكثر إلّا وهو معهم أين ما كانوا﴾**[٢٩] . فقال : هو واحد ، أحدي الذات ، لائن من خلقه ، وبذلك وصف نفسه وهو بكل شيء محيط بالإشراف والإحاطة والقدرة لا يعزب عنه مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ، ولا أكبر بالإحاطة والعلم لا بالذات ؛ لأن الأماكن محدودة تحويها حدود أربعة ، فإذا كان بالذات لزمه الحواية[٣٠] .

وأنت إذا تأملت هذه الروايات وجدت أن الهدف منها إقناعي كما نطقت بذلك ألسنة أهل بيت العصمة ، وكما نوّهنا لذلك فيما سبق . وقد اعتبر الأئمة ـ عليهم السلام ـ أن هذه الحالة الإقناعية كافية في إثبات المطلوب إضافة إلى ما شهدت به الفطرة والبداهة ، وإنه مقر عموم القدرة على أبلغ وجه لمن تأمله ، وهذا أكثر أدلتهم ـ عليهم السلام ـ .

ثم وصل ـ عليه السلام ـ كلامه لبيان آخر ، وربط بينه وبين ما تقدم فقال : (وأنت العلي الكبير) ولقد ذكرنا في معنىٰ العبارة السابقة أن

---

(٢٨) كتاب التوحيد للصدوق : ص١٣٠ .

(٢٩) سورة المجادلة ، آية : ٧ .

(٣٠) كتاب التوحيد للصدوق : ص١٣١ .

الفوقية تقتضي العلو ، كما أن القدرة أيضاً تقتضي (الكبر) بسكون(الباء) ، فهو من جهة قد ربط ما بين القدرة والكبر ، ومن جهة أخرى ربط ما بين (فوقك) وبين (العلي) ومن ناحية ثالثة ربط ما بين (العلي) وبين (الكبير) .

فأنت إذا تأملت كلتا العبارتين أخذك العجب واعترتك الحيرة من كيفية وضع هذه الكلمات بهذا الأسلوب المحكم ، فكأنه البنيان المرصوص ، أو الجوهر المصفوف ، حتىٰ إن الكلمة من هاتين العبارتين لتأخذ بذيل الأخرىٰ ، بل تأخذ بعنقها ، وهذا ظاهر للعيان في العبارات وكلماتها لمن تأملها بفكر ثاقب ونظر واقب .

السجون وأغراضها

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (يا مطلق المكبل الأسير) والمكبل والمكبل هو المقيد بقيد ضخم يثقله عن الحركة ، أو هو قيد زائد عن اليدين والرجلين . والمقصود من هذا هو أن الإنسان بما يقترفه من ذنوب تخلق وجهه أمام خالقه لا يستطيع بهذه الحال أن يدعو الله في دعائه أو يسأله ، لأن الحواجز والحجب التي صنعتها هذه الذنوب الكبيرة والصغيرة تجعل الإنسان مكبلاً أسير ذنوبه بين يدي الله ، مشفقاً من عمله السيء ، لولا أن تداركه رحمة من ربّه فيتوب عليه ويتجاوز عن ذنوبه ، وبذلك يتحرر الإنسان من قيد الذنوب الذي إقترفها بعد أن كان مكبلاً أسيراً .

والحديث عن المكبل والأسير والسجين والسجون حديث طويل . فقد اقتضت حاجة الإنسان إلى تكملة مرافقة الحيوية ، ولكي يعيش عيشة مطمئنة وللضرب على أيدي العابثين ، وكبح جماح المجرمين أن يعمل دوراً للسجون لحصر الجريمة وعلاجها وإبعادها عن الميدان الإجتماعي ومن ثم معالجتها ومعالجة مقترفها لكي يكون الإنسان مؤمناً بعد أن كان فاسقاً ، ولكي يكون نافعاً بعد أن كان ضاراً غير أن سوء التصرف في هذه المرافق الحساسة جداً أبعدتها عن أهدافها الحقيقية التي ينبغي أن

تتحقق . فإن السجون وإن وضعت للتأديب ووضع العقاب وإيصاله إلى مستحقه إلاّ إن هذا لا ينبغي لنا أن نصور به السجون وكلها قسوة ، أو نعتبرها أمكنة للإنتقام وإظهار الأحقاد في التعذيب .

فإن المجرم والحال هذه يخرج بعد مدة سجنه وقد حصلت له ردة الفعل في الإنتقام بما هو أقسىٰ ، وبذلك تنعكس الفائدة وينقلب الحال .

على أن المجرم الذي يحصل له نوع من الإنزلاق لا ينبغي أن يعامل بالقسوة التي رسمتها السجون ، فإن هذا لا يسمىٰ علاجاً أو تأديباً ، ولكن في مثل هذا الوضع ينبغي أن يوجه ويحذر من الجريمة من يقترفها بواسطة موجهين ناصحين مؤمنين لكي يتسنىٰ لهذا المنزلق أن يعود مرة ثانية إلى أحضان الفضيلة والشرف . أما أن يعامل بتلك المعاملة الشديدة فهذا لا يقره عاقل ، ونحن إذ نقول بهذا لا نقر طرح العقاب عن المجرم ، فإنه أمر ضروري ، ولكنا نقول بأن ذلك لا يكفي وحده لعودة الإنسان إلى الطريق السوي .

ولقد ذكر في دائرة المعارف للقرن العشرين أن أحوال السجون تغيرت بعد الثورة الفرنسية ، واعتبر السجن درساً خلقياً يعطى للمحكوم عليه لا انتقاماً من الهيئة الحاكمة ، فنظر في إدخال نظام إلى السجون كافل لراحة المسجونين ، وروعيت معهم أصول الرحمة والإنسانية ، وعوملوا معاملة الآدميين ، فخفت وطأة الشكاوىٰ وما زال التحسين في حالها يتدرج حتىٰ صار السجن اليوم أحب إلى بعض المسجونين من بيوتهم .

وقد زادت العناية بهم فقررت الحكومات إحداث إصلاحيات للرجال والغلمان يتعلم فيها كلتا الطائفتين بعض الصنايع التي تنفعهم حين يخرجون من سجنهم ، فيصبح الرجل صانعاً بعد أن كان شريداً لا يحسن

عملاً ، ويضحي الغلام أهلاً لأن يندرج في هيئة العمال بدل أن تفسد أخلاقه بمخالطة السفلة الرعاع من أصحاب الجرائم .

وقد طالما كتب علماء الأخلاق والفلاسفة من وجوب إصلاح السجون مما ثبت أن عصور الظلمات الأولىٰ كانت لا تخلوا من رجال يشعرون بفظاعة القسوة وشناعة البهيمية ، ولكن كانت صيحاتهم تذهب أدراج الرياح ولا يعيرها أحد إهتماماً أو أذناً صاغية .

ولو رجعنا إلى الوراء لوجدنا أن السجن عند الأقدمين كان على أخشن ما يتصوره العقل ، فكان إما سراديب تحت الأرض أو قلعة حصينة ، أو مكاناً مخوفاً يهابه الرائي ، وتعافه النفس فكان يلقىٰ فيه المسجون إلقاءً بدون تمييز بين القاتل والمزور والخائن للوطن وغيره ممّن إقترف ذنباً لا يستحق عليه شيئاً سوىٰ المعاتبة[٣١] .

قال المؤلف إن الثورة الفرنسية التي قامت على المبادىء الثلاثة الحرية والإخاء والمساواة وكل ما ينطوي تحت هذه المبادىء من عمليات إصلاحية للفرد والجماعة ، قد سبق ذلك الإسلام الحنيف في طرحه لهذه المبادىء في ضوابط متوازنة تتمشىٰ مع الإنسان في مختلف البيئات والعصور .

فنجد أن الإمام أمير المؤمنين علياً ـ عليه السلام ـ قد أنشأ سجنين في الكوفة لغرض عزل المجرمين عن بقية أفراد المجتمع لئلّا تتفشىٰ الجريمة فيه ، ولكي يتسنىٰ للقائمين بالأمور أن يغيروا من نفس ذلك الإنسان المجرم من شر إلى خير .

---

(٣١) دائرة معارف القرن العشرين : ج٥ ص٥٠ وما بعدها بتصرف .

وهناك أمور أخرىٰ إمتاز بها الإسلام وسبق إليها جميع النظم المطروحة في هذه الأرض لا يسعنا التعرض إليها ولو بصورة إجمالية .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (يا رازق الطفل الصغير) فإن الطفل الصغير أولى بالعطف والحنان من الكبير ؛ لأنه ضعيف في كل شيء ، ضعيف في جسمه ، ضعيف في عقله ، ضعيف حركاته ، ضعيف في تدبير أموره . صحيح أن الله ـ تبارك وتعالى ـ قد بسط الرزق لمخلوقاته من الإنس والجن وسائر أجناس الحيوان والموجودات ، إلّا أن هناك من المخلوقات ما يختلف قوةً وضعفاً ، فبحسب طاقته يحصل رزقه ، ولكن الطفل الصغير ليس له طاقة ، وليس له تفكير ، وليست له تدبير ـ كما سبق الإشارة إليه ـ . فإن كان المقصود بالطفل الصغير هو الجنين في بطن أمه فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ بلطفه قد تكفل له برزقه يأتيه رغداً في كل وقت . وإن كان المقصود (بالطفل الصغير) هو الطفل حقيقة وهو الذي يدب على وجه الأرض ، وهو الصغير الذي يقابل الكبير وهو كذلك فهو أمسّ حاجة إلى الرزق بهذه الحال التي جاء بها النص الماثل أمامنا ؛ لأن الجنين في بطن أمه لا يتحمل أي شيء من مسؤولية رزقه ، بل وحتىٰ تناوله في فمه وأكله ، فإنه يتغذىٰ من جانب آخر غير الفم فهو لا يعلم عن نفسه شيئاً . وأما الطفل الذي يدب على الأرض فإنه لا يخلو من جانب من جوانب المسؤولية في غذائه ، لأنه يناوله إما بيده أو بيد أخرىٰ كيد الأم والمربية ، فهو أولىٰ بالرعاية من غيره من سائر أفراد الجنس البشري ، وإن الكبير الذي يعلم عن تدبير أموره ويستطيع على كسب معاشه بنفسه بكده وتعبه يختلف كثيراً عن الطفل الذي خرج من بطن أمه وهو لا يعلم عن ذلك شيئاً .

فعندما يناجي الحسين ـ عليه السلام ـ ربه (برازق الطفل الصغير)

فإنه يسأله العطف والحنان ويريد أن يعامله ويحنو عليه كما يعامل الطفل الصغير بالحنان والعطف ؛ لأن الطفل الصغير ذو حاجة أكثر إلى ذلك من غيره ، فكأنه يقول له : يا خير الرازقين يرزق الإنسان من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب أرزقني كما ترزق الطفل الصغير من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب .

أما قوله : (يا عصمة الخائف المستجير) فالعصمة هي الملجأ الذي يأوي إليه الخائف فيأمن وإلى هذا أشار قوله ـ تعالى ـ : ﴿ . . . قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾[٣٢] ، والعصمة هي المانع وقد أشار إلى ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿يا أيّها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلغترسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾[٣٣] ذكر في البرهان السيد هاشم البحراني أحاديث تشير إلى تلك الكرامة التي أكرم الله بها أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في وقفة في غدير خم قال :

---

(٣٢) سورة هود، آية : ٤٣ .

(٣٣) سورة المائدة، آية : ٦٧ .

عصمة النبي من الناس يوم الغدير

محمد بن يعقوب عن محمد بن يحيىٰ ، عن أحمد محمد ، ومحمد بن الحسين جميعاً ، عن محمد بن إسماعيل بن بزيع ، عن منصور بن يونس عن أبي الجارود عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ قال : سمعت أبا جعفر ـ عليه السلام ـ يقول : فرض الله ـ عزّ وجلّ ـ على العباد خمساً أخذوا أربعاً وتركوا واحدةً ، قلت : أتسميهن لي جعلت فداك ؟ فقال : الصلاة وكان الناس لا يدرون ما يعملون فنزل جبرئيل ـ عليه السلام ـ وقال : يا محمد أخبرهم بمواقيت صلواتهم ؟ ثم نزلت الزكاة فقال : يا محمد أخبرهم عن زكاتهم ، مثل ما أخبرتهم عن صلواتهم ثم نزل الصوم فكان الصوم فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ إذا كان يوم عاشوراء بعث إلى من حوله من القرىٰ فصاموا ذلك اليوم ، فنزل شهر رمضان بين شعبان وشوال ثم نزل الحج فنزل جبرئيل فقال : أخبرهم عن حجهم مثل ما أخبرتهم عن صلواتهم وزكواتهم وصومهم ، ثم نزلت الولاية وإنما آتاه ذلك في يوم الجمعة بعرفة أنزل الله ـ تعالى ـ : **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾**(٣٤) وكان كمال الدين بولاية علي بن

(٣٤) سورة المائدة ، آية : ٣ .

أبي طالب ـ عليه السلام ـ فقال عند ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ إن أمتي حديثو عهد بالجاهلية ومتى أخبرتهم بهذا في ابن عمي يقول قائل ويقول قائل فقلت في نفسي من غير أن ينطق به لساني فأتتني عزيمة من الله ـ عزّ وجلّ ـ بتلة أوعدني إن لم أبلغ أن يعذبني فنزلت **﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس والله لا يهدي القوم الكافرين﴾**(٣٥) فأخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ بيد علي ـ عليه السلام ـ فقال : يا أيها الناس أنه لم يكن نبي من الأنبياء فمن كان قبلي ، إلاّ وقد عمره الله ـ تعالى ـ ثم دعاه فأجابه فأوشك أن أدعىٰ فأجيب وأنا مسؤول وأنتم مسؤولون فماذا أنتم قائلون ؟ فقالوا نشهد أنك قد بلغت ونصحت وأديت ما عليك فجزاك الله أفضل جزاء المرسلين ، فقال : أللهم اشهد ثلاث مرات ، ثم قال : يا معشر المسلمين هذا وليكم من بعد فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، قال أبو جعفر ـ عليه السلام ـ كان والله أمين الله على خلقه وغيبة علمه ودينه الذي ارتضاه لنفسه ثم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ حضره الذي حضره فدعا علياً فقال : يا علي أريد أن أئتمنك على ما ائتمني الله عليه من غيبة علمه ، ومن خلقه ومن دينه الذي ارتضاه لنفسه فلم يشرك والله فيها يا زياد أحداً من الخلق ثم أن علياً حضره الذي حضره فدعا ولده وكانوا أثنا عشر ذكراً فقال لهم : يا بني إن الله ـ عزّ وجلّ ـ قد أبىٰ إلاّ أن يجعل في ستة من يعقوب ، وأن يعقوب دعا ولده وكانوا إثني عشر ذكراً فأخبرهم بصاحبهم إلاّ وإني أخبركم بصاحبكم الاّ إن هذين إبنا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ الحسن والحسين فاسمعوا لهما ، وأطيعوا ووازروهما فإني قد إئتمنتهما على ائتمنني عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ مما ائتمنه الله عليه من

---

(٣٥) سورة المائدة، آية : ٦٧ .

خلقه ومن غيبه ومن دينه الذي ارتضاه لنفسه فأوجب الله لهما من علي ـ عليه السلام ـ ما أوجب لعلي من رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ فلم كن لأحد منهما فضل على صاحبه الا بكبره وأن الحسين ـ عليه السلام ـ كان إذا حضر الحسن ـ عليه السلام ـ لم ينطق في ذلك المسجد حتىٰ يقوم الحسن ، ثم أن الحسن حضره الذي حضره فسلم ذلك إلى الحسين ، ثم أن حسيناً ـ عليه السلام ـ حضره الذي حضره فدعا ابنته الكبرىٰ فاطمة بنت الحسين ـ عليه السلام ـ فدفع إليها كتاباً ملفوفاً ووصية ظاهرة وكان علي بن الحسين ـ عليه السلام ـ مبطوناً لا يرون إلّا أنه لما به فدفعت فاطمة الكتاب إلى علي بن الحسين ـ عليه السلام ـ ثم صار والله ذلك الكتاب إلينا[٣٦] .

وعلى كل حال فإن العصمة لا تكون إلّا للخائف المستجير ؛ لأن الإنسان إذا كان في مأمن فهو بالضرورة في مكان عاصم ، فلا يحتاج إلى شيء آخر يعصمه وهذا ما أشارت إليه عبارة الدعاء .

فالخوف مع الإستجارة إذا إجتمعا يكونان نفساً تطلب الملجأ والعصمة ، ولو انفك أحدهما عن الآخر وهو مما لا يتصور أبداً فإن ذلك لا يستدعي طلب العصمة . إذاً فلا بدّ من توافق هاتين الحالتين وهو الخوف أولاً ، والإستجارة ثانياً ، وبذلك تتحقق للإنسان العصمة مما يخاف .

---

(٣٦) تفسير البرهان للسيد البحراني المجلد الأول : ص ٢٨٨ .

الوزارة

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (يا من لا شريك له ولا وزير) أما الشريك فهو المساوي في كل شيء سواءً كان في مالٍ أو جاهٍ أو تصرف في أمرٍ أو نهي ، وهو في اللغة يعني الخلط ، وأما في الشرع فإن الشرك هو أن يدعو الإنسان مع الله إلهاً آخر . وقد ورد في ذلك التـأكيد في نصـوص الآيات والروايات ، وكلها تنفي الشريك لله ـ سبحانه ـ ، حتىٰ أصبح ذلك عنواناً للموحدين ونادت بذلك الأنبياء من أول ما بعثوا . قال ـ تعالى ـ : ﴿**فاعلم أنه لا إله إلّا الله واستغفر لذنبك**﴾[37] وقال ـ تعالى ـ : ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ ، وقـد أفضنا في الكـلام حول هذا الموضوع في كثير من المواطن في تضاعيف الكتاب .

أما الحديث عن الـوزير الـذي ذكره النص فـإنه قـد جاء بعـد لفظ الشريك ، وقد قلنا بأن الشريك هو المساوي أو ما في معناه ، أما الـوزير فإنه أقل مستوى من المشارك ، ومعنىٰ ذلك أنه نفىٰ الأكبر والأكثر ثم نفىٰ الأقل ، وهذا جارٍ بكثرة في اللغة تعارف عليه علماء البلاغة . وإذا تأملنا

---

(٣٧) سورة محمد ، آية : ١٩ .

المعنىٰ اللغوي لكلمة وزير بلحاظ ما تقدم في فصل اللغة ، وتأملنا ما جاء في معانيها أدركنا المغزىٰ الذي يشير إليه النص الماثل أمامنا من كلامه ـ عليه السلام ـ ، ومن هذه الكلمة على الخصوص . فالوزير في وزن (فعيل) من الوزر بالكسر فالسكون بمعنىٰ الحمل الثقيل ، وقد سمي الوزير وزيراً لأنه يحمل ثقل حمل الملك . وقيل من الوزر بفتحتين بمعنىٰ الجبل الذي يلتجأ إليه . سمي بذلك لأن الملك يلتجيء إليه في آرائه وأحكامه .

وفي قوله ـ تعالى ـ : ﴿**واجعل لي وزيراً من أهلي . هارون أخي . أشدد به أزري . وأشركه في أمري . كي نسبحك كثيراً . ونذكرك كثيراً**﴾ (٣٨) دلائل واضحة على أن الوزارة لها أهمية خاصة في تسيير أمور الدولة ، وترشيد السياسة ، وضبط الأمور الحيوية ، والحياة الإجتماعية في المجتمعات البشرية على اختلاف البيئات ، وظروف الزمان والمكان .

وقد تعرضت هذه الآيات بصورة واضحة إلى ظاهرة سياسية واجتماعية ، وهي أن الوزير المعتمد عند الملك ينبغي أن تكون له علاقة خاصة به لأنه يحلّ محلّه ، ويقوم مقامه ، ويتكلم بلسانه ويعمل بأمره . فالتركيز من الآيات على الصلة الخاصة بينهما تعبير عن الربط بين كليهما في الهدف ، فاعتماد الملك عليه في كل الأمور وثقته به ينبغي أن تكون في محلّها ؛ وذلك خوفاً من ضياع الأوضاع وتدهورها وعدم ضبطها .

فإن موسىٰ ـ عليه السلام ـ عندما سأل الله أن يجعل له وزيراً من أهله ثم عينه بقوله : ﴿**هارون أخي**﴾ طلب كان يقصد منه المساعدة في الدعوة إلى الله وحملها الثقيل الذي لا يستطيع أن يقوم به موسىٰ لوحده بل

---

(٣٨) سورة طه، آية من ٢٩ الى ٣٤.

يحتاج إلى وزير يشاركه في ذلك ، فيقوم ببعض الأمر فيخفف عنه في ما يقوم به هذا الوزير ، ويكون مؤيداً لموسىٰ في ما يقوم به وهذا معنىٰ قوله : ﴿أشدد به أزري . وأشركه في أمري﴾ وهو بمنزلة التفسير بجعله وزيراً .

أما تعيين موسىٰ ـ عليه السلام ـ لهارون وكونه من أهله ، فليس من باب القرابة والرحم ، فإن الأنبياء أعلى مستوىً وأجل شأناً من أن يقدموا ما يشاؤون على ما يشاء الله ، بل هم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . ولكن موسىٰ ـ عليه السلام ـ عندما اختار أخاه هارون كان يعرفه في فصاحته وبراعته ـ كما نطقت بذلك الآيات ـ ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أن موسىٰ بما أنه أعرف بأخيه فإنه ينصاع لأوامره ويخلص في تبليغ الدعوة ، وبذلك يستطيع أن يعول عليه في كثير من مهمات أمور الرسالة ؛ لأن الرسالة تهم هارون كما تهم موسىٰ ؛ لأنها في بيتهم وهم أهلها فيجب أن يتحملوا مسؤوليتها كاملة .

حديث المنزلة

ولقد تواتر عند الفريقين هذا الحديث فأصبح من الأمور البديهية التي لا تحتاج إلى نظر ، وقد ذكره الشيخ ميثم البحراني في غاية المرام بمائة طريق من طرق أهل السنة ، وسبعين طريقاً من طرق الشيعة .

ومسألة التنظير بين موسىٰ وهارون من جهة ، وبين النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ وعلي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ من جهة أخرىٰ واضحة كل الوضوح واردة كل الورود ، صحيحة كل الصحة ، ومن تأولها لغير ذلك فلا يعدو كونه مكابراً منكراً للحق وهو كالشمس واضحة .

ونحن نورد هنا هذا الحديث للتدليل على ما قلناه .

محمد بن العباس ، قال : حدثنا محمد بن الحسن الخثعمي ، عن عبّاد بن يعقوب ، عن علي بن هاشم ، عن عمر بن الحارث ، عن عمران بن سليمان ، عن حفص الثعلبي ، عن أسماء بنت عميس ، قالت : رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ بإزاء ثبير ، وهو يقول : أشرق ثبير ، أشرق ثبير . اللّهم إني أسألك ما سألك أخي موسى أن تشرح لي صدري ، وأن تيسر لي أمري ، وأن تحلل عقدة من لساني يفقهوا

قولي ، وأن تجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي أشدد به أزري ، وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً ، إنك كنت بنا بصيراً[٣٩] .

وأخرج هذا الحديث في الدر المنثور عن ابن مردوية والخطيب ، وابن عساكر ، عن أسماء بنت عميس .

ومن طريقهم أيضاً ما رواه أبو نعيم الحافظ ، بإسناده عن رجاله ، عن ابن عباس قال : أخذ رسول الله (ص) بيد علي بن أبي طال ـ عليه السلام ـ وبيدي ونحن بمكة وصلى أربع ركعات ، ثم رفع يديه إلى السماء وقال : أللهم إن نبيك موسى بن عمران سألك فقال : **﴿اشرح لي صدري ويسر لي أمري . . .﴾** الآية ، وأنا محمد نبيك أسألك : رب اشرح لي صدري ويسّر لي أمري ، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيراً من أهلي عليّاً أخي ، أشدد به أزري وأشركه في أمري . قال ابن عباس : فسمعت منادياً ينادي : قد أوتيت ما سألت .

ومثله في ما ذكر في ما صح من قوله ـ صلى الله عليه وآله ـ له حين استخلفه في غزوة تبوك على أهل بيته (أما ترضىٰ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسىٰ إلاّ أنه لا نبي بعدي) وهذا هو حديث المنزلة المشار إليه بعنوان هذا البحث ، وإن كانت الأحاديث المتقدمة تعني ذلك .

ومن خلال ما تقدم يظهر لك مدىٰ الحاجة الملحة إلى الوزارة في التركيبة السياسية للدولة ، لأنها هي أهم السلطات الثلاث فيها ، وهي المسؤولة عن تنفيذ القوانين والقرارات التي تصدرها السلطة التشريعية . وفي هذا الموضوع يتشعب الكلام إلى كثير من النواحي آثرنا الإعراض عنه خوف الإطالة .

---

(٣٩) تفسير البرهان للسيد هاشم البحراني ج٣/ص٣٦ .

قال عليه السلام :

[صَلِّ عَلىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ ، وَأَعْطِني في هَذِهِ الْعَشِيَّةِ ، أَفْضَلَ مَا أَعْطَيْتَ وَأَنَلْتَ أَحداً مِنْ عِبَادِكَ ، مِنْ نِعْمَةٍ تُوليهٰا ، وَآلاءٍ تُجَدِّدُهٰا ، وَبَلِيَّةٍ تَصْرِفُهٰا ، وَكُرْبَةٍ تَكْشِفُهٰا ، وَدَعْوَةٍ تَسْمَعُهٰا ، وَحَسَنَةٍ تَتَقَبَّلُهٰا ، وَسَيِّئَةٍ تَتَغَمَّدُهٰا ، إِنَّكَ لَطيفٌ خَبيرٌ ، وَعَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ] .

اللُّغَة

العشية : العشية آخر النهار ، تقول أتيته العشية إذا كان ليومك ، وأتيته عشي غدٍ بغير (هاء) إذا كان للمستقبل . وقال الليث : العشي بغير (هاء) آخر النهار فإذا قلت عشيةً فهو ليوم واحد ، يقال : لقيته عشية يوم كذا . وقال الفرّاء في قوله ـ تعالى ـ : **﴿لم يلبثوا إلاّ عشية أو ضحاها﴾**(١) يقول القائل : وهل للعشية ضحىً ؟ قال : وهذا جيد من كلام العرب وقد أضاف الضحىٰ إلى العشية .

وأما العشي فقال أبـو الهيثم : إذا زالت الشمس دُعِي ذلك الـوقت

---

(١) سورة النازعات ، آية : ٤٦ .

العشي ، فتحول الظل شرقياً ، وتحولت الشمس غربية . قال الأزهري : وصلاة العشي هنا الظهر والعصر ، وقال أيضاً ، يحدث يقع العشي على ما بين زوال الشمس إلى وقت غروبها كل ذلك عشي ، وإذا غابت الشمس فهو العشاء . وقيل : العشي من زوال الشمس إلى الصباح ، ويقال لما بين المغرب والعتمة : عشاء . وزعم أن العشاء من زوال الشمس إلى طلوع الفجر ، وأنشدوا في ذلك :

غدونا غدوة سحراً بليل عشاءً بعد ما انتصف النهار

أنلت : النائل ما نلت من معروف إنسان ، وكذلك النوال . وأناله معروفه ونوّله أعطاه معروفه ، والمنالة والمنال مصدر نلت أنال . قال الجوهري : النوال العطاء والنائل مثله . قال العجيري السلولي :

فعضّ يديه إصبعاً ثم إصبعاً وقال لعلّ الله سوف ينيل

وقال أبو محجن : التنول لا يكون إلّا في الخير ، والتطول قد يكون في الخير والشر جميعاً . وفي حديث موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ : حملوهما بالسفينة بغير (نول) أي بغير أجر ولا جعب وهو مصدر ناله ينوله إذا أعطاه . ويقال نالني من فلان معروف ينالني أي وصل إلي منه معروف . ومنه قوله ـ تعالى ـ : **﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوىٰ منكم﴾**(٢) .

توليها : أوليت فلان خيراً وأوليته شراً كقولك سمته خيراً وشراً وأوليته معروفاً إذا أسديت إليه معروفاً وتوالىٰ عليه شهران أي تتابع والموالاة المتابعة ، ومنه إشتراط الموالاة في أفعال الوضوء . ويقال أولاني أي نعم عليّ من الآلاء ، وهي النعم .

---

(٢) سورة الحج ، آية : ٣٧ .

بلية : البلوىٰ والبلية والبـلاء الإسم ، وبلي بالشيء بـلاءً وابتلي ، والبلاء يكون في الخير والشر والله ـ تعالى ـ يبلي العبد بلاءً حسناً ويبليـه بلاءً سيئاً نسأل الله العفو والعافية ، والجمع البلايا ، وبلاه الله بلاءً وابتلاءً أي اختبره وقال القتيبي : يقال من الخير أبليته إبلاءً ، ومن الشر بلوته بلاءً قال : والمعروف أن الإبتلاء يكون في الخير والشر معاً من غير فـرق بين فعليهمـا ، ومنه قـوله ـ تعـالى ـ : ﴿ونبلوكم بالشـر والخيـر فتنـة وإلينـا ترجعون﴾[3] .

البيان

أسرار قبول الأعمال بالصلاة على النبي (ص)

إن العبادة التي يتقرب بها العباد إلى الله ـ تعالى ـ تختلف من واحدة إلى أخرىٰ قوةً وضعفـاً ، إلاّ أن الصلاة على النبي وآلـه ـ صلى الله عليه وآله ـ الله عليهم أجمعين ـ تأتي في رأس القائمة من حيث الثواب الجزيل وحتمية القبول ، وقد مرّ بنا كثير من الكـلام حول هـذا الموضـوع ضمن التعـرض لمعاني آيـات وروايات فصلنـاهـا في مـطاوي أبحـاث الكتـاب السابقة .

أما ها هنا فإنا سنتعرض إلى هذه العبادة ولو بصورة موجزة لنحـاول كشف هذا السرالخفي من حيث قبول هذه العبادة على كل حال .

وعليه فإنا نستطيـع أن نتحدث ضمن نقـاط متعددة بعـد طرح هـذا التساؤل وهو :

لماذا تكون العبادة مرودة بين القبـول والرد إلاّ الصـلاة على محمد

---

(٣) سورة الأنبياء ، آية : ٣٥ .

وآل محمــد ، كمـاورد ذلــك في كثيـر من أخبــار أهــل البيت ـ عليهم السلام ـ .

ويمكن الجواب على ذلك ضمن النقاق التالية :

١ ـ ان الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد اختص نبينا ـ صلى الله عليه وآله ـ بأن جعله حبيباً ، كما جعل إبراهيم خليلاً ، وذكـر الحبيب عند حبيبـه لا شك أن يكون له إعتبار خاص في الذكر ، والصلاة على النبي بهذا لإعتبار هو ذكره إلى الله ، وجعله شفيعاً ، فإذا جعل الحبيب شفيعاً ووسيـطاً بين السائل والمسؤول فإن الوساطة لا ترد ولا ترفض بل لا بدّ أن تقبل ، وإلاّ لضاعت منزلة الحبيب عند حبيبه .

٢ ـ إن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ قد نهىٰ أن تصلي عليه الصلاة البتراء ، بمعنىٰ أنه أمر أن يصلوا على آله كما يصلون عليه ومعنىٰ ذلك أن آله قد أصبحوا وسطاء قـدمهم المصلي إلى النبي ـ صلى الله عليه وآلـه ـ بين يدي حاجاته ، والنبي بدوره وسيط إلى الله ، فآله هم أحباء عنده بلا شك ، وهو حبيب عند الله بلا شك ، فتقبل هذه العبادة حتماً وان تعددت الوسائط .

٣ ـ إن من صلى على النبي ـ صلى الله عليـه وآله ـ بهـذه الصـلاة الكاملة غير البتراء ـ كما قلنا ـ لا تصدر إلاّ ممن قد أخلص ومحض الولاء لأهل البيت ، ومعنىٰ ذلك أنه قد نفّذ وصية النبي ـ صلى الله عليـه وآله ـ فيهم كما نطق بذلك الذكر الحكيم **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربىٰ﴾**(٤) فقد ورد تفسير هذه الآية في كثير من أخبار أهل البيت كما روىٰ ذلك المفسرون . فمنها ما ذكـره السيد هـاشم البحراني في تفسيـر

---

(٤) سورة الشورىٰ ، آية : ٢٣ .

البرهان عن علي بن إبراهيم ، قال : حدثني أبي ، عن ابن أبي نجران ، عن عـاصم بن حميد ، عن محمـد بن مسلم ، قال : سمعت أبـا جعفـر ـ عليه السلام ـ يقول في قول الله : **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربىٰ﴾** يعني في أهل بيته قال : جاءت الأنصار إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ ، فقالوا : إنا قد آوينا ونصرنا فخذ طائفة من أموالنا استغن بها على ما أنابك ، فأنزل الله : **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً** ـ يعني النبوة ـ **إلاّ المودة في القربىٰ﴾** أي في أهل بيته ، ثم قال : أن الرجـل يكون لـه صديق وفي ذلك شيء على أهـل بيته فلم يسلم صـدره ، فأراد الله أن لا يكون في نفس رسول الله ـ صلى الله عليـه وآله ـ شيء على أمتـه ففرض عليهم المودة فإن أخذوا أخذوا مفروضاً وإن تركـوا تركـوا مفروضـاً قال : فانصرفوا من عنده وبعضهم يقول : عرضنا عليه أموالنا فقـال : قاتلوا عن أهل بيتي وقال طائفة : ما قال هذا رسول الله من الله وجحدوا وقالـوا كما حكى الله ـ تعالى ـ : **﴿أم يقولون إفترىٰ على الله كذباً** ـ فقال الله ـ : **فإن يشـأ الله يختم على قلبك** ـ قال : لو افتـريت ـ **ويمحو الله البـاطل** ـ يعني يبطله ـ **ويحق الحق بكلماته** ـ يعني بالأئمة والقائم من آل محمد ـ **إنه عليم بذات الصدور** ، ـ ثم قال : ـ **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات** ـ إلى قوله : ـ **ويزيدهم من فضله** ـ يعني الذين قالوا القول ما قال رسـول الله ـ صلى الله عليه وآلـه ـ ثم قـال ـ : **والكـافـرون لهم عـذاب شديد﴾** ـ وقال أيضاً ـ : **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربىٰ﴾** قـال : قـال أجـرة النبـوة أن لا تؤذوهم ولا تقـطعـوهم ، ولا تبغضـــوهم وتصلوهـم ولا تنقضوا العهد فيهم لقوله ـ تعالى ـ : **﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾**(٥) قال : جاءت الأنصار إلى رسول الله ـ صلى الله عليه

---

(٥) سورة الرعد ، آية : ٢١ .

وآله ـ فقالوا : إنا قد نصرنا وفعلنا فخذ من أموالنا ما شئت فأنزل الله : ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربىٰ﴾ يعني في أهل بيته ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ بعد ذلك من حبس أجيراً أجره فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً وهو محبة آل محمد رسول الله ثم قال : ﴿ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً﴾(٦) وهي الإمامة لهم والإحسان إليهم وبرهم وصلتهم ﴿نزد له فيها حسناً﴾ أي نكافىء على ذلك الإحسان(٧) .

وعلى هذا فإن السائل أوالداعي أو المتعبد بهذه العبادة يكون أقرب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ من غيره لأنه أحب أهل بيته ، وكما جاء عنه ـ صلى الله عليه وآله ـ قوله : (المرء يحفظ في ولده) .

٤ ـ قال الصدوق في كتاب معاني الأخبار ، حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الرحمٰن المقري ، قال : حدثنا أو عمرو محمد بن جعفر المقري الجرجاني ، قال : حدثنا أبو بكر محمد بن الحسن الموصلي ببغداد ، قال : حدثنا محمد بن عاصم الطريفي ، قال : حدثنا أبو زيد عياش بن يزيد بن الحسن بن علي الكحال مولى زيد بن علي ، قال : حدثنا أبي ـ يزيد بن الحسين ـ قال : حدثني موسى بن جعفر ـ عليه السلام ـ قال : قال الصادق جعفر بن محمد ـ عليه السلام ـ من صلّىٰ على النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ فمعناه أني أنا على الميثاق والوفاء الذي قبلت حين قوله : ﴿ألست بربكم قالوا بلىٰ﴾(٨) ومعنىٰ ذلك أن الميثاق هو ما أخذه الله على العباد من طاعته ومحبة أوليائه ومعاداة أعدائه .

---

(٦) سورة الشورىٰ ، آية : ٢٣ .

(٧) تفسير البرهان : ج٤ ص١٢٤ .

(٨) معاني الأخبار للصدوق : ص١١٥ .

فقوله ـ عليه السلام ـ : (صلّ على محمد وآل محمد) معناه أنه نظر إلى كل هذه الإعتبارات وهذه الوسائط وجعلها نصب عينيه لكي يقرب البعيد ويختصر الطريق إلى الله ـ تعالى ـ . وقد يراود الإنسان اشكال آخر وهو أليس أن الحسين هو من آل محمد ؟ ومعنىٰ ذلك أنه قد أقسم على الله بقربه من الرسول ـ صلى الله عليه وآله ـ .

قد يكون هذا ، وهو أن القربىٰ المنصوص عليها في آية القربىٰ لها إعتبار في مقام التوصل إلى المطلوب بواسطة رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ .

ولكن المهم في ذلك هو أن المقصود ليس مراعاة الرحم فقط وإنما المقصود من آل البيت هنا هو التوجه إلى الله بمنزلتهم عنده ومقامهم لديه الذي وضعهم الله فيه ، وهو مقام الإمامة ذات المسؤولية الكاملة عن الخلق أجمعين . فعندما يقول ـ عليه السلام ـ : (صلّ على محمد وآل محمد) يعني أستشفع لديك بمقام النبوة الذي حلّه محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ وأستشفع لديك بمقام الإمامة الذي حلّه آل محمد ـ عليهم السلام ـ ، وهذا الكلام من أروع ما يقال في مقام الدعاء . فإن هذين المقامين لا ينالهما الإنسان بعمله ولا بجاه ولا بمال وإنما يصطفي الله لذلك من خلقه من يشاء وينص على من يريد ، وإلى هذا أشارت كثير من الآيات في الكتاب العزيز مثل قوله ـ تعالى ـ : ﴿**وإذ قال ربّك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة**﴾(٩) وقوله ـ تعالى ـ : ﴿**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض**﴾(١٠) وكثير هي الآيات التي ترسم الخط الواضح في أمر

---

(٩) سورة البقرة، آية: ٣٠.
(١٠) سورة ص، آية: ٢١.

الخلافة ، وتكشف الريب وتبعد الشك عن هذا المقام السامي الذي يشمل النبوة والإمامة معاً .

أما باقي الأعمال فإنها مرددة بين القبول والرفض ؛ لأن المقياس هو الإخلاص في العبادة فكلما أخلص الإنسان في عبادته كلما قربت هذه العبادة من ساحة القبول . أما الصلاة فإنها لا تتعرض لمثل ذلك الرفض والقبول بعد أن بيّنا في ما تقدم سبب ذلك .

العطاء وأنواعه

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (وأعطني في هذه العشية أفضل ما أعطيت وأنلت أحداً من عبادك) خصص العطاء في تلك العشية وهي عشية عرفة التي يكون فيها العطاء جزيلاً ؛ لأنه أراد ـ عليه السلام ـ أن يكون عطائه فيها كذلك . وإذا رأيت العبارة وتأملتها وجدت فيها النفس المطمئنة الواثقة من أن الله ـ سبحانه ـ يعطي عباده في تلك العشية عطاءً غير مجذوذ . وهذا مما لا شك فيه ، فأراد في هذه اللهجة أن يكون واحداً من العباد الذين شملهم العطاء ، إلاّ أن هذا العطاء أراده من أفضل العطيات التي أعطاها الباري لعباده ؛ لأنه عبر بقوله : (أفضل ما أعطيت) . ولكن هناك سؤالاً يطرح نفسه أمامنا وهو : ما هو المقصود من كلامه ـ عليه السلام ـ بأفضل ما أعطي وأنال أحداً من عباده ؟ .

وقد جمع ـ عليه السلام ـ في العبارة التالية إجابات ترد في هذا المقام ، يطمع فيها العاقل وتهش إليها النفس ويحبها كل إنسان .

إنه يكشف ـ عليه السلام ـ عن تلك العطاءات التي يعطيها العباري لعباده في ذلك اليوم الذي أعدت إليه موائد الناسكين المستغفرين ، فمنها :

١ ـ قوله ـ عليه السلام ـ : (من نعمة توليها) أي تعطيها لعبادك ، والعطاء في مثل ذلك الزمان ، وهو عشية عرفة ، وفي مثل ذلك المكان وهو أرض عرفات ، وعلى مثل تلك الحال التي يكون فيها العبد قد تقرب فيها إلى الله لترك ملذات الدنيا ، والإبتعاد عن خبائثها وحثالاتها يكون بلا شك عطاءً جزيلاً يتناسب وما كان عليه الحاج من تضرعٍ وخشوعٍ وانقطاعٍ إليه ـ سبحانه ـ .

٢ ـ وقوله ـ عليه السلام ـ : (وآلاء تجددها) والآلاء هي النعم ، ولكن الطلب في هذه العبارة يختلف عن العبارة السابقة ، فإنه هناك طلب من الله أن يبتدئه بالنعم . أما ها هنا فهو قد طلب تجديدها على أنها موجودة بالفعل عنده ، ومعنى ذلك : أنه قد طلب إستمرارها وزيادتها .

فالنعم تتجدد من حين إلى آخر إذا كانت موجودة بالفعل ، أو قلّت أو إنعدمت ثم جاءت من جديد .

٣ ـ وقوله ـ عليه السلام ـ : (وبلية تصرفها) فالبلية كما وردت في فصل اللغة هو الإبتلاء والإختبار ، وابتلاء الإنسان مرة يكون بالخير ، وأخرىٰ يكون بالشر ، إلاّ أنه بحسب السياق كان يقصد ـ عليه السلام ـ البلاء بالشر ، وإلاّ لم يطلب صرفه من الله ؛ لأن الخير لا يرغب الإنسان عنه فيسأل صرفه ـ كما هي سيرة العقلاء ـ .

وأما الشر الذي يتعرض إليه الإنسان من حين لآخر فهو بلاء يرد على الإنسان ولكنه يؤجر عليه غير أن العافية خير للإنسان ، لأنه معرض في ذلك للإمتحان ، فيدور أمره بين الفشل والنجاح ، فإن جزع الإنسان فقد حبط عمله ، وإن صبر أجر على ذلك .

٤ ـ وقوله ـ عليه السلام ـ : (وكربة تكشفها) ويظهر بحسب السياق

أن الكربة أخص من البلية المتقدم ذكرها ، فإن الكربة يكون الإنسان فيها في حرج وضيق أكثر من البلية ؛ ولذلك عبر (بكشفها) دون (صرفها) ؛ لأن الكشف إزالة الشيء من أعلاه ومعنىٰ ذلك أن الكربة شاملة لجميع جوانب المكروب ، فإذا أزيلت من أعلاه يلزم إزالتها من أسفله . أما الصرف فإنه إبعاد الشيء عن الشيء الآخر ، وبذلك يظهر لك السر في كيفية إستعمال هذه الكلمات مع ما يناسبها ويلتحم معها فيمتزج المعنيان ليكونا خليطاً واحداً ، فتأمل كيفية هذا الإنسجام والتناسق الذي يأخذ بلب الإنسان .

٥ ـ وقوله ـ عليه السلام ـ : (ودعوة تسمعها) فقد اعتبر ـ عليه السلام ـ أن سماع الدعوة منه واستجابتها من جملة العطايا التي تتوفر في ذلك اليوم ، وقد مرّ بنا في بحث مفصَّل في الجزء الأول شيء من هذا الموضوع عند التعليق على قوله ـ عليه السلام ـ : (وهو للدعوات سامع) . إن سماع الدعوة في مثل ذلك الوقت الذي عجت فيه الأصوات بصنوف اللغات لا شك أنه من أسنىٰ العطايا وأفضلها ـ كما عبّر بذلك ـ عليه السلام ـ ؛ لأن سماع الدعوة من لوازمها الإجابة ، ومن لوازم الإجابة تلبية الطلب .

٦ ـ وقوله ـ عليه السلام ـ : (وحسنة تتقبلها) وقبول الحسنة لا يمكن إلاّ بعد إخلاص العمل فيها ، وذلك بأن تكون خالصة لوجهه الكريم سواءً كانت كبيرة أو صغيرة ، فربما خالط عمل الإنسان الكثير شيء من الرياء فأفسده كله ، وربما خلص العمل القليل لوجه الله الكريم فكان في عداد الحسنات التي يتقبلها ـ سبحانه ـ .

على أن الحسنات تضاعف عند قبولها بنص القرآن العزيز في قوله ـ تعالى ـ : ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزىٰ

إلاّ مثلها . . . ﴾[11] الآية . بهذا الشرط الذي ذكرناه ، وهو شرط ما أعسره عند الإنسان ، وما أصعبه عليه وما أسهله ، فهو صعب لأن الشيطان والنفس والهوىٰ والدنيا لا تترك الإنسان أن يفوز بأي عمل من شأنه الإخلاص فيه ، قال شاعر العرب :

إبليس والدنيا ونفسي والهوىٰ ... كيف الخلاص وكلهم أعدائي
إبليس قد نصب العداء لآدم ... وسرت عداوته إلى الأبناء
وبهذه الدنيا بهارج لم تزل ... تغوي المهذب أيما إغواء
والنفس تهوىٰ والهوى يردي الفتى ... ويذوب مثل الملح بالأهواء[12]

وسهل فيما إذا تجرد الإنسان من أعدائه الأربعة المذكورة وتغلب عليها ، ووجه قلبه وسمعه وبصره لله ـ سبحانه ـ فالعمل بهذا المعنىٰ سهل ممتنع .

٧ ـ وقوله ـ عليه السلام ـ : (وسيئةٍ تغفرها) وغفران السيئة يأتي في نهاية المطاف ، فإن الإنسان في هذه الحال (من حال إقتراف الذنب إلى غفرانه) يمر بمراحل مختلفة حتىٰ يصل إلى غفران الذنب ، وهي كما يلي :

أ ـ إقتراف الذنب وممارسته سواءً كان صغيراً أو كبيراً .

ب ـ الندم على ما فرط من الإنسان ممّا إقترف من هذه الذنوب ومراجعة نفسه وتوبيخها .

حـ ـ التوبة من هذه الذنوب ، وهي العزم على الترك والخروج من

---

(١١) سورة الأنعام ، آية : ١٦٠ .
(١٢) الأبيات الثلاثة الأخيرة من تذييل المؤلف .

المعاصي إلى غير عودة .

د ـ الإستغفار وهو الذي يأتي في النهاية بعد أن يصمم الإنسان على عدم العود ، يسأل من الله أن يغفر هذه الذنوب جميعاً وينساها .

وبذلك لا نستطيع أن نفصل بين الحديث عن الإستغفـار والحديث عن التوبة .

التوبة النصوح

والحديث عن التوبة حديث ذو شعب إلاّ أن ما نريده في الحديث هو التوبة النصوح ، لأنها هي أصدق مصاديق التوبة وهي التي أشار إليها ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه العزيز في قوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿**يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً**﴾[١٣] قال المفسرون : ان المراد توبة تنصح الناس أي تدعوهم إلى أن يأتوا بمثلها ، بظهور آثارها الجميلة في صاحبها ، أو ينصح فيقلع عن الذنوب ، ثم لا يعود إليها أبداً .

ومنها أن النصوح ما كانت خالصة لوجه الله ـ سبحانه ـ من قولهم : عسل نصوح ، إذا كان خالصاً من الشمع ، بأن يندم على الذنوب لقبحها ، وكونها خلاف رضا الله ـ تعالى ـ لا لخوف النار مثلاً .

ومنها أن النصوح من النصاحة وهي الخياطة ؛ لأنها تنصح من الدين ما مزقته الذنوب ، أو يجمع بين التائب وبين أوليائه وأحبائه ، كما تجمع الخياطة بين قطع الثوب .

ومنها أن النصوح وصف للتائب ، وإسناده إلى التوبة من قبيل

---

(١٣) سورة التحريم ، آية : ٨ .

الإسناد المجازي ، أي توبة تنصحون بها أنفسكم ، بأن تأتوا بها على أكمل ما ينبغي أن تكون عليه ، حتىٰ تكون قالعة لآثار الذنوب من القلوب بالكلية ، وسيأتي في الأخبار التي سنوردها بخصوص التوبة في هذا البحث تفسيرها ببعض تلك الوجوه .

وقد بحثوا موضوع التوبة من حيث وجودها ، وقالوا : بأنه لا خلاف في ذلك في الجملة بالكتاب والسنّة والإجماع ، والدليل العقلي على الوجوب لذلك رفعها الضرر ، ووجوب الندم على كل قبيح ، والعزم على ترك المعاودة في المستقبل ؛ لأن ترك العزم يكشف عن نفي العزم ، وعلى تقدير وجوبها في الجملة إختلف المعتزلة وغيرهم من فرق الإسلام في تعميمها وتخصيصها .

فجماعة من المعتزلة قالوا أنها تجب من الكبائر المعلومة أنها من الكبائر ، أو المظنون فيها ذلك . ولا تجب من الصغائر المعلومة أنها من الصغائر .

وآخرون قالوا إلى أنها لا تجب عن ذنوب تاب عنها من قبل ، وآخرون أنها تجب من كل صغير وكبير من المعاصي .

وأما فورية الوجوب فقد صرّح بها المعتزلة فقالوا : يلزم بتأخيرها ساعة إثم آخر تجب التوبة منه أيضاً ، حتىٰ أن من أخر التوبة عن الكبيرة ساعة واحدة فقد فعل كبيرتين ، وساعتين أربع كبائر ، الأولتان وترك التوبة من كل منهما ، وثلاث ساعات ست كبائر ، وأربع ساعات ثمان كبائر . . وهكذا .

وعلماؤنا وافقوهم على الفورية لكنهم لم يذكروا في ما ذكروا هذا التفصيل في كتبهم الكلامية .

ثم إنه لا شك في أن التوبة بهذا الإعتبار مسقطة للعقاب ـ كما أجمع عليه أهل الإسـلام ـ وإنما الخـلاف في أنه هـل يجب على الله القبول ، حتىٰ لو عاقب بعد وقوع التوبة يكـون ظلماً ، أو هـو تفضل محض يفعله ـ سبحانه ـ كرماً منه ورحمة بعباده ؟

فالمعتزلة وأكثر الإمامية على الأول ، والأشاعرة على الثاني ، وإليه ذهب شيخ الطائفة في كتاب (الإقتصاد) والعلامـة الحلي في بعض كتبه الكـلامية ، وتـوقف المحقق الطوسي في التجـريـد . ثم استـظهـروا من الأخبار وأدعية الصحيفة الثاني ، وهو مختار الطبرسي في المجمع ، ونسبه إلى أصحابنا كافة . وعلى كل حال فـالأخبار الكـاشفة عن حقيقـة التوبـة والإستغفار كثيرة نذكر في يلي بعضاً منها :

ففي تحف العقـول عن كميل بن زيـاد قـال : قلت لأميـر المؤمنين ـ عليه السلام ـ : ياأمير المؤمنين العبد يصيب الذنب فيستغفر الله منه فما حد الإستغفار ؟ قال : يا ابن زيـاد التوبـة . قلت : بسرّ ؟ قـال : قلت : فكيف ؟ قال : ان العبد إذا أصاب ذنباً يقول : أستغفر الله ـ بالتحريـك ـ قلت : وما التحريك ؟ قال : الشفتان ، واللسان . ثم قال : وأن يتبع ذلك بالحقيقة ، قلت له : وما الحقيقة ؟ قال : تصديق في القلب ، وإضمار ألاّ يعود إلى الذنب الذي استغفر منه .

قال كميل : فأصل الإستغفار ما هو ؟ قال : الرجوع إلى التوبة من الذنب الذي استغفرت منه ، وهو أول درجة العابدين .

وترك الذنب والإستغفار اسم واقع لمعانٍ ستة :

أولها : الندم على ما مضى .

والثاني : العزم على ترك العود .

والثالث : أن تؤدي حقوق المخلوقين التي بينك وبينهم .

والرابع : أن تؤدي حقوق الله في كل فرض .

والخامس : أن تذيب البدن الذي نبت على السحت والحرام ، حتىٰ يرجع الجلد إلى عظمه ، ثم ينشيء ما بينهما لحماً جديداً .

والسادس : أن تذيق البدن ألم الطاعة كما أذقته لذات المعاصي .

وفي المحاسن مرفوعاً إلى أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ إنه صعد المنبر فحمد الله وأثنىٰ عليه ، ثم قال : أيها الناس إن الذنوب ثلاثة : ثم أمسك ، فقال له حية العرين (رجل) : يا أمير المؤمنين فسرها لي . فقال : ما ذكرتها وإلاّ أنا أريد أن أفسرها ولكن عرض لي بحر حال بيني وبين الكلام . نعم إن الذنوب ثلاثة ، فذنب مغفور ، وذنب غير مغفور ، وذنب نرجو لصاحبه ونخاف عليه . قال : يا أمير المؤمنين بيِّنها لي . قال : نعم .

أما الذنب المغفور فعبد عاقبه الله على ذنبه في الدنيا ، فالله أحكم وأكرم أن يعاقب عبده مرتين .

وأما الذنب الذي لا يغفر فظلم العباد بعضهم لبعض . إن الله ـ تبارك وتعالى ـ إذا برز لخلقه ، وأبرز لخلقه ، أقسم قسماً على نفسه فقال : وعزتي وجلالي لا يجوز لي ظلم ظالم ، ولو كف بكف ، ولن مسحة دم بكف ، ونطحة ما بين الشاة القرناء إلى الشاة الجمّاء فيقتص الله للعباد بعضهم من بعض حتى لا يبقىٰ لأحد عند أحد مظلمة ، ثم يبعثهم الله إلى الحساب .

وأما الذنب الثالث فذنب ستره الله على عبده ، ورزقه التوبة فأصبح

خاشعاً من ذنبه راجياً لربّه ، فنحن له كما هو لنفسه نرجو له الرحمة ونخاف عليه العقاب .

وفي ثواب الأعمال عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : من تاب في سنة تاب الله عليه . ثم قال : ان السنة لكثير . ثم قال : من تاب في شهر تاب الله عليه . ثم قال : إن الشهر لكثير . ثم قال : من تاب في يوم تاب الله عليه . ثم إنه قال : إن اليوم لكثير . من تاب إذا بلغت روحه أيضاً يعني الحلقوم تاب الله عليه .

وفي معاني الأخبار للشيخ الصدوق قال : حدثنا الحاكم عبد الحميد بن عبد الرحمن بن الحسن النيسابوري ، قال : حدثنا أبو يزيد الهروي ، قال : حدثنا سلمة بن شبيب ، قال حدثنا محمد بن منيب العدني ، قال : حدثنا السري بن يحيىٰ ، عن هشام ، عن أبي الزبير ، عن جابر بن عبدالله إن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ قال : تعلّموا سيد الإستغفار : (أللهم أنت ربي لا إله إلاّ أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك وأبوء بنعمتك علي ، وأبوء لك بذنبي ، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت) .

ومما تقدم تظهر لك الملازمة بين التوبة والإستغفار ـ كما سبق أن أشرنا إلى ذلك ؛ وذلك لوجود الرابط بينهما وهو الذنب ؛ لأن الإستغفار لا يكون إلاّ عن ذنب ، ولأن التوبة لا تكون إلاّ عن ذنب أيضاً ، وهذا بحسب الحقيقة .

أما ما جاء من إستغفار الأنبياء وتوبتهم فقد تحدثنا عن هذا كثيراً في أبحاث سابقة من الكتاب ليرجع إليها من أراد ذلك .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (إنك لطيف خبير) فإن العبارة هذه منشدّة إلى ما قبلها كل الإنشداد متعلقة به كل التعلق ؛ وذلك لأنه ـ عليه السلام ـ قد وصف ربّه باللطف ، ومقتضىٰ ذلك اللطف أن يكون رحيماً بعباده ورحمته تتجلىٰ في هذا اليوم لإعطائهم سؤلهم ؛ لأنه يوم سؤال ، ويوم تضرع وخشوع ، فلا يغيبْ عن ذهن الناسك الضارع ذلك الوصف الذي ملؤه مدح وثناء ، فقد وصفه باللطف ؛ لأن من متعلقات اللطف الرحمة ، ومن نتائجها المغفرة . ووصفه أيضاً بأنه (خبير) ، لأنه يعلم كل شيء صدر من العبد ، والعبد يريد غفران كل ذنب صدر منه ، وبذلك يريح العبد من عدّ الذنوب وذكرها ، فيغفرها ما بينه وبينه ، وفي ذلك أبلغ الستر وأعظمه ؛ لأنه لم يضطلع على تلك الذنوب أحد سواهما .

ثم يقول ـ عليه السلام ـ : (وعلى كل شيء قدير) ومقتضىٰ القدرة أن يحكم في عباده كيف ما شاء ، وفي ذلك تسليم تام لله ـ تعالى ـ فإن شاء عفا ، وإن شاء عذب ، ولكنه أشار ـ عليه السلام ـ في العبارة السابقة بأنه إلى العفو أقرب ، فقد وصفه فيها بتلك الصفة التي ذكرها وهي (اللطيف) وهي تحمل معنىٰ الرحمة بلا شك .

وأما القدرة فقد بحثناها في ما مضىٰ بصورة تفصيلية لا نحتاج معها إلى التكرار .

قال عليه السلام :

[اَللَّهُمَّ إِنَّكَ أَقْرَبُ مَنْ دُعِيَ ، وَأَسْرَعُ مَنْ أَجابَ ، وَأَكْرَمُ مَنْ عَفىٰ ، وَأَوْسَعُ مَنْ أَعْطىٰ ، وَأَسْمَعُ مَنْ سُئِلَ ، يٰا رَحمٰانَ الدُّنْيٰا وَالآخِرَةِ وَرَحيمَهُمٰا ، لَيْسَ كَمِثْلِكَ مَسْؤُولٌ ، وَلا سِواكَ مَأْمُولٌ] .

اللُّغَة

الدنيا : سميت الدنيا لدنوها ؛ ولأنها دنت وتأخرت الآخرة ، وكذلك السماء الدنيا هي القربى إلينا ، والنسبة إلى الدنيا دنياوي ، ويقال دنيوي ، وكذلك النسبة إلى كل مؤنثة نحو حبلىٰ ودهناء وأشباه ذلك . وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ودانية عليهم ظلالها﴾[1] إنما هو على حذف الموصوف كأنه قال : وجزاهم جنة دانية عليهم . فحذف جنة وأقام دانية مكانها ، ومثله ما أنشد سيبوية من قول الشاعر :

كأنك من جمال بني أقيش يقعقع بين رجليه بشن

أراد جملاً من جمال بني أقيش .

---

(١) سورة الإنسان ، آية : ١٤ .

مأمول : الأمل الرجاء والجمع آمال ، وأمّلته وأملته أملاً المصدر ، وأمّله تأميلاً ، ويقال أمل خيراً ، وإنه لطويل الإملة أي التأميل . والتـأمل التثبت ، وتأملت الشيء أي نظرت إليه متثبتاً وتأمل الرجل تثبت في الأمر والنظر .

البيان

الدعاء ـ كمـا مرّ علينـا ـ في ما سبق من أبحـاث الكتاب ـ هـو مخ العبادة ، بل هو العبادة المركزة ، وهو صلة بين الخالق والمخلوق ، ولقد تكرر ذكره في كثير من الآيات والروايات تكراراً يشعر بالأهمية الكبيرة من التي ينالها الدعاء من بين تلك العبادات التي يمارسها الإنسان خصوصاً في خلوات الليل التي يكشف فيها الغطاء .

القرب والبعد من الله

وهـو منفي بالنسبـة إلى الله ـ تعالى ـ لأن ذلـك من شـأن الأجسـام المتحيزة في المكان ، وهو ـ سبحانه ـ لا يحويه مكان ولا يخلو منه مكان ـ كما ورد في الآيات والروايات وهو واضح لا لبس فيه ـ .

فقد ذكر الصدوق في كتاب التوحيد قال : حدثنا سعد بن عبد الله ، قـال : حـدثنـا محمـد بن الحسين ابن أبي الخـطاب ، عن محمـد بن إسماعيل بن بزير ، عن إبراهيم بن عبد الحميد قال : سمعت أبا الحسن ـ عليه السلام ـ يقول في سجوده : (يا من علا فما شيء فوقه ، يا من دنا فما شيء دونه ، إغفر لي ولأصحابي) .

أمـا القرب المكـاني بالنسبـة إلى الإنسان فـذلـك وارد ؛ لأن بعـد الداعي عن المدعو والحال هـذه لا يمكن أن يصل صـوته إليـه ومن جهة أخرىٰ نقول : بأن القرب معناه سماع دعوة الداعي على كـل حال ومعنىٰ ذلك أنه ليس في مكان أقرب منه إلى مكان وهذا القرب المعنوي وإن كان يأتي في حق الإنسان أيضاً كالرحم التي بينه وبين أهله ، وقد يؤول بالمكان أيضاً في نظرة بعيدة ، إلاّ أنه لا يرد في هذا المقـام ولا يمكن أن يقصده الحسين ـ عليه السلام ـ في هذا الكلام ؛ لأن المقصود في مكان الدعوة

هو الله ـ سبحانه ـ .

على أن ما يرد في مثل هذا المقام بحسب الظروف المحيطة بجو الناسك تجعله قريباً من الله ـ سبحانه ـ وهو يعتقد ذلك أيضاً وينشد إليه فيدعو في إخلاص وخشوع وثقة بالإجابة .

والسؤال الذي يداعب العقل في هذه العبارة هو ما معنىٰ قرب المدعو من الداعي ، أو ما هو المقصود بذلك القرب بين الداعي والمدعو ؟

ويمكن الإجابة عن هذه التساؤلات بأنه إن كان المقصود هو سماع الدعوة فقد سبق أن قلنا بأنه سميع على كل حال ، قريب مجيب . وإلى هذا أشار قوله ـ تعالى ـ : **﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾**(٢) قال في الميزان : إن كون الداعين عباداً لله ـ تعالى ـ هو الموجب لقربه منهم ، وقربه منهم هو الموجب لإجابته المطلقة لدعائهم ، وإطلاق الإجابة يسلتزم إطلاق الدعاء ، فكل دعاء دعي به مجيبه ، إلاّ أن ها هنا أمراً وهو أنه ـ تعالى ـ قيد قوله : أجيب دعوة الداعي بقوله إذا دعاني ، وهذا القيد غير الزائد على نفس المفيد بشيء ، يدل على إشتراط الحقيقة دون التجوز والشبه ، فإن قولنا : أصغ إلى قول الناصح إذا نصحك ، أو أكرم العالم إذا كان عالماً يدل على لزوم إتصافه بما يقتضيه حقيقة ، فالناصح إذا قصد النصح بقوله فهو الذي يجب الإصغاء إلى قوله ، والعالم إذا تحقق بعلمه وعمل بما علم كان هو الذي يجب إكرامه . فقوله ـ تعالى ـ : **﴿إذا دعاني﴾** يدل على أن وعد الإجابة المطلقة ، إنما هو إذا كان الداعي داعياً

---

(٢) سورة البقرة ، آية : ١٨٦ .

بحسب الحقيقة مريداً بحسب العلم الفطري والغريزي مواطئاً لسانه مع قلبه ، فإن حقيقة الدعاء والسؤال هو الذي يحمله القلب ويدعو به لسان الفطرة ، دون ما يأتي به اللسان الذي يدور كيف ما أدير صدقاً أو كذباً ، جداً أو هزلاً حقيقةً أو مجازاً ، ولذلك ترىٰ أنه ـ تعالى ـ عدّ ما لا عَمَلَ للسان فيه سؤالاً . قال ـ تعالى ـ : **﴿وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾**[3] فهم في ما لا يحصونها من النعم داعون سائلون بلسانهم الظاهر ، بل بلسان فقرهم واستحقاقهم لساناً فطرياً وجودياً ، وقال ـ تعالى ـ : **﴿يسأله من في السمٰوات والأرض كل يوم هو في شأن﴾**[4] ودلالته على ما ذكرنا أظهر وأوضح[5] .

وإذا كان المقصود هو القرب المكاني فهو كما قلنا غير واردٍ ، ولا متأتٍ ، بل هو مستحيل في نسبته إلى الله ـ تعالى ـ ؛ لأنه هو الذي كوّن المكان ، وأيّن الأين ، ولأنه غير محتاج إليه ، فنسبة القرب والبعد إليه بهذا اللحاظ غير واردة ، ولكنه مع ذلك أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ، وقد جاء في المأثور من الأدعية عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ في ما ورد عن الإمام المنتظر ـ عجل الله فرجه الشريف ـ قوله : (. . . يا من بعد فلا يرىٰ ، وقرب فشهد النجوىٰ . . . الدعاء) وورد عن الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في دعاء الصباح (. . . . يا من قرب من خواطر الظنون ، وبعد عن لحظات العيون . . . الدعاء) وكل هذه تنطق بعدم نسبة المكان إليه ، وجاء في بعض مناجاتهم ـ عليهم السلام ـ : (يا من لا يحويه مكان ، ولا يخلو منه مكان) .

---

(٣) سورة النحل ، آية : ١٨ .

(٤) سورة الرحمٰن ، آية : ٢٩ .

(٥) تفسير الميزان للطباطبائي .

إجابة الدعوة

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (وأسرع من أجاب) فإن ذلك مربوط بما تقدم من العبارة ، فالدعاء يقال ليستجاب ، والإجابة لا يمكن أن تتحقق بغير دعاء ، وإلاّ لأصبح هذا العطاء الذي بسبب الدعاء تفضلاً وتحنناً وهو كثيراً ما يحدث من الله ـ سبحانه ـ لعباده فهو يبدؤهم بالعطاء قبل السؤال ، بلا فرق بين البر والفاجر ؛ وذلك رحمة بهم . فقد جاء في المأثور من الأدعية عن أهل البيت الطاهر ـ عليهم السلام ـ : (يا من يعطي من سأله ، يا من يعطي من لم يسأله ولم يعرفه تحنناً منه ورحمةً . . . الدعاء) .

أما سرعة الإجابة فإنها موكولة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ فإن شاء عجلها ، وإن شاء أجّلها ، وذلك لمعرفته بعواقب الأمور ، ومصلحة الإنسان الداعي ، ومراعاة الظروف . وفي ذلك منتهىٰ الرحمة والشفقة من الله بالإنسان . لكنه يلتبس الأمر على الإنسان ويخلط بين الخير والشر ، ويعتب على الله إن أبطأت الإجابة ، وذلك لعدم معرفته بمستجدات الأمور وخبايا المستقبل فيحسب تأجيل الإجابة عدم الإجابة أو الإعراض عنه البتة ، وفي ذلك سوء ظن بخالقة وعدم تصديق لما قال في كتابه وهو قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **أجيب دعوة الداعي إذا دعاني** . . . الآية المتقدمة ﴾ .

وعلىٰ كل حال فإنّ سرعة الإجابة هي كرامة من الله أو بالعكس ، فإن سرعة الإجابة في بعض الحالات للإنسان قد تكون غضباً على الإنسان ، أو لأن الله ـ سبحانه ـ لا يريد أن يسمع صوت هذا العبد لكراهته عنده ، فيكلف بعض ملائكته بأن يستجيب له الدعوة ؛ كراهة أن يبقىٰ ذلك العبد في حالة دعاء ، وهي عبادة والله لا يريد منه ذلك ، للذي سبق له من المعاصي ، وبما حقت عليه كلمة العذاب ـ كما ورد ذلك في أحاديث أهل البيت ـ عليهم السلام ـ ، وقد فصلنا ذلك في الجزء الأول من الكتاب .

ثم إن سرعة الإجابة لها مقتضيات في ذلك وهي باختصار :

١ ـ الإخلاص في الدعاء ، وهذا يقتضي أن يمحض دعاءه لله بحيث أنه يثق بربّه في الإجابة ثقة تامة .

٢ ـ عدم تراكم المعاصي والذنوب التي تكون سداً منيعاً حاجزاً فتحول بين الدعاء وسرعة الإجابة .

٣ ـ أن يكون هذا الدعاء في مباح فلا يمكن أن تستجاب دعوة في محرم .

٤ ـ أن يكون الإنسان له إستعداد مادّي من طهارة ومن استقبال للقبلة ومن المكان المباح ، وغير ذلك من شروط إستجابة الدعاء .

٥ ـ أن يكون هناك إستعداد نفسي وهو أن يدعو الإنسان وكله ثقة بالإجابة ، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بوعده الصادق لا يخيب أمله .

بهذه الخطوات تتحقق سرعة الإجابة من الله ـ سبحانه ـ لأنه أقرب المدعوين ، بل هو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد . هذا كله مع مراعاة الأوقات المناسبة لإستجابة الدعاء التي وردت في لسان الشرع الشريف .

كرم العفو

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (وأكرم من عفا) وكرم العفو يأتي منه ـ سبحانه ـ بخلاف العفو من الإنسان ، فإن الإنسان قد يعفو وكله منّ بهذا العفو ؛ لأن كرم الإنسان محدود ، وهو ينظر إلى المعفو عنه من خلال جرمه فإذا عفا عنه فكأنه قد فعل شيئاً كثيراً ، هذا بالنسبة إلى الإنسان .

أما العفو المنسوب من الله ـ سبحانه ـ فإنه يختلف الغرض منه عن الإنسان كل الإختلاف وذلك حسب النقاط التالية :

١ ـ إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عفوٌ وهو يحب العفو ويوجد في القرآن العزيز موارد متفرقة يذكر فيها العفو من غير ذكر سببه ، وإن كان التدبر فيها يهدي إلى إجمال ما روعي فيها من المصلحة ، وهي موارد متنوعة من العفو الإلهي .

٢ ـ ولما كان العفو المغفرة يتعلق بالذنب الذي يستتبع نوعاً من المجازاة والعقاب ، وللجزاء عرض عريض ، ومراتب مختلفة متشتتة أتبعه العفو في اختلاف المراتب حسب اختلافه ، وليس الإختلاف الواقع في نفس الذنب أي التبعة السيئة التي يستتبعها العمل . فالإختلاف فيها مما لا سبيل إلى إنكاره ، والجزاء سواءً كان عقاباً أو ثواباً إنما يوزن بزنتها .

٣ ـ والـذي يفيده الإعتبـار الصحيح هـو أن ما يتعلق بـه ويحتـرمـه المجتمـع الإنساني هـو الأحكـام العمليـة والسنن المحتـرمـة التي تحفظ بـالعمل ، والمـداومة عليهـا مقاصـده الإنسانيـة وتهديـه إلى سعادتـه في الحياة .

وفي هـذه المـرحلة لا يسمىٰ بـاسم الـذنب إلّا التخلف عن متـون القوانين العملية وتحادي الذنوب لا محالة في عددهـا عدد مـواد الأحكام الإجتماعية ، وهذا هو المغروز المركوز في أذهاننا معاشر المسلمين أيضاً من معنىٰ لفظ الذنب والألفاظ التي تقارنه في المعنىٰ كالسيئة والمعصية ، والإثم والخطيئة والحوب والفسق ونحوها .

لكن الأمر لا يقف على هذا الحد فإن الأحكام العملية إذا عمل بها وروقبت وتحفظ عليهـا ساق المجتمـع إلى أخلاق وأوصـاف مناسبـة لهـا ملائمة لمقاصد المجتمع التي هي غايـة إجتماعهم ، وهـذه الأخلاق هي التي يسميهـا المجتمع بـالفضائـل الإنسانيـة ويحرص ويحـرّض عليهـا ، وتقابلها الرذائل .

وهي وإن كانت مختلفة باختلاف السنن والمقاصد في المجتمعات إلّا أن أصل إنتاج الأحكام الإجتماعية لها مما لا سبيل إلى سدّه وإعفائها عنه . قاله في الميزان(٦) .

وعوداً لما قاله ـ عليه السلام ـ : (وأكرم من عفا) كمـا أشرنـا إلى ذلك بأن العفو من الله يختلف عنه من الإنسان ؛ وذلك لأن العفو من الله ليس له غرض إلّا الرحمة بالعبد والرأفة به ، ويتجلىٰ هذا الكرم بالعفو :

---

(٦) كتاب الميزان : ج٦ ص٣٦٤ .

إن الله قد فتح أبواباً من الرأفة والرحمة ليدخلها الإنسـان ، ويتخلص من سوء فعله وإساءته ، فمرة يهديه إلى التوبة والإستغفار ، وبذلك يكون كيوم ولدته أمه ، ومرة أخرىٰ يبدؤه بالرحمة والمغفرة ويقربه إليه زلفىٰ . وهناك وسائل أخرىٰ لإنقاذ الإنسان مما غمره من الذنوب ، وذلك إذا أراد الله به خيراً ، فالكرم في العفو يعني أنه يبدأ العبد بذلك سواءً كـان له حجـة أم لا ، وسواءً كان له ما يبرر فعله أم لا .

العطاء الواسع

ثم يقول ـ عليه السلام ـ : (وأوسع من أعطىٰ) والحديث عن العطاء الواسع يجدر بنا أن نقف به وقفة تأمل فنقول :

إن العطاء يتفاوت من إنسان إلى آخر ، وذلك بحسب العوامل الآتية :

١ ـ مقدار الثروة التي تكون عند الإنسان ، فإنه يحسب حسابه في مثل ذلك العطاء ، فإن كانت ثروته كبيرة كان العطاء بتلك النسبة ، وإن كانت الثروة قليلة كان العطاء كذلك .

٢ ـ إن عامل الكرم قال عنه بعض علماء الإجتماع بأنه صفة وراثية يحملها الولد عن الوالد ، والحفيد عن الجد ، وهناك نماذج من التاريخ حملها لنا ضمن حقبة معينة من الزمن إشتهر أصحابها بالكرم في مجتمعات معينة . ويضرب لنا مثلاً بحاتم الطائي الذي اشتهر بهذه العادة الجميلة الحسنة ، حتىٰ صار اسمه ملازماً للكرم ، بل صار علماً عليه . وقد ورث ذلك عنه ابنه عدي حتىٰ قال فيه الشاعر :

بأبه إقتدىٰ عدي في الكرم ومن يشابه أبه فما ظلم

٣ ـ الإستعداد النفسي الذي يكون عليه المعطي ، وهو أن يعطي بلا

خوف من الفقر ؛ وذلك كما قالت سفانة بنت حاتم الطائي عندما جيء بسبايا طي وعرّفت النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ وعرّفته بأبيها قال : لها يا جارية إن هذه من صفات المؤمنين ، ولو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه . ثم أعطاها من المواشي ما سدّ بين جبلين فقالت : (يا محمد هذا عطاء من لا يخاف الفقر) .

وهذه النقاط المتقدمة وغيرها مما لم يذكر تتناول الإنسان وهو ذو القدرة المحدودة ، والثروة المحدودة ، والغنىٰ المحدود ، يتأثر بكل شيء ، ويحرص على كل شيء ، فالعطاء في هذه الحال لا يكون واسعاً ، وإن تخيله الإنسان واسعاً لأنه سرعان ما ينتهي .

ولكن الله ـ تبارك وتعالى ـ بما عنده من خزائن لا تنفد ، وخير واسع إذا أعطىٰ فإنه عطائه غير مجذوذ ، وغير محدود ، وهذا ما يفسر العطاء الواسع ، بمعنىٰ أنه لم يكن مرة واحدة ، بل إن الإنسان طالما أنه يحيىٰ فإن رزقه لا يزال جارياً حتىٰ يغمض عينيه في قبره . ومعنىٰ الواسع هنا إما أن تفسر باستمرارية العطاء على دفعات متفاوتة وإن كان العطاء في كل دفعة قليلا لكنه مستمر . واما أن يفسر بالعطاء دفعة واحدة ويكون العطاء كثيراً ، إلاّ أن هذا المعنىٰ يغاير ما يكون عليه الإنسان من إستمرارية الرزق ، لأن الرزق لو انقطع عن الإنسان لحظة واحدة لهلك ، واستمرارية العطاء مع كون هذا العطاء قليلاً لا يضر في معنىٰ كونه واسعاً .

نسبة السمع إليه تعالى

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (وأسمع من سئل) إن الإتيان بإسم التفضيل يقتضي الزيادة والنقصان ، ونسبة السمع إلى الله ـ سبحانه ـ يختلف عن نسبته إلى الإنسان . فالسمع من الإنسان لا يكون إلّا بالجارحة المعروفة ، وهي الأذن . وهذه معرضة بالصمم والمرض والثقل ، وغير ذلك من العوارض التي تعتري هذه الجارحة كغيرها من سائر الجوارح عند الإنسان ، أما بالنسبة إلى الله فإن نسبة السمع إليه ليس بجارحة ، ولكن علمه بجميع المسموعات ، وكذلك نسبة البصر إليه ، وقد مرّ بنا شيء من هذا البحث في الجزء الأول من الكتاب ، ونضيف هنا بعض ما نراه مناسباً مما قاله علماء الكلام .

قال السيد المرتضىٰ ـ عطر الله مرقده ـ : إن السميع والبصير من كان على صفة بكونها مختصة به صح أن يبصر المبصر ، ويسمع المسموع إذا وجد السامع المبصر وهو المدرك للمسموع والمبصر .

ففي الأزل هو ـ تعالى ـ سميع لا سامع ، بصير لا مبصر ، إذ ليس في الأزل موجود سواه فيدرك ، فينتفي الإدراك ، مع إنه ـ تعالى ـ في الأزل على تلك الصفات ، محتجاً بأن الإدراك زائد على العلم في

المشاهد ضرورة التفرقة بين حالتي فتح العين وتغميضها مع وجود العلم في الحالتين ، وعدم وجود إستنادها إلى تأثير الحاسة لإستحالة الإنطباع ، وإلّا لأنطبع العظيم في الصغير ، وفي الغائب كذلك ؛ لأن المصحح للإدراك هو كون الواحد مناحياً لا حاجة به .

وربما توهم من توهم أن العلم والسمع والبصر إذا كانت ذاتية أزلية ووقوعه على المعلوم حادثاً ، وكذا على المسموع والمبصر كان الله متنقلاً من علم إلى آخر ، وهو مبني على أن العلم لأن الشيء سيوجد غير العلم بوجوده حين يوجد فيزول الأول بالثاني ، وذلك لتغاير المعلومين ، فليزم أن يكون الله ـ تعالى ـ متنقلاً أزلاً أبداً من علم إلى آخر . . . ، وقس على ذلك الإنتقال من سمع إلى سمع ، ومن بصر إلى بصر ، ومن قدرة إلى قدرة .

وحاصل الجواب عن ذلك من هذه الأدلة أن العلم بأن الشيء سيقع عين العلم بوقوعه حين يقع وكذا السمع والبصر والقدرة(٧) .

قال الصدوق في كتاب التوحيد : السميع معناه أنه إذا وجد المسموع كان سامعاً ومعنىً ثان أنه سميع الدعاء ، أي مجيب الدعاء ، وأما السامع فإنه يتعدىٰ إلى مسموع ويوجب وجوده ، ولا يجوز فيه بهذا المعنىٰ لم يزل والباري ـ عزّ اسمه ـ سميع لذاته(٨) .

وأنت إذا تأملت ما جاء في عبارة الدعاء (وأسمع من سئل) وجدت أن هذه الصيغة وهي صيغة التفضيل قد أعطت الباري ـ سبحانه ـ وتعالى ـ الحق في أنه خير سامع ، وأنه يسمع لا بجارحة كما مر ؛ لأن الجارحة

---

(٧) محاسن الإعتقاد للشيخ حسين آل عصفور (مخطوط) .

(٨) كتاب للصدوق ص ١٩٧ .

لا بدَّ وأن يكون فيها ما بين الناس تفاوت .

ثم إن السؤال الذي ذكر ـ عليه السلام ـ فيها أعم من أن يكون في السر أو العلن ، فإنه يسمع السؤال على كل حال ، وإطلاق العبارة يقتضي شمول الحالين ، وهذا يدل على أن السمع المنسوب إليه ـ تعالى ـ ليس بجارحة ، وإلاّ لزم ألاّ يسمع إلاّ بعد صدور الصوت ، ويلزم كذلك من ذلك ألاّ يعلم بشيء من المسموعات قبل صدورها ، ومعنىٰ ذلك أنه يتساوىٰ مع خلقه في العلم والمعرفة ، وهذا يلزم منه ألاّ يعلم غيب السمٰوات والأرض ، وهذا كله باطل جملة وتفصيلاً نقلاً وعقلاً .

رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيمُهما

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (يا رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيمهما) لقد ذكرنا في الجزء الأول ص٢٠٥ معنىٰ هاتين الصفتين تحت عنوان مستقل بشيء من التفصيل وقلنا في ما هنالك مما قلناه : بأن الرحمٰن لا يوصف بها غير الله ـ تعالى ـ لأنها إسم من أسمائه ومعناها ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة ، وأما الرحيم فإنها صفة منقطعة[٩] .

هذا بالنسبة إلى المعنىٰ ، أما بالنظر إلى نسبة هاتين الصفتين إلى الدنيا والآخرة فإنه يداعب الفكر اشكال يلوح حول تلك النسبة ، وهو ينحل إشكالين :

١ ـ ما معنىٰ رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيمهما؟ وفي مقام الجواب لا بدّ وأن نتأمل في المعنىٰ في التفريق بين هاتين الصفتين ، ونسبة كل منهما إلى الدنيا والآخرة .

أما رحمن الدنيا فإنه ذو النعمة التامة والمستمرة التي لا تنقطع أبداً منذ تخلق الإنسان إلى أن يموت .

---

(٩) أصول المعرفة : ج١ ص٢٠٥ .

وأما رحيم الدنيا فإنه لما كانت حياة الإنسان محفوفة بالمخاطر ، ولا ملجأ منها إلّا إلى الله ، ولما كانت الحوادث الغامضة التي لا يعلم عنها الإنسان مطوية في علم الغيب ، فإنه ـ سبحانه ـ ينجي الإنسان من كلّ هول وشدّة ومعنىٰ ذلك : إن الرحيم هو الذي يبذل الرحمة عند الحاجة إليها ، وأما الرحمٰن فهو الذي يبذلها في كل وقت سواءً كان الإنسان في حاجة أو ليس كذلك .

٢ ـ وأما رحمٰن الآخرة ورحيمها فهو ما يستشف من هذه المعاني السابقة ، وربما أضيف إلى ذلك بأن رحمٰن الآخرة هو ذو الرحمة التي تشمل العباد جميعاً كمّاً وكيفاً .

وأما رحيم الآخرة فإنه ذو الرحمة التي تشمل العبد من حيث أنه مذنب فيناله العفو .

وذكر الصدوق في كتاب التوحيد أن معنىٰ الرحيم هو الرحيم بالمؤمنين يخصهم برحمته في عاقبة أمرهم كما قال الله ـ عزّ وجلّ ـ : **﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾**(١٠). والرحمٰن والرحيم إسمان مشتقان من الرحمة على وزن ندمان ونديم ، ومعنىٰ الرحمة النعمة ، والراحم المنعم وسمي الرسول رحمة ، والقرآن رحمة ، والغيث رحمة(١١).

ولما فرغ ـ عليه السلام ـ من ذكر هذه الصفات وهي بصيغة الثناء والمدح والإجلال والإكبار والتعظيم والتفضيل لله ـ تعالى ـ ذكر ذلك جملة واحدة بعد التفصيل وهذا يشعر باعترافه ضمناً بالعجز عن الثناء على الله فقال بعد ذلك كله : (ليس كمثلك مسؤول ولا سواك

---

(١٠) سورة الأحزاب، آية : ٤٣ .

(١١) كتاب التوحيد للصدوق : ص٢٠٣ .

مأمول) وهذا ما أشار إليه الكتاب العزيز بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ليس كمثله شيء﴾[١٢]، قيل في معنى الآية ثلاثة وجوه :

الأول : إن الكاف زائدة وتقديره ليس مثل الله شيء من الموجودات ولا المعدومات كما قال أوس بن حجر :

وقتلى كمثل جذوع النخيل يغشاهم سيل منهمر

الثاني : قال الرماني : انه قد بلغ في نفي الشبيه إذ نفىٰ مثله ؛ لأنه يوجب نفي الشبه على التحقيق والتقدير ؛ وذلك انه لو قدّر له مثل لم يكن مثل صفاته ، ولبطل أن يكون له مثل ، ولتفرده لتلك الصفات ، وبطل أن يكون مثلاً له ، إذ لو كان له مثل لم يكن هو بصفاته ، وكان ذلك الشيء الآخر هو الذي له تلك الصفات ، لأنها لا تصح إلّا لواحد في الحقيقة ، وهذا يجوز أن يشبه بشبه حقيقة ولا بلاغة ، فوجد التبعيد عن الشبه ، لبطلان شبه الحقيقة .

الثالث : ما حكاه الشيخ في التبيان فاستحسنه منه السيد المرتضىٰ ، وقد أشرنا إليه في موطن سابق من هذا الجزء ، وهو باختصار انه نفىٰ أن يكون لمثله مثل ، وإذا ثبت أنه لا مثل لمثله فلا مثل له أيضاً ، لأنه لو كان له مثل لكان له أمثال . قاله الشيخ في التبيان[١٣] .

ونعود بعد هذا الما أشار إليه في العبارة السابقة من الفقرة المطروحة للبحث من نص الدعاء ، إنه يقول : (ليس كمثلك مسؤول) فإنها تنطبق على ما جاء في تفسير الآية تمام الإنطباق ، ومعنىٰ ذلك :

١ ـ إن عطاءك ليس كعطاء غيرك فإنك تعطي بدون حساب وبلا

---

(١٢) سورة الشورىٰ ، آية : ١١ .
(١٣) التبيان للشيخ الطوسي .

خوف من الفقر فيكون العطاء جزيلاً واسعاً .

٢ ـ إنك لا تريد عوضاً عمّا تعطي ؛ لأنك تبتدىء بالإحسان قبل العطاء ، ولأنك تعطي من سألك ، ومن لم يسألك تحنناً منك ورحمة .

٣ ـ إن سؤالك يكون في أي وقت بخلاف بقية المسؤولين فإن لهم أوقاتاً يعطون فيها ، وهي أوقات تكون فيها سعة ، أما في أوقات الضيق والفقر فإنهم ربما يعتذرون عن العطاء ، إذ يحملون على محامل الخير ، ولكن خزائنك أنت لا تنتهي .

٤ ـ إنك قريب من الإنسان تجيبه عند السؤال وتسمع ما يقول . وذلك لعدم وجود الحجاب بينك وبين خلقك . وكثير من النقاط التي تفرق بين سؤال الإنسان لربّه ، وبين سؤاله لغيره .

وإذا اتضح لك هذا المعنىٰ ظهر لك المعنىٰ الآخر في قوله ـ عليه السلام ـ : (ولا سواك مأمول) لأن الأمل قد يداعب الإنسان ، بالنسبة للإنسان فمرة يتحقق ، ومرة يخيب هذا الأمل وذلك بظن الإنسان في الإنسان خيراً ، ولكنه كثيراً ما يختلف ظنه ، ويخطىء ويخيب الأمل .

أما ظن الإنسان بربّه ، فإنه إذا ظن به خيراً فهو في محل الخير ؛ لأنه لا يملك الخير والشر إلاّ الله ، وحسن الظن بالله لا بدّ وأن يتحقق ، وحسن الظن بالله من أعظم العبادات التي يمارسها الإنسان في جميع الأوقات .

قال عليه السلام :

[دَعَوْتُكَ فَأَجَبْتَني ، وَسَأَلْتُكَ فَأَعْطَيْتَني ، وَرَغِبْتُ إِلَيْكَ فَرَحِمْتَني ، وَوثِقْتُ بِكَ فَنَجَّيْتَني ، وَفَزِعْتُ إِلَيْكَ فَكَفَيْتَني ، اَللَّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ وَنَبِيِّكَ ، وَعَلى آلِهِ الطَّيِّبينَ الطَّاهِرينَ أَجْمَعينَ ، وَتَمِّمْ لَنا نَعْمآئَكَ ، وَهَنِّئْنا عَطاءَكَ ، وَاجْعَلْنا لَكَ شاكِرينَ ، وَلِآلائِكَ ذاكِرينَ ، آمينَ ، رَبَّ الْعالَمينَ] .

اللُّغة

وثقت : الثقة مصدر قولك وثق به يثق وثقة ائتمنه . ورجل ثقة ، وكذلك الإثنان والجمع ، وقد يجمع على ثقات ويقال : فلان ثقة ، وهي ثقة ، وهم ثقة ، ويجمع على ثقات في جماعة الرجال والنساء ، ووثَّقتُ فلاناً إذا قلت إنه ثقة .

وأرض وثيقة كثيرة العشب ، والميثاق العهد والجمع المواثيق على الأصل ، وفي المحكم والجمع المواثق . وأنشد الفراء لعياض بن درة الطائي :

حمىً لا يحل الدهر إلّا بإدننا ولا نسل الأقوام عقد المياثق

والموثق الميثاق ، ومنه قوله تعالى : ﴿**واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه واثقكم به . . .**﴾[1] الآية .

فزعت : الفزع الفرق والذعر من الشيء ، وهو في الأصل مصدر ، وافزعه وفزّعه أخافه وروّعه فهو فزع . قال سلامة :

كذا إذا ما أتانا صارخ فزع　　كان الصراخ له قرع الطنابيب

وفي الكتاب العزيز : ﴿**حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربّكم قالوا الحق**﴾[2] . وفزاعة كثير الفزع ، وفزاعة أيضاً يفزع الناس كثيراً . وفزعهم وأفزعهم : أغاثهم قال زهير :

إذا فزعوا طاروا إلى مستغثيهم　　طوال الرماح لاضعاف ولا عزل

هنيئاً : الهنيء والمهنأ ما آتاك بدون مشقة ، وقد هنأ الطعام صار هنيئاً ، وهنئت الطعام أي تهنأت به ، ويقال هنأني خبز فلان أي كان هنيئاً بغير تعب ولا مشقة . وقد هنأنا الله الطعام وكان طعاماً إستهنأناه أي إستمرأناه .

وقال أبو الهيثم : هنأت : يريد ظفرت ، على الدعاء له . وقال سيبويه : قالوا هنيئاً مريئاً ، وهي من الصفات التي أجريت مجرىٰ المصادر المدعو بها في نصبها على الفعل غير المستعمل إظهاره واختزاله ، لدلالته عليه وانتصابه على فعل من غير لفظه ، كأنه ثبت له ما ذكر له هنيئاً . ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿**فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً**﴾[3] .

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٧ .

(٢) سورة سبأ ، آية : ٢٣ .

(٣) سورة النساء ، آية : ٤ .

آمين : آمين وأمين بالمد والهمزة : كلمة تقال في إثر الدعاء : قال الفارسي : هي جملة مركبة من فعل وإسم ، معناه أللهم استجب لي . وقيل هو ايجاب ، ربّ إفعل . قال : وهما موضوعان في موضع اسم الإستجابة ، كما أن (صه) موضوع موضع سكوت . قال : وحقهما من الإعراب الوقف ؛ لأنهما بمنزلة الأصوات ، إذا كانا غير مشتقين ، وهو يعني بذلك (آمين ، أمين) . إلاّ أن النور فتحت فيهما لالتقاء الساكنين ، ولم تكسر النون لثقل الكسرة بعد الياء ، كما فتحوا أين وكيف .

قال إبن جني : قال أحمد بن يحيىٰ : قولهم : آمين هو على إشباع فتحة الهمزة ، ونشأت بعدها الألف .

والتأمين قول آمين . وورد عنهم أن ؛(آمين) درجة في الجنة .

البيان

تحدثنا في مواطن كثيرة عن استجابة الدعوة وذكرنا الأسباب التي تعجلها والأسباب التي تؤجلها ، وذكرنا من ذلك السلب والإيجاب في كلتا الحالتين .

وفي هذه الفقرة المطروحة بين يدي هذا البحث ذكر ـ عليه السلام ـ هذه الإستجابة بشكل آخر من اشكال الكلام ، وبلون آخر من ألوان البلاغة . فقال : (دعوتك فأجبتني) وقد جاء كلا الفعلين بصيغة الماضي في الدعاء والإجابة ، وبذلك قد بلغ قمة الثقة بالله . فعلماء البلاغة قالوا : إنه لا يستعمل الماضي ويراد منه المستقبل إلاّ إذا كان الأمر محتم الوقوع ، وبذلك نستطيع أن نوجه هذه العبارة إلى وجهين مختلفين :

الوجه الأول : وهو ما ذكرناه من الإجابة المحتمة الوقوع في المستقبل ، وفي ذلك مبلغ الثقة بالله إذا استعمل الماضي على أنه قد أنجز

وأعطي سؤله كما لو كان يداً بيد . وإلى هذه الحالة أشار قوله ـ تعالى ـ : **﴿أتىٰ أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالىٰ عما تشركون﴾**(٤) قال في التبيان : وانما قال أتىٰ أمر الله ولم يقل يأتي ؛ لأن الله ـ تعالى ـ قرّب الساعة فجعلها كلمح البصر ، فقال : **﴿وما أمر الساعة إلاّ كلمح البصر أو هو أقرب﴾**(٥) وقال ـ سبحانه ـ : **﴿إقتربت الساعة وانشق القمر﴾**(٦) . وكل ما هو آت قريب ، فعبّر بلفظ الماضي ليكون أبلغ في الموعظة وإن كان قوله : **﴿فلا تستعجلوه﴾** يدل على أنه في معنىٰ يأتي(٧) .

الوجه الثاني : وهو أن تأخذ العبارة على ظاهرها فتقول : إنه ـ عليه السلام ـ قصد ما استجابه له من دعوات سابقة وتفضل عليه بها ، فهو كأنه يذكر النعم التي أفاضها عليه ـ سبحانه ـ جملة واحدة ؛ لأنه لا يستطيع عدّها ، وفي ذلك إشعار بالإعتراف بالعجز عن ذلك ـ كما أشرنا إليه في مواطن أخرىٰ كثيرة من الكتاب .

ثم يواصل على هذا النسق من الكلام فيقول : (وسألتك فأعطيتني) ولقد قلنا تواً بأن إستعمال الماضي إذا أريد منه المستقبل فهو يدل على تحتم الوقوع ، وبهذا المعنىٰ فهو لا يساوره شك في الإجابة على سؤاله الذي يرغب في تحققه .

وهكذا قوله : (ورغبت إليك فرحمتني) وفي معنىٰ الرغبة تقدم البحث في الجزء الأول وذلك عند التعرض إلى قوله ـ عليه السلام ـ :

---

(٤) سورة النحل، آية : ١ .

(٥) سورة القمر، آية : ١ .

(٦) سورة النحل ، آية : ٧٧ .

(٧) التبيان للطوسي : ج٦ ص٣٥٧ .

(اللهم إني أرغب إليك . . . النص) ص١٢٣ . ونضيف هنا أن الرغبة بهذا الإعتبار إذا زادت وبلغت منتهاها كان نتيجتها الرحمة من الله ؛ لأنها إذا بلغت غايتها كانت في معنىٰ اللجوء إليه ـ سبحانه ـ ، ولا شك أن اللجوء إليه ـ تعالى ـ يؤدي إلى الرحمة .

ثم يقول ـ عليه السلام ـ بهذا الأسلوب الذي مليء اعترافاً بما مضىٰ واطمئناناً للإجابة في ما يستقبل (ووثقت بك فنجيتني) والنجاة من حيث يعلم الإنسان أو لا يعلم شيء مفروغ منه ، إلاّ أن إعتراف الإنسان بأي نجاة على أنها من الله ، وأنه هو الذي كفاه قليل ؛ وذلك لأنه ربما لا يعلم بالأخطار التي تسبب له العطب ، ولولا أن الله ـ سبحانه ـ قد تكفل بصرف الأذىٰ عنه لأنه لم يكله إلى نفسه لما عاش الإنسان من لحظات حياته شيئاً من الوقت .

أما أن النجاة تكون نتيجة للثقة بالله فذلك شيء معروف ؛ لأن الإنسان عندما يثق بربّه يتوكل عليه وعندما يتوكل عليه فقد عمل بما أمره الله ؛ لأن الله قد أمر الإنسان بذلك ـ كما هو واضح من الآيات في الكتاب العزيز ـ مثل قوله ـ تعالى ـ : **﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده﴾**(٨) . وقوله ـ تعالى ـ : **﴿وتوكل على الله وكفىٰ بالله وكيلاً﴾**(٩) ، وغير ذلك من الآيات التي تحث الإنسان على التوكل على الله ، والمقصود من ذلك هو الإرتباط والتعلق بالله ، وهذا بعينه هو النجاة .

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (وفزعت إليك فكفيتني) والفزع كما مرّ إليك في فصل اللغة هو الفرق والخوف ، وفزعت من فلان خفت منه ،

---

(٨) سورة الفرقان ، آية : ٥٨ .

(٩) سورة الأحزاب ، آية : ٣ .

وفزعت إليه أي لجأت إليه في ساعة الخطر . والفزع إلى الله ـ سبحانه ـ من الخطر في ساعة العسرة هو آخر ما في الكنانة عند الإنسان ؛ لأنه في هذه الحال يمر بمراحل :

المرحلة الأولى : وهي مشاهدة الخطر ، وفي هذه المرحلة لا يستطيع الإنسان أن يحدد في ما إذا كان هو المقصود به أم لا ، فيكون خوفه في هذه الحال قليلاً ، كما لو رأىٰ الأسد يعدو وهو لا يعلم أنه يعدو خلفه أو خلف حيوان آخر .

المرحلة الثانية : وهي التحقق من الخطر ومن أنه هو المقصود به ففي هذه الحالة ينبغي أن يستعد للقائه كما لو كان الأسد قاصداً له بالذات .

المرحلة الثالثة : معرفة مقدار الخطر وحجمه ، وبذلك يستطيع أن يحدد موقفه من ذلك اما غالباً أو مغلوباً ، فإن كان مغلوباً كما لو كان لديه سلاح فتاك يقضي على الأسد فإنه في هذه الحال لا يعتريه الخوف كثيراً إذا كان كذلك ، وإن كان مغلوباً حاول أن يفر لينجو بنفسه من الخطر الذي تحقق منه .

المرحلة الرابعة : وهي إذا لم يكن لديه إستعداد لدرء الخطر عن نفسه بأي شكل ، وتحقق منه العجز فإنه يلجأ إلى غيره لمساعدته على الأسد الذي هو مصدر الخطر بالنسبة إليه .

ومن الطبيعي أن الإنسان وهو الذي تغلب عليه النواحي المادية . فإنه يلجأ أولاً إلى ما هو أقرب إلى طبيعته ، فالشبه منجذب إلى مثله ، فيطلب العون بشيء مادي لكي يحقق له النجاة ، ولا يأتي الإلتجاء إلى الله إلّا بعد القنوط من جميع هذه الوسائل بعد تحقق عجزها وعدم استطاعتها

على ذلك .

أما المعصوم فبحكم روحيته العالية فإنه يختصر الطريق إلى الله معرضاً عن كل هذه المراحل التي مرت لكي يصل إليه في وقت قريب ، ولذلك فإن إجابة دعوته تكون أسرع من غيره من سائر البشر .

المرحلة الخامسة : وهي مرحلة الإلتجاء إلى الله ـ سبحانه ـ وتعالى ـ وذلك بفطرة الإنسان لأنه يبحث عن نجاة أينما كانت ، وقد عجزت الوسائل المادية فعليه أن يستخدم الوسائل الأخرىٰ ويتعامل معها لتحقيق غرض النجاة ، وقد تعرض القرآن الكريم لهذه الظاهرة عند الإنسان ، وذلك في قوله ـ تعالى ـ : **﴿وإذا مسّكم الضر في البحر ضل من تدعون إلاّ إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾**[١٠] قال في الميزان : محصله إن الإنسان إذا انقطع عن جميع الأسباب الظاهرية وأيس منها لم ينقطع عن التعلق للسبب من أصله ، ولم يبطل منه رجاء النجاة من رأس ، بل رجىٰ النجاة وتعلق قلبه بسبب ما يقدر على ما لا يقدر عليه سائر الأسباب ، ولا معنىٰ لهذا التعلق الفطري لولا أن هناك سبباً فوق الأسباب إليه يرجع الأمر كله ، وهو الله ـ سبحانه ـ ، وليس يصرف الإنسان عنه إلاّ الإشتغال بزخارف الحياة الدنيا والتعلق بالأسباب الظاهرية والغفلة عمّا وراءها .

والمراد بالضلال معناه المعروف فهو خلاف الهدىٰ ، والكلام على تمثيل لطيف ، كأن الإنسان إذا مسّه الضر في البحر وقع في قلبه أن يدعو لكشف ضرّه قصده آلهته الذين كان يدعوهم ويستمر في دعائهم قبل ذلك ، وأخذوا يسعون نحوه ويتسابقون في قطع الطريق إلى ذكره ليذكرهم

---

(١٠) سورة الإسراء ، آية : ٦٧ .

ويدعوهم ويستغيث بهم ، لكنهم جميعاً يضلون الطريق ولا ينتهون إلى ذكره فينساهم ، والله ـ سبحانه ـ مشهود لقلبه حاضر في ذكره ، يذكره الإنسان عند ذلك ، فيدعوه وقد كان معرضاً عنه فيجيبه وينجيه إلى البر(١١) .

قال المؤلف : وبذلك يظهر أن إعتماد الإنسان على الإنسان لا يأتي في كثير من حالات الخطر ؛ وذلك لأن النجاة مقرونة بمعرفة الخطر مسبقاً ومحاولة إزالة أسبابه ، وهذا لا يتأتىٰ للإنسان بحال من الأحوال ؛ لأنه علم غيب ولا يعلم الغيب إلّا الله . هذا من جهة ، ومن جهة أخرىٰ إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد للإنسان أن ينشد إليه في كل حال من الأحوال ، وخصوصاً في ساعة العسرة ، لكن ذلك لا بشيء مادي بل بقلبه وتفويض الأمور إليه ، وبذلك يبلغ الإنسان الدرجات العالية في الإيمان فيكون مكفياً من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم .

---

(١١) الميزان : ج١٣ ص١٥٣ .

الصلاة على النبي باسمه وصفته

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (أللهم صلّ على محمد عبدك ورسولك ونبيك) وصل كلامه ـ عليه السلام ـ بهذه العبارة المباركة وهي الصلاة على (محمد) وهو الإسم العلم للنبي الكريم ـ صلى الله عليه وآله ـ ثم وصفه ـ عليه السلام ـ بكونه عبداً لله ، وفي ذلك أبلغ المدح والتعظيم له ، لأن العبودية لله ـ سبحانه ـ هي عين الحرية ؛ لأنها لا تعترف إلّا بمعبود واحد ، لا شريك له ، بينما استعباد الإنسان للإنسان يتعدد ويتغير من عبودية إلى أخرىٰ ، ومن معبود إلى آخر . وهذا نظير قوله ـ تعالى ـ : **﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . . . ﴾**[١٢] الآية وقد أضاف العبد إلى نفسه لكي يعتز بعزه ، وفي ذلك إشارة إلى أن هذا الشرف العظيم والمعجزة الخالدة أبد الدهر لم ينلها إلّا بكونه عبداً مخلصاً لله .

ثم ذكر ـ عليه السلام ـ شرفاً آخر يتشرف به ذلك المسمىٰ إضافة إلى شرف العبودية ، وهو كونه رسولاً ونبياً . وقد ذكرنا في كثير من أبحاث الكتاب الفرق بين الرسول والنبي وقلنا في ما قلنا إن الرسول هو الذي يرىٰ

---

(١٢) سورة الإسراء ، آية : ١ .

الملك المبلغ عن الله ويسمعه ، ولكن النبي هو أعم من ذلك فقد يراه ويسمعه ، وقد يسمعه ولا يراه ، وقد تكون عن طريق الرؤيا ، فيثبت بذلك بينهما نسبة العموم والخصوص المطلق .

والظاهر أن المراد من ذكر النبي بإسمه ودرجاته عند الله ، وهي الرسالة والنبوة هو التوسل منه ـ عليه السلام ـ إلى الله بجدّه محمد ، وبرسالته وهي خاتمة الرسالات وبنبوته وهي المقام العالي والشرف الرفيع الذي لا يدانيه شرف وقد فضل الله به ذلك النوع من البشر دون غيره .

ثم أضاف أهل بيته إليه فقال ـ عليه السلام ـ : (وعلى آله الطيبين الطاهرين أجمعين) وفي ذلك إشارة إلىٰ أن أهل بيته لهم المكانة العالية دون غيرهم من الناس ، وهؤلاء الذين أوصىٰ بهم النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ في آخر لحظة من لحظات حياته ، وقد ذكر القرآن هذا المعنىٰ في قوله ـ تعالى ـ : ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودة في القربىٰ . . .**﴾[13] الآية .

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (وتمم لنا نعماءك ، وهنئنا عطاءك) وقد ذكرنا حول هذه النقطة بالذات في الجزء الأول من الكتاب شرحاً مفصلاً عند قوله ـ عليه السلام ـ : (حتى إذا أتممت علي جميع النعم) وعرضنا لذلك في بحث سابق من هذا الجزء عند قوله ـ عليه السلام ـ : (وأتمم علينا نعمتك) فلا حاجة بنا إلى تكرار ذلك الحديث .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (وهنئنا عطاءك) فإنه بحسب ما ورد في فصل اللغة أن المعنىٰ حصول هذا العطاء بدون مشقة . أما إذا جاء هذا العطاء بالمشقة والتعب فإنه لا يكون هنيئاً قطعاً . وبعبارة أخرىٰ إنه ـ عليه

---

(١٣) سورة الشورىٰ ، آية : ٢٣ .

السلام ـ يسأل من الله أن يتفضل عليه بالعطاء قبل السؤال كما يتفضل على بقية خلقه ؛ لأنه ـ سبحانه ـ من عادته الإحسان إليهم ، لأن السؤال مشقة ؟ ولأن العطاء مع المشقة لا يكون فيه هناءة كما لو كان بغير سؤال . وقد ورد في ما أثر من الأدعية عن أهل البيت الطاهر ـ عليهم السلام ـ قولهم : (يا من يعطي من سأله ، يا من يعطي من لم يسأله ولم يعرفه تحنناً منه ورحمة . . .) الدعاء وإلى هذا أشارت أبيات وردت على الخاطر في الحال :

يا معطي الخير من قبل السؤال وقد	كان العطاء جزيلاً غير محدود
يا رازق الطير في الافنان إن يدي	تعرضت لنوال غير معدود
أنا الفقير الذي قد كان ذا أمل	وأنت كل الرجايا خير معبودو
حصت يدي المعاصي فهي قد قصرت	عن السؤال ولكن أنت ذو الجود
فشأنك اللطف والإحسان كم تركت	يداك كل صنيع منك محمود

حقيقة الشكر

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (واجعلنا لك شاكرين) والشكر هو غاية ما ينتهي إليه العبد في عبادته ، ولذلك فقد ختمت الصلاة وهي الركن الأعظم من العبادات وأفضلها بالشكر .

وإذا نظرت إلى حقيقة الشكر من الإنسان رأيت أنه لا يمكن أن يأتي به إلاّ من الله ، فهو قد أولاه النعم وأفاضها عليه ، ثم أمره بالشكر ووفقه إليه وهذا نعمة أخرىٰ يتفضل بها المولىٰ على عبده . ولو حرص العادون على أن يبلغوا إحصاءً للنعم فضلاً عن القيام بشكرها لما استطاعوا ، ولكن الله قد قبل منهم هذا الشكر الذي عرفه لهم .

فقوله ـ عليه السلام ـ : (واجعلنا لك شاكرين) يعني أن هذه النعم التي مرّ ذكرها في هذه الفقرة المطروحة أمام هـذا البحث لا نستطيع أن نقوم بشكرها لولا أن تـوفقنا أنت لـذلك ؛ لأنـا لا نهتدي إلى كيفيـة هذا الشكر ، والعبد ما لم يوفقه الله لطاعته فلا يتمكن من الطاعة ، والشكر كما قلنا هو غاية الغايات من العبادة .

وفي قـولـه ـ تعـالى ـ : ﴿وسيجـزي الله الشـاكـرين﴾[١٤] قـال

---

(١٤) سورة آل عمران ، آية : ١٤٤ .

المفسرون : إن حقيقة الشكر إظهار النعمة ، كما أن الكفر الذي يقابله هو إخفاؤها ، وإظهار النعمة هـو استعمالهـا في محلها الـذي أراده منعمها ، وذكر المنعم بها لساناً وهو الثناء ، وقلباً من غير نسيان . فشكره ـ تعالى ـ على نعمة أن يذكر عند إستعمالها ، ويوضع النعمة في الموضع الذي أراده منها ، ولا يتعدىٰ ذلك ، وإن من شيء إلاّ وهو نعمة من نعمه ـ تعالى ـ ، ولا يريد بنعمة من نعمه إلاّ أن تستعمل في سبيل عبادته . قال ـ تعالى ـ : **﴿وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوهـا إن الإنسان لظلوم كفار﴾**[15] فشكـره على نعمته أن يـطاع فيها ويـذكر مقـام ربوبيتـه عندها .

وعلى هـذا فشكره المـطلق من غير تقييـد ذكره ـ تعـالى ـ من غيـر نسيان ، وطاعته من غير معصية ، بمعنىٰ قوله ـ تعالى ـ : **﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾**[16] إذكروني ذكراً لا يخالطه نسيان ، وأطيعوا أمري طاعة لا يشوبها عصيان ، ولا يصغىٰ إلى قول من يقول إنه أمـر بما لا يـطاق فإنـه ناشٍ من قلة التدبر في هذا الحقائق والبعد من ساحة العبودية .

فالشاكرون هم الذين ثبت فيهم وصف الشكر ، واستقرت فيهم هذه الفضيلة ، وقد بان أن الشكر المطلق هو ألاّ يذكر العبد شيئاً وهو نعمة إلاّ وذكر الله معه ، ولا يمس شيئاً وهو نعمة إلاّ ويطيع الله فيه . فقد تبين أن الشكر لا يتم إلاّ مع الإخلاص لله ـ سبحانه ـ علماً وعملاً ، فالشاكرون هم المخلصـون لله الـذين لا مـطمـع للشيـطان فيهم[17] ؛ لأنهم خـلاصـة

---

(١٥) سورة إبراهيم، آية : ٣٤ .

(١٦) سورة البقرة، آية : ١٥٢ .

(١٧) الميزان للسيد الطباطبائي : ج٤ ص٣٨ .

البشر[١٨] .

وفي هـذا المعنىٰ وردت روايـات كثيـرة عن أهـل البيت ـ عليهم السلام ـ تشير إلى حقيقة الشكر :

ففي الكـافي بإسنـاده عن عمر بن يـزيد قـال : سمعت أبا عبـدالله ـ عليه السلام ـ يقول : شكر كل نعمة وإن عظمت أن تحمد الله .

وفيـه بإسنـاده عن حمّاد بن عثمـان قال : خـرج أبو عبـدالله ـ عليه السـلام ـ من المسجد ، وقـد ضـاعت دابتـه فقـال : لئن ردّهـا الله عليّ لأشكرن الله حق شكره فما لبث أن أتي بها فقال : الحمد لله . فقال قائل له : جعلت فداك : ألست قلت : لأشكرن حق شكره ؟ فقال أبو عبدالله ـ عليه السلام ـ : ألم تسمعني قلت : الحمد لله ؟ .

وفيه باسناده عن أبي بصير قال : قلت لأبي عبدالله ـ عليه السلام ـ : هل للشكر حد إذا فعله العبد كان شاكراً ؟ قال : نعم ، قلت : وما هو ؟ قال : الحمد لله على كل نعمة عليه في أهل ومال ، وان كان في ما أنعم الله عليه في ماله حق أدّاه ، ومنه قوله ـ عزّ وجلّ ـ : **﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾**[١٩] ومنه قوله : **﴿أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنـزلين﴾**[٢٠] وقولـه : **﴿رب ادخلني مدخـل صدق واخـرجني مخـرج**

---

(١٨) الخلاصة هي الزبدة تكون أفضل مـا في الشيء ، وخلاصـة البشر يعني أفضلهم ، والأنبياء هم المخلصون (بالفتح) والمخلصون (بالكسر) من البشر الذين لا ينالهم ما ينـال غيرهم من النـاس من العيون ، كخبث الأصـل ، والعاهـات الجسديـة ، وسوء الأخلاق وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى : **﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾** سورة يوسف ، آية : ٢٤ .

(١٩) سورة الزخرف ، آية : ٤٣ .

(٢٠) سورة المؤمنون ، آية : ٢٣ .

صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾[٢١] .

وفي تفسير العياشي عن أبي ولّاد قال : قلت لأبي عبدالله ـ عليه السلام ـ : أرأيت هذه النعمة الظاهرة علينا من الله أليس ان شكرناه عليها وحمدناه زادنا كما قال الله في كتابه : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[٢٢] قال : نعم من حمد الله على نعمه وشكره وعلم أن ذلك منه لا من غيره زاده الله نعمة .

ومن خلال ما تقدم من الروايات يظهر لك أن الشكر وهو عبادة خالصة لله فإنها لا تكون إلّا بتوفيقه ـ سبحانه ـ ولذلك قال ـ عليه السلام ـ : (واجعلنا) والجعل من الله يعني التوفيق والهداية للشكر إذ لا يمكن أن نفصل هذا الشكر عن العبادة لله ـ سبحانه ـ ، هذا ما تفيده العبارة بحسب السياق .

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (ولآلائك ذاكرين) والآلاء كما سبق تفسيرها في مكان آخر من الكتاب هي النعم ، وذكرها على سبيل التعدد للقيام بشكرها واحدة واحدة ضرب من المستحيل ، ولكن ذكرها ولو إجمالاً قد يكون ممكناً ، وكذلك الشكر عليها وهو من لوازم الذكر للنعم . وقد سأل الله توفيقه للشكر وتعداد النعم لأنه يرغب في الحصول على المزيد منها . وذلك طبقاً لما أشار إليها ـ سبحانه ـ في الكتاب العزيز : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ . ثم إن ذكر الآلاء وهي النعم دائماً يعني عدم مبارحة العبادة ـ كما قلنا في الشكر ـ فهو عندما يقول : (ولآلائك ذاكرين) يعني اجعلنا دائماً في عبادتك ، لأن ذكر النعم يلزم الشكر

---

(٢١) سورة الإسراء ، آية : ١٧ .

(٢٢) سورة إبراهيم ، آية : ١٤ .

عليها ، والشكر عليها هو العبادة الحقة .

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (آمين ربّ العالمين) ولقد سبق تفسير هذه الكلمة في فصل اللغة وقلنا بأنها طلب معناه (أللهم استجب) فهي دعاء ، والعالمين جمع عالم ، وهو من ملحقات جمع المذكر السالم الذي يرفع بالواو وينصب ويجر بالياء ، وهو بعد أن طلب من الله ما أراد من النعم ، والتوفيق لشكر هذه النعم سأل الله الإستجابة والعطاء ؛ لأنه يوم عطاء ، ويوم مسألة ، فتح الله فيه أبواب الرحمة على عباده ، ووعدهم بالإستجابة على كل سؤال من شأنه صلاح الإنسان في الدنيا والآخرة .

وعندما يسأل ـ عليه السلام ـ إستجابة الطلب من الله هو على يقين من أن جميع ما سأل من شأنه كذلك ، وكل ما ورد في طلبه فهو لا يخرج عن كونه صلاح لأمره في الدنيا والآخرة .

وقد ورد في ذلك عن الإمام الرضا ـ عليه السلام ـ بما معناه : ان الله يستجيب في ذلك اليوم لمن حضر عرفة المؤمن والكافر ، فيعطي المؤمن خير الدنيا والآخرة ، ويعطي الكافر خير الدنيا فقط .

قال عليه السلام :

[اَللَّهُمَّ يا مَنْ مَلَكَ فَقَدَّرَ ، وَقَدَّرَ فَقَهَرَ ، وَعُصِيَ فَسَتَرَ ، وَاسْتُغْفِرَ فَغَفَرَ ، يا غايَةَ رَغْبَةِ الرّاغِبينَ ، وَمُنْتَهى أَمَلِ الرّاجينَ ، يا مَنْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ، وَوَسِعَ الْمُسْتَقيلينَ رَأْفَةً وَحِلْماً] .

اللُّغَة

فقهر : القهر الغلبة والأخذ من فوق ، والقهّار من صفات الله ـ عزّ وجلّ ـ ، قال الأزهري : والله القاهر القهّار ، فهو خلقه بسلطانه وقدرته ، وصرفهم على ما أراد طوعاً وكرهاً .

وقال ابن الأثير : القاهر هو الغالب جميع الخلق ، وقهره قهراً غلبه ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿**وهو القاهر فوق عباده**﴾[1] . وقال المخبل السعدي :

تمنّى حصين أن يسود جذاعه فأمسى حصين قد أذل وأقهرا

عصى : العصيان خلاف الطاعة وعصى العبد ربّه إذا خالف أمره ،

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٦١١ ، ١٨ .

ويقال للجماعة إذا خرجت عن الطاعة قد استعصت .

وروي أن رجلاً قال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصيهما فقد غوي . فقال له النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ : بئس الخطيب أنت . قل ومن يعصي الله ورسوله فقد غوي ؛ إنما ذقه لأنه جمع في الضمير بين الله ـ تعالى ـ ورسوله في قوله : (ومن يعصيهما) فأمره أن يأتي بالمظهر ليترتب إسم الله ـ تعالى ـ في الذكر قبل إسم الرسول .

قالوا : وفي ذلك دليل على أن الواو تفيد الترتيب في الذكر .

قلنا : أن الواو لا تفيد ترتيباً في هذه العبارة ، وإنما أفادت مجرد العطف . ولكن الذي أفاد الترتيب هو القرينة الدالة على وجوب تقديم الأفضل وهو إسم الله ـ تعالى ـ على الفاضل وهو اسم الرسول .

أحاط : حاطه حوطاً وحيطة وحياطة حفظه وتعهده ، واحتاط الرجل أخذ في أموره بالأحزم . واحتاط الرجل لنفسه أي أخذ بالثقة ، والحائط الجدار لأنه يحوط ما فيه .

ويقال هذا الأمر ما أحطت به علماً . ومنه قوله ـ تعالى ـ : **﴿أحطت بما لم تحط به﴾**(٢) أي علمته من جميع جهاته . وأحاط علمه كل شيء أي شمل كل شيء ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : **﴿وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾**(٣) .

المستقيلين : في الحديث أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم أي ذوي المكانة . وأقال الله عثرتك ، وأقالكها . ويقال أقاله يقيله إقالة . وتقايلا

---

(٢) سورة النمل ، آية : ٢٢ .

(٣) سورة الطلاق ، آية : ١٢ .

إذا فسخا البيع ، وعاد المبيع إلى مالكه والثمن إلى المشتري إذا كان قد ندم أحدهما أو كلاهما . وتكون الإقالة في البيعة والعهد . والإستقالة طلب الإقالة . ويقال أقال الله فلاناً عثرته بمعنىٰ الصفح عنه .

البيان

بدأ هنا يسأل الله ويخاطبه بلهجة المنكسر ، ويصفه بصفة الهيمنة والقدرة ، وذلك نمط آخر في أسلوب الدعاء جديد . وعندما وصفه بهذه القدرة كان من لوازمها الإعتراف بالضعف والتصاغر أمام قدرة لا حدود لها .

الملك الدائم والمتزلزل

وقد بدأ ـ عليه السلام ـ بقوله : (أللهم يـا من ملك فقدر ، وقـدر فقهر) وحقيقة هذا الملك الذي أشار إليه الحسين ـ عليه السلام ـ في هذه العبـارة يختلف عن الملك عند الإنسـان ، وذلـك للحقـائق التـاليـة التي نلتمس في ضمنها كثيراً من الفوارق بين هذا وذاك :

١ ـ الملك الجعلي أو الإعتباري كملك الإنسان للمال والعقار ، فهو ملك متزلزل لأنه ينتقل من حالة إلى أخرىٰ ، ومن شخص إلى آخرفالدينار لا يستطيع الإنسان أن يستفيد منه حتى يصرفه في الوجه المطلوب وهكذا بقية الممتلكات .

٢ ـ الملك الحقيقي وهـو الملك الدائم الـذي لا يتحول ولا يتغيـر وهذا الملك خاص به ـ سبحانه ـ لأنه لا يتغيـر ولا يتحول فهـو ملك دائم أبداً ما بقي الليل والنهار .

بعد هذا نقول إن الملك الذي أشـار إليه في العبـارة هو من النـوع الثاني لأنه ـ عليه السلام ـ قـد قرن الملك بـالقدرة . ولمـا كانت القـدرة المتعلقة به ـ سبحانه ـ هو من الصفات اللازمة لأن لسـان العالم وإلبـاسه الوجود بعد العدم ينادي بثبوت القدرة على الوجه الأتم لصانع هذه الأشياء

والملبس لها بعد الإمكان الوجود الفعلي . دلنا على أن المقصود بالملك هو ذلك الملك الذي لا يفنىٰ .

أما إقتران الملك بالقدرة فإنه شيء بديهي ؛ لأنه لا يمكن أن تتحقق قدرة بدون ملك ؛ لأن المالك يتصرف في ملكه بقدرة ، ومعنىٰ ذلك : إن هذا التصرف هو تصرف سائغ معقول ، أما التصرف في ملك الغير وإن استطاع أن يعمل فيه ما يشاء إلاّ أن ذلك لا يعتبر من القدرة المعقولة في شيء ؛ لأنه ممنوع شرعاً وعقلاً . وقد أشارت إلى هذا المعنىٰ الآية الكريمة في قوله ـ تعالى ـ : **﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾**[٤] قال الطبرسي في مجمع البيان : الملك هو اتساع المقدور لمن له السياسة والتدبير ، ومعناه : الذي هو المالك ، وله الملك يؤتيه من يشاء ، ويتصرف فيه كما يشاء ، وإنما ذكر اليد تأكيداً ، ولأن أكثر التصرفات والعطايا باليد ، ثم قال : (وهو على كل شيء قدير) من إنعام وانتقام . وقيل معناه : إنه قادر على كل شيء ويصح أن يكون مقدوراً له ، وهو أخص من قولنا : وهو بكل شيء عليم ، لأنه لا شيء إلاّ ويجب أن يعلمه ، إذ لا شيء إلاّ ويصح أن يكون معلوماً في نفسه ، ولا يوصف ـ سبحانه ـ بكونه قادراً على ما لا يصح أن يكون مقدوراً في نفسه مثل ما تقضىٰ وقته مما لا يبقىٰ .

وقال في الميزان : (الذي بيده الملك) يشمل بإطلاقه كل ملك ، وجعل الملك في يده إستعارة بالكناية عن كمال تسلطه عليه ، وكونه متصرفاً فيه كيف يشاء كما يتصرف ذو اليد في ما بيده ، ويقلبه كيف يشاء ، فهو تعالى يملك بنفسه كل شيء من جميع جهاته .

---

(٤) سورة الملك ، آية : ١ .

ثم قال : وقوله : (وهو على كل شيء قدير) إشارة إلىٰ كون قدرته غير محدودة بحد ولا منتهية إلى نهاية ، وهـو لازم إطلاق الملك بحسب السياق ، وإن كان إطلاق الملك وهو من صفات الفعل من لـوازم إطلاق القدرة ، وهي من صفات الذات .

وبكلمة أخيرة أن القـدرة لما كـانت متعلقة بـالملك أصبحت تعني التصرف المطلق بدون حرج . هذا بالنسبة إلى الإنسان ، أما بالنسبة إلى الله فإنه لمّا كان له ملك السمٰوات والأرض ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فإن قدرته تعني علمه بكل شيء ـ كما سبق في تفسير الآية الكريمـة السالفـة الذكر ـ لأنه لا يمكن التصرف بدون علم ، مع مراعاة تنزيه فعله ـ سبحانه ـ عن العبث ، واتصافه بالحكمة ، فقدرته ـ سبحانه ـ مربوطـة بمرعـاة هذه الصفـات التي يتصف بها ، وبـذلك يتجلى المعنى المقصـود من العبارة السابقة .

القهر والغلبة

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (وقدر فقهر) فقد مرّ معنا في بحث اللغة أن القهر هو الغلبة ، ومعنىٰ ذلك أن القدرة والقهر كلمتان متقاربتان في المعنىٰ .

وقد أشار القرآن المجيد إلى هذا المعنىٰ في قوله ـ تعالى ـ : ﴿**وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير**﴾(٥) وقد ذكر المفسرون : أنه إذا كانت الأسباب الكونية إنما أظهرها الله ـ سبحانه ـ لتكون وسائط في حدوث الحوادث ، فتضع أثرها في متسبباتها ، وهي كائنة ما كانت مضطرة إلى مطاوعة ما يريده الله ـ سبحانه ـ فيها وبها ، يصدق عليها عامة أنها مقهورة لله ـ سبحانه ـ والله قاهر عليها .

القاهر من الأسماء التي تصدق عليه ـ تعالى ـ كما تصدق على غيره ، غير أنه بين قهره ـ تعالى ـ وقهر غيره فرقاً ، وهو أن غيره من الأشياء إنما يقهر بعضها بعضاً وهما مجتمعان من جهة مرتبة وجودهما ، ودرجة كونهما ، بمعنىٰ أن النار تقهر الحطب على الإحتراق والإشتعال ، وهما

(٥) سورة الأنعام ، آية : ١٨ .

معاً موجودان طبيعيان يقتضي أحدهما بالطبع خلاف ما يقتضيه الآخر ، لكن النار أقوىٰ في تجميل أثرها على الحطب منه من النار ، فهي تظهر عليه في تأثيرها بأثرها فيه .

والله ـ سبحانه ـ قاهر لا كقهر النار للحطب ، بل هو قاهر بالتفوق والإحاطة على الإطلاق ، بمعنىٰ أنا إذا نسبنا إحراق جسم وإشعاله كالحطب ـ مثلاً ـ إلى الله ـ سبحانه ـ فهو ـ تعالى ـ قاهر عليه بالوجود المحدود الذي أوجده به . وقاهر عليه بالخواص والكيفيات التي أعطاها له وعبأه بها . قاهر عليه بالنار التي أوقدها لإحراقه وإشعاله ، وهو المالك لجميع ماللنار من ذات وأثر ، قاهر عليه للقطع تُحَدث بالمقاربة للحطب ، ووضع الإحتراق والإشتعال موضعه ، فلا مقاومة ولا تعصي ولا جموح ولا شبه ذلك قبال إرادته ومشيئته لكونها من أفق أعلىٰ .

والله ـ سبحانه ـ قاهر فوق عباده يمسهم بالضر والخير ويذللهم لمقاوته ، وقاهر فوق عباده فيما يفعلونه ويؤثرون به من أثر ؛ لأنه المالك لما ملكهم ، والقادر عليه أقدرهم .

بعد هذا نقول : إن المتأمل في متن العبارة (وقدر فقهر) يرىٰ أن هذا القهر الذي أشار إليه ـ عليه السلام ـ وربطه بالقدرة قد يلتمس من مزيج الكلمتين أن القهر يأتي بحكمة لأنه قد أتىٰ عن قدرة ، وذلك لأن القدرة المتسلطة والمهيمنة على جميع الموجودات تعطي سلباً وإيجاباً . فإذا صح لنا أن نقول : أن الضر هو قهر ، فإن الخير قد يأتي في بعض موارده وهو قهر آخر . فالطاعة بجميع أنواعها هي نوع من القهر ، ولكنها في جانب إيجابي محض ؛ لأنها في مصلحة الإنسان فرداً وجماعةً . والموت كذلك وإن رفضته النفوس واشمأزت منه الموجودات جميعاً . وفي دعاء الصباح المنسوب إلى الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ

يقول : (فيا من توحد بـالعز والبقـاء ، وقهر عبـاده بالمـوت والفناء . . . الدعاء) .

وبذلك يمتاز القهر المنسوب إليه ـ تعالى ـ عن القهر المنسوب إلى الإنسان ؛ لأن القهر المنسوب إلى الإنسان لا يخلو من ضرر . وذلك بفعل العـواطف والشهـوات التي تهيمن على الإنســان فتضله عن الصــراط السوي .

الستر على القبيح

ثم ذكر ـ عليه السلام ـ كيفية التعامل بين الله وبين الإنسان في حال المعصية فقال : (وعصي فستر ، واستغفر فغفر) .

أما المعصية والإنسان فهي خبزه اليومي الذي لا بدّ له منه ، إلاّ أن هناك من يتدارك ما فرط منه من المعاصي أولاً بـأول فيندم على ذلـك ، وبذلك يتدارك التوبة .

ومن الناس من يستمر في غيّه ، وإصراره على عمل القبيح ، وبذلك يزيد من خطاياه ، وتتسلسل أرقام الذنوب في تضاعفها ، وقد أشرنـا إلى ذلك في بحث متقدم بعنوان (التوبة) .

بقي أن نشيـر إلى معنىٰ الستر من الله ـ سبحـانه وتعـالى ـ وما هـو المقصود بذلك .

وقبـل هذا يجـدر بنا أن نعـرف بأن الستـر لا يستعمل إلاّ لـلأشياء القبيحة التي يقترفها الإنسان ، أما الأشياء الجميلة فحجبها لا يسمىٰ ستراً إلاّ أنه قد يستعمل ذلك إستعمالاً مجازياً . وإلى ذلك أشار الدعـاء الوارد عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ المنسوب إلى حملة العرش (. . . يا من أظهر الجميل وستر القبيح ، يا من لم يؤاخذ بالجريـرة ، يا من لم يهتـك

الستر . . . الدعاء) ، فإن لم يكن كل الإستعمال فمعظمه في ذلك . والمرأة تستر وجهها عن أعين الناظرين ؛ لأنها عورة ، والعورة هو ما استقبح إظهاره للإنسان . واشترط الشرع الشريف في صحة الصلاة ستر العورة ؛ لأن الإنسان يقابل ربّه وهو جميل ، وهي قبيحة ، ولا يمكن الجمع بين الجميل والقبيح في آن واحد إلّا إضطراراً .

بعد هذا نستطيع أن ندرك المعنىٰ في استعمال الستر من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، واستعمال ستر الإنسان عندما تظهر منه القبائح ، فالإنسان بطبعه دنيوي مادي تميل به غرائزه إلى حب الشهوات من النساء والبنين والمال والطعام ، فأباح الله له ذلك ضمن حدود وضوابط معينة لا يمكن له أن يتعدىٰ حدودها ، وذلك لوقوع الضرر أما به أو بغيره ، ولكن الإنسان قد ينفلت ويتعدىٰ ذلك بتلك الدوافع الشهوانية ، ولكنه لا يفتأ أن يفيق من غفلته فيندم على فعله . والله ـ تعالى ـ يعطي الإنسان مندوحة لكي يتدارك توبته ، ويتأمل في ما بدر منه ، فيعود إلى جادة الصواب فيخفي الباري هذه القبائح التي نشأت من الذنوب عند الإنسان ويسترها عليه ؛ لأنه لا يحب له إلّا الجميل ؛ لأنه جميل ويحب الجمال ، فلا يرضىٰ لعبده إلّا الجميل ، فقوله ـ عليه السلام ـ : (وعصي فستر) أي أن هذه الأشياء القبيحة وإن كانت قد صدرت من العبد وهي لم يرضها الله لعبده إلّا أنه لم يفضحه بها ، ولم يكشف ستره عنها ، وهذا من جملة التفضل والمن على العباد ، وإلى هذا أشار قوله ـ تعالى ـ : **﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم﴾**[٦] جاء في تفسير هذه الآية : لا شك أن الله ـ سبحانه ـ خالق كل شيء لا موجد غيره ، فلا

---

(٦) سورة فصّلت ، آية : ٢٢ .

يحـول بين خلقـه وبينهم شيء ، ولا يحجب خلقـه من حـاجب . فهـو ـ تعالى ـ مع كل شيء أين ما كان ، وكيف ما كان . قال ـ تعالى ـ : ﴿إن الله على كل شيء شهيد﴾[٧] .

فالإنسان في ما كان كان معه ، وأي عمل عمله كان الله مع عمله ، وأي عضو من أعضائه إستعمله ، وأي سبب أو طريق اتخذه لعمله كان مع ذلـك العضـو والسبب والـطريق ، قـال ـ تعـالى ـ : ﴿وهـو معكم أينما كنتم﴾[٨] ، وقـال ـ تعـالى ـ : ﴿أفمن هـو قـائم على كـلِّ نفس بمـا كسبت﴾[٩] ، وقال ـ سبحانه ـ : ﴿إن ربّك لبالمرصاد﴾[١٠] .

ومن هنا نستنتج أن الإنسان ـ وهو جار في عمله ـ واقع بين مراصد كثيرة يرصده من كل منها ربّه ويرقبه ويشهـده . فمرتكب المعصيـة ـ وهو متوغل في سيئته ـ غافل عنه تعالى ـ في جهل عظيم بمقام ربّه واستهانة به ـ سبحانه ـ وهو يرصده ويرقبه .

وهذه الحقيقة أشار إليها الكتاب العزيز في آيات كثيرة وخصوصاً في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وما كنتم تستترون . . . ﴾ الآية على ما يعطيه السياق .

---

(٧) سورة الحج ، آية : ١٧ .

(٨) سورة الحديد ، آية : ٤ .

(٩) سورة الرعد ، آية : ٣٣ .

(١٠) سورة الفجر ، آية : ١٤ .

الإستغفار مرة أخرى

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (واستغفر فغفـر) وقد مـرّ معنا في بحث سابق معنىٰ الإستغفار ، وقد تحدثنا فيه كثيراً ، وقلنا بأنه مربوط بالتوبة .

ويمكن القول هنا بأن قبول الإستغفار يدور مـدار الإخلاص فيـه ، والإقـلاع عن المعاصي ، والتصميم على عـدم العود . ولكن ليس معنىٰ ذلك أن الإنسان لا يقترف ذنباً ، فإن هذا من شأن المعصومين ، لأن ذلك تكليف بما لا يطاق . ولكنه قد يساور الإنسان الذنب غير أنه يعمل ذلـك السوء بجهالة ، وهذا ما أشارت إليه الآيات الكثيرة منها قوله ـ تعـالى ـ : **﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتـوبون من قـريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً﴾**[11] .

وهذه حقيقة واقعـة وطبيعة إنسـانية لا محيص عن الإعتـراف بها ؛ ولهذا فتح الله باب التوبة على مصراعيه .

وإذا قلنا أن معنىٰ التوبة لغة هي الرجوع ، فهي تفسـر برجـوع من العبد إلى الله بالندامة والإنصراف عن الإعراض عن العبودية بعد توفيق من

---

(١١) سورة النساء ، آية : ١٧ .

الله ـ سبحانه ـ للرجوع إلى ربّه بغفران ذنبه ، وقد مرّ مراراً أن توبة واحدة من العبد محفوفة بتوبتين من الله ـ سبحانه ـ على مايفيده القرآن الكريم .

وذلك أن التوبة من العبد حسنة تحتاج إلى قوة الحسنات من الله ، والقوة لله جميعاً . فمن الله توفيق الأسباب حتى يتمكن العبد من التوبة ، ويتمشىٰ له الإنصراف عن التوغل في غمرات البعد ، والرجوع إلى ربّه . ثم إذا وفق للتوبة والرجوع احتاج في التطهر من هذه الألواث ، وزوال هذه القذرات ، والورود والإستقرار في ساحة القرب إلى رجوع آخر من ربّه إليه بالرحمة والحنان والعفو والمغفرة .

وهذان الرجوعان من الله ـ سبحانه ـ هما التوبتان الحافتان لتوبة العبد ورجوعه ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾[١٢] وهذه هي التوبة الأولى ، وقال ـ تعالى ـ : ﴿فأولئك أتوب عليهم﴾[١٣] وهذه هي التوبة الثانية وبين التوبتين منه ـ تعالى ـ توبة العبد كما سمعت .

---

(١٢) سورة التوبة ، آية : ١١٨ .

(١٣) سورة البقرة ، آية : ١٦٠ .

الرغبة والرجاء

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (يا غاية رغبة الراغبين ، ومنتهىٰ أمل الراجين) ولقد تقدم بحث الرغبة في الجزء الأول عند قوله ـ عليه السلام ـ : (أللهم إني أرغب إليك ، وأشهد بالربوبية لك) ص١٢٣ وهنا نقول إن رغبة الإنسان في الله أو رغبته إلى الله تتركز في مستوىٰ عمله في الطاعة فكلما أخلص في الطاعة إلى الله رغب إليه ، ولا يتحقق الدور الباطل لأن الطاعة سابقة على الإخلاص وهو ينشأ منها .

ويظهر من كلامه ـ عليه السلام ـ أن الرغبة هي إحدىٰ الغايات التي يتنافس فيها المتنافسون ، ويتسابق إليها المتقون ، وذلك لأن الرغبة تنشأ من الإخلاص في العبادة ، والإخلاص ينشأ من ممارسة الطاعة كما أسلفنا . فالرغبة إذاً هي غاية ، بل هي غاية الغايات لأنها من أفعال القلوب ، والقلب لا يرغب إلاّ بعد رياضة الجسم برغباته وشهواته وملذاته ، ومن ثم إرغامه على الطاعة . قال ـ تعالى ـ : ﴿عسىٰ ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربّنا راغبون﴾[١٤] قال في التبيان أي نرغب إليه ونسأله ونتوب إليه مما فعلناه .

(١٤) سورة القلم ، آية : ٣٢ .

ويظهر مما تقدم أن الرغبة هي ميل القلب إلى جهة معينة . والقلب هو السلطان المهيمن على جميع الجوارح . ولما كان ميل القلب إلى جهة لا يتعداها إلى غيرها فإن القلب لا يتعدىٰ الميل إلى الله ـ سبحانه ـ وبذلك يثبت الإخلاص في التوجه إلى الله كما تقدم .

أما الرجاء فهو الأمل ، فالكلمتان بمعنى واحد ؛ وذلك من باب إضافة الشيء إلى نفسه .

ولقد قلنا في كثير من مناسبات الكلام أن هذا الأسلوب الغريب في هذا الدعاء هو الذي يأخذ بمجامع القلوب ، ويهيمن بسحريته على الشعور ، فقوله ـ عليه السلام ـ : (ومنتهىٰ أمل الراجين) وكذلك العبارة التي قبلها (يا غاية رغبة الراغبين) تفيدان الغاية القصوىٰ في التعامل بين الإنسان وخالقه ؛ لأن معنىٰ (الغاية) هو معنىٰ (المنتهىٰ) ، ومعنىٰ (الرغبة) هو (الأمل) ومعنى الراغبين) هو (الراجين) فهو أسلوب كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، أو كاللؤلؤ المصفوف يزين بعضه بعضاً . فإذا تأملت العبارتين أخذتك الحيرة ، بل إعترتك الدهشة في كيفية هذا الأسلوب الذي يطفح عليه طابع التراجع وعدم الإعتراف بأعماله التي عملها من خير ، فكأنه لا يريد في ذلك اليوم أن يقدم شيئاً إلاّ هذا التضرع وهذا التوسل في الدعاء والمسألة . فهو يخاطب الله بأنه غاية المقصود ، وهو الأمل الذي يداعب خيال الإنسان في نجاته من الهلكة ، أما عمله من الخير فقد طرحه جانباً ؛ لأنه ـ عليه السلام ـ يخاطب ربّه بلسانين :

الأول : وهو اللسان العام وهذا الخطاب يصدر منه على أنه واحد من الناس يريد أن ينضم إلى هذا المحشر الذي جمعهم فيدعو لهم ويدعون له ، فيلتمس الخير بدعائهم ، ويلتمسون الخير بدعائه ، فهو

يعتبر نفسه فرداً من الناس يواسيهم في الشدّة والرخاء .

أما الثاني : فإنه اللسان الخاص ، وهو لسان أهل العصمة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، فمرة يقسم على ربّه بآبائه الكرام من الأئمة والأنبياء السابقين ـ كما مرّ معنا في الجزء الثاني من الكتاب ـ ، ومرة يقسم على ربّه بمكانته منه ويتوسل لأهل الموقف ، وهذا أمرٌ جار عند المعصومين ـ عليهم السلام ـ ، بل حتىٰ عند غيرهم من الناس المؤمنين الذين يدعون لإخوانهم في بطن الغيب .

علم الله المحيط بكل شيء

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (يا من أحاط بكل شيء علماً) والإحاطة هو الإشتمال والإحتواء ، وقد مرّ تفسير هذه الكلمة في بحث اللغة . وكان بهذه العبارة يشير إلى ما جاء بالكتاب العزيز في قوله ـ تعالى ـ : ﴿**الله الذي خلق سبع سمٰوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كلِّ شيء قدير وأن الله قد أحاط بكلِّ شيء علماً**﴾(١٥) فقد جاء في تفسيرها ـ كما ذكره الشيخ الطوسي في التبيان ـ إن معلوماته متميزة له بمنزلة صار قد أحاط به فلم يفته منه شيء ، ومثله قوله ـ تعالى ـ : ﴿**ولا يحيطون به علماً**﴾(١٦) أي إنه ليس بمنزلة ما يحضره العلم بمكانه ، فيكون كأنه قد أحاط به .

وقال في الميزان إن هذه من الغايات المترتبة على خلقه السمٰوات السبع ومن الأرض مثلهن وتنزيله الأمر بينهن ، وفي ذلك إنتساب الخلق والأمر إليه واختصاصهما به ، فإن المتفكر في ذلك لا يرتاب في قدرته على كلِّ شيء ، وعلمه بكل شيء ، فليتق مخالفة أمره أولوا الألباب من

(١٥) سورة الطلاق ، آية : ١٢ .
(١٦) سورة طٰه ، آية : ١١٠ .

المؤمنين فإنّ سنة هذا القدير العليم تجري على إثابة المطيعين لأوامره ، ومجازاة العاتين المستكبرين ، وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرىٰ وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد .

ثم إنهم في كلامهم قد فرّقوا بين علم الله الحضور ، وعلم الإنسان المسبوق بالجهل أو الحصولي . فعلمه ـ سبحانه ـ محيط بكل شيء ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ـ كما وصف نفسه سبحانه ـ في كثير من آيات الذكر الحكيم .

أما الإنسان فإنه يتلقىٰ العلم والمعرفة من جوانب شتىٰ بعد أن يؤهله الباري ـ سبحانه وتعالى ـ لذلك ويجعله مستعداً لتلقي العلوم بعد الجهل ، إما بالتعليم ، وإما بالتجارب ، وأما بالممارسة ، وأما بالمخالطة ، قال ـ تعالى ـ : ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾(١٧) فما يتعلق به علم الإنسان ناشب بوجوده متعلق بواقعيته بأطراف ، وهناك علم كثير لم يؤت الإنسان إلّا قليلاً منه . قال ـ تعالى ـ : ﴿**وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً**﴾(١٨) .

فحقيقة الأمر أن العلم حق العلم لا يوجد عند غير الله ـ سبحانه ـ ، وإذا كان يوم القيامة يوماً يظهر فيه الأشياء بحقائقها على ما تفيده الآيات الواصفة لأمره فلا مجال فيه إلّا للكلام الحق كما قال ـ تعالى ـ : ﴿**لا يتكلمون إلّا من أذن له الرحمٰن وقال صواباً ، ذلك اليوم الحق**﴾(١٩) ،

---

(١٧) سورة النحل ، آية : ٧٨ .
(١٨) سورة الإسراء ، آية : ٨٥ .
(١٩) سورة النبأ ، آية : ٣٩ .

كان من الجواب الحق إذا ما سئل الرسل فقيل لهم : (ماذا أجبتم) أن يجيبوا بنفي العلم عن أنفسهم لكونه من الغيب ويثبتوه لربهم ـ سبحانه ـ بقولهم : ﴿لا علم لنا انك أنت علّام الغيوب﴾[20] .

ثم قال ـ عليه السلام ـ مواصلاً بذلك توسله ومبالغته في التملق والإستجداء : (ووسع المستقيلين رأفةً وحلماً) والمستقيل بحسب ما ورد في بحث اللغة هو من يطلب الصفح عن الذنب ، وفي هذه العبارة يلوح لنافي أفقها أنه ـ عليه السلام ـ يدعو لأهل الموقف عامة ؛ لأن الإستقالة على الذنب يطلبها من كان له ذنب ، وأما من لا ذنب له ـ كما هو المفروض فيه ـ عليه السلام ـ فإنه يطلبها لغيره .

وإذا تأملنا إلى كلمات هذه العبارة المتراصة فإن أول ما يطالعنا فيها كلمة (وسع) وهذه الكلمة تنصرف إلى معنيين عظيمين ينسبان إليه ـ سبحانه ـ :

الأول : وهي تعني شمول الرأفة والحلم لكل مذنب وهذا ما أشارت إليه الآيات والروايات بكثرة .

الثاني : وهو أن المستقيل الذي يطلب الرأفة والرحمة من الله يحصل على ذلك بغير حساب ، بمعنىً أنه عندما يسأل كان يؤمل غفران الذنب فقط إن كان مستقيلاً من الذنب ، ولكن الله برأفته وحلمه يوسع على ذلك المستقيل فيصفح عن ذنبه ويعطيه فوق ما يؤمل ، ويجزل له العطاء . وهو أمر لا يحتاج إلى جدال ، أو إلى برهان ؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد وعد الإنسان بذلك والله لا يخلف وعده .

---

(٢٠) سورة المائدة ، آية : ١٠٩ .

وهذه جملة أبيات جرت خاتمة للبحث وهي تناسب المعنىٰ :

وسعت رحمة الإلٰه البرايا — فهو ذو رحمة تروح وتغدو
وحليم فلا يعجل في ما — قد جناه العباد رحماك فرد
شمل السهل والجبال عطاياك — فأولىٰ بأن يؤمل عبد
أنت تعطي قبل السؤال وهذي — راحتي أقفرت فما لي بعد ؟
فأنلني نيلاً به أبلغ المقصود — فضلاً وليس دونك قصد
أملي منك يا إلٰهي عفو — ورجائي في العفو ليس يرد

قال عليه السلام :

[اَللَّهُمَّ إِنّا نَتَوَجَّهُ اِلَيْكَ في هٰذِهِ الْعَشِيَّةِ ، الَّتي شَرَّفْتَها وَعَظَّمْتَها بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّكَ وَرَسوُلِكَ ، وَخِيَرَتِكَ ، وَأَمينِكَ عَلىٰ وَحْيِكَ] .

اللُّغَةُ

خيرتك : خار الشيء واختاره إنتقاه ، قال أبو زيد الطائي :

إن الكرام على ما كان من خلق رهط امرءٍ خاره للدين مختار

وهو يتعدىٰ إلى مفعولين بحذف حرف الجر ، تقول إخترته من الرجال . واخترته الرجال . قال ـ تعالى ـ : ﴿**واختار موسىٰ قومه سبعين رجلاً لميقاتنا**﴾[1] وفي هذا التمثيل نظر ؛ لأن إعراب سبعين بدلاً من قومه أقرب إلى الذوق النحوي . وقد ذكر في الجدول في إعراب القرآن وصرفه : أن أبا البقاء العكبري أجاز إعراب (سبعين) بدلاً من قوم[2] . وقال في التبيان في اعراب القرآن : وأرىٰ أن البدل جائز على ضعف[3] .

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٥٥ .

(٢) الجدول في اعراب القرآن وصرفه لمحمود صافي : ج٩ ص٨٠ .

(٣) التبيان في اعراب القرآن : ج١ ص٥٩٧ .

وتخير الشيء اختاره . والإسم الخيرة بكسر الخاء وسكون اليـاء ، والخيرة بكسر الخاء وفتح الياء ، والأخيرة أعرف .

وحيـك : الوحي الإشـارة والكتـابـة والـرسـالـة والإلهـام والكـلام الخفي . وكل ما ألقيتـه إلى غيرك يقـال : وحيت إليه الكـلام وأوحيت ، والـوحي المكتـوب والكتـاب . قـال ـ تعـالى ـ : ﴿**وأوحىٰ ربّـك إلى النحل**﴾[4] وقال ـ تعـالى ـ : ﴿ **وأوحينا إلى أم مـوسىٰ أن أرضعيه** . . . الآية ﴾[5] . قالوا الوحىٰ هاهنا إلقاء في قلبها . والوحاء الوحاء يعني البدار البدار يعني الإسراع ، والوحاء ممدوداً يعني السرعة .

البيان

في هذه الفقرة نراه ـ عليه السلام ـ قد ضم نفسه إلى غيره من الناس الذين يتوجهون إلى الله في تلك العشية ، وجعل نفسه كأحدهم لكي يكون العمـل من الجميع صفقـةً واحدةً ، يحمـل بعضه بعضـاً ، ويشد بعضـه بعضاً ، وبذلك يكون ـ عليه السلام ـ قد تفضل على أهل الموسم بقبـول العمل ؛ لأن عمله مقبول قطعاً ، فكان ـ عليه السـلام ـ بذلـك قد عمّت كلمته أهل ذلك الموقف جميعاً . قال ـ عليه السلام ـ : (أللهم إنا نتوجه إليك في هذه العشيـة) والتوجـه هو الإقبـال على الله ـ سبحانـه ـ ، وهو مأخوذ من الوجه الذي هو أمام الإنسان وفي ذلك يرد كثير من المعاني بعد ملاحظة ذلك منها :

١ ـ إن الإقبال بالـوجه وهـو خلاف الإدبـار أو الإعراض يفيـد رغبة الإنسان في الخطاب مع المتوجه إليه ؛ لأن المواجهة تعني وجهاً لوجه كلّا

---

(٤) سورة النمل ، آية : ٦٨ .

(٥) سورة القصص ، آية : ٧ .

مقابل الآخر .

٢ ـ من خلال المعنىٰ الأول نستنتج أن التوجه أو الإقبال يعني الميل بالوجه ، والميل بالقلب إلى الله يعني التعلق بالملأ الأعلىٰ ، وترك ما سوىٰ ذلك ؛ لأنه لا يمكن أن يجمع في قلبه شيئين متناقضين في وقت واحد .

٣ ـ التوجه إلى الله معناه إنحصار المطلوب في هذه الجهة ، ولو كان هناك مندوحة لاستغلها الإنسان في الحصول على مأربه ، لأن ما سوىٰ ذلك مادّي ، والإنسان بطبيعته أقرب إلى المادة منه إلى الروح ، وإن كان هناك يرد القرب المعنوي بتأويل آخر .

وقد أشار الكتاب العزيز إلى ذلك في قوله ـ تعالى ـ : ﴿**إني وجهت وجهي للذي فطر السمٰوات والأرض حنيفاً** . . . الآية ﴾[٦] قال المفسرون : توجيه الوجه كناية عن الإقبال إلى الله ـ سبحانه ـ بالعبادة ، فإن لازم العبودية والمربوبية أن يتعلق العبد المربوب بربّه في قوته وإرادته ، ويدعوه ويرجع إليه في جميع أعماله ، ولا يكون دعاء ولا رجوع إلّا بتوجيه الوجه والإقبال إليه ، فكنىٰ بتوجيه الوجه عن العبادة التي هي دعاء ورجوع . وذكر ربّه وهو الله ـ سبحانه ـ الذي وجه وجهه إليه بنعته الذي يخصه بلا نزاع فيه ، وهو فطر السماوات والأرض ، وجاء بالموصول والصلة ليدل على العهد فلا يشتبه الأمر على أحد[٧] .

وفي أبيات جرت بالمناسبة ضمن هذا الحديث بوجد هذا المعنىٰ وهي :

---

(٦) سورة الأنعام ، آية : ٧٩ .

(٧) الميزان للطباطبائي ج٧ ص١٩١ .

وجهت وجهي للذي فطر الورىٰ　　فهو الذي يعطي الأنام ويمنع
سبحانه من خالق ومدبر　　بمشيئةٍ منه الأمور تصنع
يا حاسب الظلمات وزناً إنني　　أنا غارق فيها أغوص وأطلع
فبنور وجهك يا إلٰهي تنجلي　　ظلمات ليل بالذنوب مبرقع

عشية عرفة وفضلها

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (في هذه العشيـة) فالمقصـود منها هي عشية عرفة ـ كما سبق الحديث عن ذلك ـ أمـا تخصيص العشية بـذكرهـا بالإشارة إليها ، والتوجه فيها إلى الله فليس معنـاه الإعراض عنـه في بقية الأوقـات ، لأن تخصيص شيء بالـذكر لا يعني بـالضرورة إهمـال الشيء الآخر إذا كان نظيراً ومسانخاً له . إنما تـأتي الخصوصيـات لزيـادة تترتب لعلّة يريدها الله ـ سبحانه وتعالى ـ تكون سبباً في مصلحة العبد . على أن هذا الوقت الذي ذكره وهو عشية عرفة لـه من الأفضلية من حيث منـاسبة الدعاء ما لا يقدر بأغلىٰ الأثمان ، أما لندرته لأنه وقت لا يمر في السنة إلّا يوماً واحداً أو بعض يوم ، فينبغي للإنسان أن يغتنم هذ الفرصة فهي قد لا تعود بمعنىٰ أن الإنسان لا يدركها في العام القابل . وأما لأن الوقت عندما خصص لعبادة الدعاء كان له من الخصوصية ما لا ينبغي أن ينكر .

نعم إن لذلك اليوم خصوصيـات ترىٰ طـافحة على لسـان الحسين ـ عليه السلام ـ في قوله : (التي شرفتها وعظمتها بمحمد) وكفاها بذلك تشريفاً وتعظيماً . وهنا يجدر بنا أن نقف متأملين إلى هذا الشرف والعظمة بمحمد ـ صلى الله عليه وآله ـ في نقاط نذكر منها :

١ ـ إن سبب هذا الشرف والعظمة بمحمد ـ صلى الله عليه وآله ـ هو كونه نبي الإسلام ، وهو الذي شرّع هذه الواجبات عن أمر الله ، وموقف عرفة ضمن ذلك الوقت أحد الواجبات الإسلامية التي شرّعها فهي تنسب إليه .

٢ ـ إنه ـ صلى الله عليه وآله ـ أول من حج ووقف هذا الموقف بالصيغة الإسلامية الصحيحة ، ودعا الله فيه ضمن ذلك الوقت المحدد المبارك ، وأرشد الناس إليه ودلّهم على مكانته وشرفه زماناً ومكاناً .

٣ ـ إن عظمة هذه العشية وشرفها قد جاء من شرف محمد بن عبدالله الذي شرفه ربّه بالنبوة والرسالة ، وناهيك بذلك من شرف .

وإلى هذا أشار ـ عليه السلام ـ في العبارة بقوله : (نبيك ورسولك) والنبوة والرسالة شرفان لم يحصل أحدهما لأحد من الناس إلّا باصطفاء من الله . قال ـ تعالى ـ : **﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير﴾**(٨) قال المفسرون في هذه الآية : الملائكة يعني جبرئيل وميكائيل ومن الناس يعني النبيين . قاله الطوسي في التبيان .

وقال في الميزان . الإصطفاء أخذ صفوة الشيء وخالصته ، قال الراغب : الإصطفاء تناول صفو الشيء ، كما أن الإختيار تناول خيره ، والإجتباء تناول جبايته .

فاصطفاء الله ـ تعالى ـ من الملائكة رسلاً ، ومن الناس اختياره من بينهم من يصفو من ذلك ويصلح .

---

(٨) سورة الحج ، آية : ٧٥ .

وقد بينت الآية نقطتين هامتين وهما :

الأولى : أن لله رسلاً من الملائكة ومن الناس .

الثانية : إن هذه الرسالة ليست كيفما اتفقت ، وممن اتفق بل هي بالإصطفاء وتعيين من هو صالح لذلك .

ولقد عرضنا حديث الفرق بين النبوة والرسالة في أبحاث سابقة من الكتاب ، وقلنا أن بينهما عموم وخصوص مطلق . ولقد قالوا إن للنبوة والرسالة عشر مراتب وهي :

(مراتب النبوة)

الأولى : أن يرى الشيء مثالاً في النوم ، وفي مثل ذلك المثل يتبين له معناه ، وأي شيء أريد به .

الثانية : إنه يسمع كلاماً في المنام مشروحاً بيناً ، ولا يرى قائله .

الثالثة : أن يعلمه إنسان في المنام كذلك .

الرابعة : أن يكلمه ملك في المنام كذلك .

الخامسة : أن يرىٰ في المنام كأن الله يكلمه .

السادسة : أن يأتيه وحياً في اليقظة ويرىٰ مثالاً .

السابعة : أن يرىٰ كلاماً في اليقظة .

الثامنة : أن يرىٰ في اليقظة إنساناً يكلمه .

التاسعة : أن يرىٰ ملكاً يخاطبه في اليقظة .

العاشرة : أن يرىٰ أن الله يخاطبه .

وحيث أن نبينا قد جمع تلك الخصال كلها ، وتحلّىٰ بصفات الكمال الحاصلة لجميع الأنبياء ، فرعها وأصلها والشرائع المعتبرة فيهن على أكمل الوجوه آخرها وأولها ، ختمت به النبوة والرسالة ، والإمامة والولاية ، ودلت على كونه مبعوثاً إلى جميع الخلائق حيث لا مستكمل لجميعها سواه ، وقد اجتمع بها السياسات الثلاث المحصلة لجميع الإستقامات .

فأولها : السياسات النفسية بالمجاهدات والرياضات حتىٰ يجعلها صافية عن كدورات الأبدان ، خالية عن نقائس مصائد الصياصي ، عرية عن غواسق الطبائع ، والتلوث بكدورات المعاصي .

وثانيها : السياسات المنزلية وهي معرفة تدبير مخالطته مع أهله ، ومواليه ، وأقاربه ، ومن يحفظ عنايته من ذوي أرحامه ، وقرابته ، والقيام بحقهم بما لهم وعليهم وإلحاقهم بالكمالات حتىٰ يصلوا بسببه إلى مقاماتهم التي لهم منه بسبب المعاشرة .

وثالثها : السياسات المدنية الحاصلة من مخالطة أهل بلده ومعاشريه ، ومعامليه من بني نوعه ومن له ضرورة إلى المخالطة له والمعاشرة له ، وكيفية حاله وحالهم .

وبهذا ثبت أنه أفضل الخلق وأكمله ، وذلك ثابت عند كل من يقول بنبوته لجمعه لها ولاتصافه بالكمالات الحاصلة لجميع الأولياء والأنبياء ، فهو ـ عليه السلام ـ مجمع الكمالات المتفرقة فيهم . وينبه عليه قوله ـ تعالى ـ : **﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم إقتده﴾**(٩) .

وكم قد قال ـ عليه السلام ـ في بيان ذلك المقام الأفخم : أنا سيد

---

(٩) سورة الأنعام ، آية : ٩٠ .

ولد آدم ، وأنا سيد العالم ، وأول ما خلق الله نوري .

وقد قال الرضا مخبراً عن آبائه ـ عليهم السلام ـ : قال : قال النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ : خلق الله ـ عزّ وجلّ ـ مائة ألف نبي ، وأربعة وعشرون ألف نبياً ، أنا أكرمهم على الله ولا فخر[١٠] .

وعلى هذا فإن النبوة والرسالة أمران واجبان على الله ـ سبحانه ـ لإرشاد العباد واحتوائهم لكي لا تكون على الله حجة لهم .

---

(١٠) الأنوار الوضية للشيخ حسين آل عصفور (مخطوط) .

خيرة الله من الخلق

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (وخيرتك) فإن الخيرة كما سبق تفسيرها في بحث اللغة هو الإنتقاء ، ومن المسلم به أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ هو أفضل الكائنات على الإطلاق ، وهو أفضل النبيين والمرسلين على الخصوص .

ففي الحديث القدسي كما في العيون والإكمال والكافي والجامع بطرق عديدة : (إني أنا الله لا إلٰه إلّا أنا ، قاصم الجبارين ، ومذل الظالمين ، وديان يوم الدين . . . وساق الحديث إلى أن قال ـ جلّ جلاله ـ : إني لم أبعث نبياً فأكملت أمامه ، وانقضت مدته ، إلّا جعلت له وصياً ، وإني فضلتك على الأنبياء ، وفضلت وصيك على الأوصياء . . . الحديث) .

وفي الإكمال في الصحيح عن علي ـ عليه السلام ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ ما خلق الله خلقاً أفضل ولا أكرم عليه مني . قال علي ـ عليه السلام ـ : فقلت : يا رسول الله . أفأنت أفضل أم جبرئيل ؟ فقال : يا علي ، إن الله ـ تبارك وتعالى ـ فضل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقربين ، وفضلني على جميع الأنبياء والمرسلين ،

والفضل بعدي لك يا علي ، والأئمة من بعدك ، فإن الملائكة لخدامنا ، وخدام محبينا . يا علي الذين يحملون العرش ، ومن حوله ، يسبحون بحمد ربّهم ، ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا . . . الآية . بولايتنا . يا علي لولا نحن ما خلق الله آدم ولا حواء ، ولا الجنة ، ولا النار ، ولا السماء ولا الأرض ، وكيف لا نكون نحن أفضل من الملائكة وقد سبقناهم إلى التوحيد ، ومعرفة ربّنا ـ عزّ وجلّ ـ وتسبيحه وتقديسه ، وتهليله وتحميده ، ثم خلق الملائكة ، فلما شاهدوا أرواحنا نوراً واحداً استعظموا أمرنا ، فسبحنا الله لتعلم الملائكة إنا خلق مخلوقون . . وساق الحديث إلى أن قال : فكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سجدوا لآدم كلهم أجمعون ؟ وإنه لما عرج بي إلى السماء أذن جبرئيل ـ عليه السلام ـ مثنىٰ مثنىٰ ، ثم قال : تقدم يا محمد صلّ فقلت : يا جبرئيل أتقدم عليك ؟ فقال : نعم ؛ لأن الله فضل أنبياءه على ملائكته أجمعين ، وفضلك خاصة على جميع المخلوقين . . . ثم ساق كلاماً طويلاً إلى أن قال : فقلت : يا ربّ ، وهؤلاء أوصيائي من بعدي ؟ فنوديت يا محمد هؤلاء أوليائي وأحبائي وأصفيائي وحججي بعدك على بريتي . وهم أصفياؤك وخلفاؤك وخير خلقي بعدك(١١) .

وقد شرّفه الجليل بخطاب (يا محمد : لولاك ما خلقت الأفلاك ولولا علي ما خلقتك ، ولولا فاطمة ما خلقتكما) وفي هذا الحديث مجال للحديث سوف نستعرضه في مكانه المناسب إن شاء الله .

فقوله ـ عليه السلام ـ : (وخيرتك) أي أنه قد إصطفاه الله من بين خلقه ، وهذا مأخوذ من الخير ، ومعنىٰ ذلك أن النبوة كلها خير ولا شيء

---

(١١) محاسن الإعتقاد للشيخ حسين آل عصفور (مخطوط) .

من الشر فيها ، وهي ضرورة من ضرورات الحياة ؛ لأنها تنظم العلاقات بين الخالق والمخلوق ، خلافاً للبراهمة الذين أنكروها ، وقالوا : بأن الإنسان العاقل لا حاجة له فيها ، لأنها إن كانت قد جاءت بما يوافق العقل فلا حاجة للعقل فيها وله حق الرفض ، وإن كانت قد جاءت بما يخالف العقل فله الحق أن يرفض ما خالفه .

وهذه الشبهة مبنية على إنحصار الأمور كلها في العقل ، إذا كان العقل له قابلية التمحيص .

ولكنا نقول بعدم التسليم بانحصار الأشياء كلها في العقل كما نقول أيضاً بعدم قابلية العقل على التمحيص والتمييز لكل الأشياء ، وإذا ثبت عدم إنحصار الأمور فيه وثبت نقصانه وجب أن يوجد مسدّد ومكمل لما يفوت الإنسان ولما يثبته عليه .

وقد أشار إلى ذلك في الكتاب العزيز في قوله : ﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يوحىٰ﴾[١٢] . قال المفسرون : الإختيار مأخوذ من الخير ، وحقيقته أن تردد أمر الفاعل ـ مثلاً ـ بين أفعال يجب أن يرجح واحداً فيها ، ليفعله فيميز ما هو خيرها ، ثم يبني على كونه خيراً من غيره فيفعله فبناؤه على كونه خيراً من غيره هو اختيار ، فالإختيار دائماً لغاية هو غرض الفاعل من فعله[١٣] . ثم أخذ يواصل وصف النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ فقال : (وأمنيك على وحيك) .

---

(١٢) سورة طه ، آية : ١٣ .
(١٣) الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي .

الأمانة في حياة الإنسان

والأمانة صفة من صفات النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ التي اشتهر بها دون غيره من أهل زمانه ، وقد وصفه الله ـ تعالى ـ بهذا الجـانب الخلقي وسائر الصفات الخلقية التي تمثل النواحي الحسنة في الإنسان مثل التعاون والصدق والكرم والشجاعة ، وغير ذلك من الصفات النبيلة ، وقد خـاطبه الله ـ تعالى ـ بقوله : ﴿وإنك لعلىٰ خلق عظيم﴾[١٤] ، وقال ـ تعـالى ـ : ﴿أن أدّوا إلي عبـاد الله إني لكم رسـول أمين﴾[١٥] ، وقـال ـ تعـالى ـ : ﴿مطاع ثم أمين﴾[١٦] .

ونحن إذا تحدثنا عن الأمانة وأهميتها فإنما نتحدث عن جـانب من حيـاة الإنسان الإجتمـاعية مهم ، وعن جنبـةٍ كبيرة من حيـاته الـدينيـة . فالأمانة قد بلغت من أهميتها أنها ربطت بين الإنسان والإنسان في معاملاته وغرست في الجانبين الثقة التامة ، وبذلك تعتبر مقياساً دقيقاً لنوايا الإنسان الأخلاقية والدينية على حد سواء . قال ـ تعالى ـ : ﴿ومن أهل الكتاب من

(١٤) سورة القلم ، آية : ٤ .

(١٥) سورة الدخان ، آية : ١٨ .

(١٦) سورة التكوير ، آية : ٢١ .

إن تـأمنه بقنـطار يؤده إليـك ومنهم من إن تـأمنـه بـدينـار لا يؤده إليك . . . ﴾[١٧] الآية .

وهذا الجانب الأخلاقي الذي يربط بين الإنسان والإنسان من جهة ، وبين الله والإنسان من جهة أخرىٰ ، لا شك أن له أثراً في تهذيب النفس الإنسـانية ، وتـطبيعها على التعـامل الخلقي بين النـاس ، وبذلـك تصفو النفوس ، وتستل منهـا الأحقاد ، وينتـزع منها النفـاق ، فيعيش المجتمع كجسم واحد وقلب واحد بثقة متبادلة ، معيار ذلـك الصدق ونفي مـا في الذمة ، وقد أشار ـ سبحانه وتعالى ـ إلى ذلك في كتابه العزيز بقوله : **﴿إنا عرضنا الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منهـا وحملها الإنسـان إنه كـان ظلوماً جهـولاً﴾**[١٨] . قال المفسـرون : الأمانة ـ أيّاً كانت ـ شيء يودع عند الغير ليحتفظ عليه ، ثم يـرده إلى من أودعـه ، فهذه الأمـانة المـذكورة في الآيـة شيء إئتمن الله الإنسان عليـه ليحفظ على سلامته واستقامته ثم يردّه إليه ـ سبحانه ـ كما أودعه .

فالمراد بالأمانة الإلٰهية وبعرضها على هذه الأشياء اعتبـارها مقيسـة إليها . والمراد بحملها والإباء عنه وجود استعدادها وصلاحية التلبس بهـا وعـدمه ، وهـذا المعنىٰ هو القـابل لأن ينطبق على الآيـة ، فالسمـاوات والأرض والجبال على ما فيها من العظمة والشدّة والقـوة فاقـدة لاستعداد حصولها فيها ، وهو المراد بآبائهن عن حملها وإشفاقهن منها .

لكن الإنسـان الظلوم الجهـول لم يأب ولم يشفق من ثقلهـا وعظم خطرها ، فحملها على ما بها من الثقل وعـظم الخطر ، فتعقب ذلـك أن

---

(١٧) سورة آل عمران ، آية : ٧٥ .

(١٨) سورة الأحزاب ، آية : ٧٢ .

انقسم الإنسان من جهة حفظ الأمانة وعدمه بـالخيانـة إلى منافق ومشـرك ومؤمن بخلاف السماوات والأرض والجبال فما منها إلّا مؤمن مطيع .

ثم وصف النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ بالأمانة على ما هو أعز وأغلىٰ من المال وأبقىٰ منه ، وهو الوحي الـذي ينزل من السمـاء ، فقال ـ عليـه السلام ـ : (على وحيك) والوحي هو ما ينزل من السمـاء إلى الأرض ، وتتعدد معانيه بحسب ما ورد في بحث اللغـة ، وتتعدد كيفيتـه بحسب ما أشرنا إليه في هذا البحث ، وذلك ناتج عن مكانة النبي من الله ـ سبحانه ـ وقد أشار إلى ذلك قوله ـ تعالى ـ : **﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلّا وحيّاً أو من وراء حجـاب أو يرسـل رسـولاً فيـوحي بـإذنـه مـا يشـاء أنـه عليٌّ حكيم﴾**[١٩] . فقد جاء في تفسير هذه الآية أن الوحي هو الإشارة السريعة على ما ذكره الراغب ، والمعنىٰ : ما كان لبشر أن يكلمه الله نوعاً من أنواع التكليم إلّا هـذه الأنواع الثـلاثـة ، أن يـوحي وحيّـاً ، أو يكـون من وراء حجاب ، أو أن يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء .

وهـذا القسم الثالث وحي بتـوسط الرسـول الذي هـو ملك الـوحي فيوحي ذلك الملك بـإذن الله ما يشـاء الله ـ سبحانـه ـ . قال ـ تعـالى ـ : **﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾**[٢٠] .

وأما القسم الثاني (أو من وراء حجاب) فهو وحي مـع واسطة هـو الحجاب ، غير أن الواسطة لا يوحي كما في القسم الثالث ، وإنما يبتـدأ الوحي مما وراءه ، وليس وراء بمعنىٰ خلف وإنما هو الخارج عن الشيء المحيط بـه ، قـال ـ تعـالى ـ : **﴿والله من ورائهم محيط﴾**[٢١] . وهـذا

---

(١٩) سورة الشورىٰ ، آية : ٥١ .

(٢٠) سورة الشعراء ، آية : ١٩٤ .

(٢١) سورة البروج ، آية : ٢٢ .

كتكليم موسىٰ في الطور .

وأما القسم الأول فهو تكليم إلٰهي للنبي من غير واسطة بينه وبين ربّه من رسول أو أي حجاب مفروض .

ولما كان للوحي من جميع هذه الأقسام نسبة إليه ـ تعالى ـ على اختلافها صح إسناد مطلق الوحي إليه في كلامه كما قال : ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾(٢٢) .

ومما جاء حول هذا الموضوع وهو موضوع الوحي عن أهل البيت الطاهر ـ عليهم السلام ـ ما رواه السيد هاشم البحراني في تفسير البرهان قال :

ابن بابويه قال حدثنا أحمد بن الحسن القطان ، قال حدثني أحمد بن يعقوب بن مطر ، قال حدثني محمد بن الحسن بن عبد الصمد الأحدب الجند النيسابوري قال : وجدت في كتاب أبي بخطه حدثنا طلحة بن زيد ، عن عبيد ، عن أبي معمر السعداني أن رجلاً أتىٰ أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وذكر حديث الشاك إلى أن قال أمير المؤمنين له وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب ما ينبغي لبشر أن يكلمه الله إلاّ وحياً وليس بكائن إلاّ من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء قال الله ـ تبارك وتعالى علواً كبيراً ـ قد كان الرسول يوحىٰ إليه من رسل السماء ورسل الأرض وقد كان الكلام بين رسل الأرض وبينه من غير أن يرسل بالكلام مع رسل أهل السماء وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : يا جبرئيل هل رأيت ربّك ؟ فقال : ربي لا يرىٰ ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : من أين تأخذ الوحي ؟ فقال : آخذه

(٢٢) سورة النساء ، آية : ١٦٣ .

من إسـرافيل ، فقـال : ومن أين يأخـذ إسرافيـل ؟ قال : يـأخذه من ملك فـوقـه من الـروحانيين ، فقـال : فمن أين يأخـذه ذلـك الملك ؟ قـال يقـذف في قلبـه قـذفاً فهذا وحي وهو كلام الله ـ عزّ وجلّ ـ ، وكلام الله ليس بنحو واحد منـه ما كلم الله به الرسل ، ومنه ما قذفه في قلوبهم ، ومنه رؤيا يريه الرسل ، ومنه وحي وتنزيل يتلىٰ ويقرأ فهو منه كلام الله فاكتف بما وصفت لك من كلام الله فإن معنىٰ كلام الله ليس بنحو واحد فإن منه ما يبلغ رسل السماء رسل الأرض فقال : فرجت عني فرج الله عنك .

وفيـه أيضـاً عن سعـد بن عبـدالله ، عن إبـراهيم بن هـاشم عن محمـد بن خالـد البرقي ، عن محمـد بن سنان ، وغيـره عن عبـدالله بن يسار ، قال : قال أبو عبدالله ـ عليه السلام ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : لقد أسرىٰ بي ربي عزّ وجلّ وأوحىٰ إلي من وراء حجاب ما أوحىٰ وكلمني بما كلمني وكان مما كلمني به قال : يا محمد أنا الله لا إلٰه إلّا أنا الخالق البارىء المصور لي الأسماء الحسنىٰ يسبح لي ما في السماوات وما في الأرض وأنا العزيز الحكيم ، يا محمد إني أنا الله لا إلٰه إلّا أنا الأول فلا شيء قبلي ، وأنا الآخر فلا شيء بعدي ، وأنا الظاهر فلا شيء دوني ، وأنا الله لا إلٰه إلّا أنا بكل شيء عليم ، يا محمد عليّ أول من أخـذ ميثاقـه من الأئمة ـ عليهم السـلام ـ ، يا محمـد علي آخر من قبض روحه من الأئمة وهو الدابة التي تكلِّم الناس ، يا محمد أظهره على جميع ما أوحيه إليك ليس لك أن تكتم منه شيئاً يا محمد ابطنه الذي أسررته إليك فليس مما بيني وبينك سرٌ دونه يا محمد على ما خلقت من حرام وحـلال عليم به .

وفيه أيضاً عن المفيد في حديث مسائل عبدالله بن سلام لرسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ قال له : يا محمد فأخبرني كلمك الله قبلاً ؟ قال :

مـا لعبد أن يكلمـه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجـاب ، قال : صـدقت يـا محمد .

وفيه أيضاً عن علي بن إبـراهيم في معنىٰ الآية قـال : قال : وحي مشافهة منه ووحي إلهام وهو الذي يقع في القلب أو من وراء الحجاب كما كلم الله نبيّه وكما كلم الله موسىٰ من النار أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء قالـ وحي مشافهة يعني إلى الناس .

ومن خلال ما تقـدم نجزم أن بعث الأنبيـاء والرسـل هو مـا تقتضيه المصلحـة بل الحـاجة ، بـل الضرورة ، بـل العدل الإلٰهي . فـطالما أن الإنسان بهذا التركيب الناقص في جسمه وعقله فهو في حاجة إلى إمـداد السماء ، وذلك واجب على الله . أمـا إذا لم تكن هناك حـاجة بمعنىٰ أن الأحكـام الشرعيـة قد اكتملت فليس من الضـروري ذلـك . وقـد ختمت الشرائع بشريعة الإسلام ، وختمت الأنبياء بنبي الإسلام ؛ وذلك لأن الله قد أغنىٰ الإنسان بثروة من الدين لا تنفد ، ومعين لا ينضب بواسـطة أهل البيت الطاهر الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

وقد استعرض أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ ذلك الوضع من الجهالة الذي كان عليه الناس قبل البعثة ، وذكر الغرض الذي جاء من أجله النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ فقال في إحدىٰ روايعه من نهج البلاغة : (إن الله بعث محمداً ـ صلى الله عليه وآله ـ نذيراً للعالمين ، وأميناً على التنزيل ، وأنتم معشـر العرب على شـرّ دين ، وفي شر دار ، منيخـون بين حجـارة خشن ، وحيـاة صم ، تشربـون الكـدر ، وتـأكلون الجشب ، وتسفكـون دمـاءكم ، وتقطعـون أرحامكم ، الأصنـام فيكم منصـوبـة ، والآثـام بكم معصوبة) .

وخلاصة القول : إن الوحي ينزل من السماء إلى الأرض بيد أمينة يسلم إلى يد أمينة ، ويؤدي إلى العباد ـ كما أمر الله ـ سبحانه . وبذلك يظهر معنىٰ قوله ـ عليه السلام ـ : (وأمينك على وحيك) .

وهذه أبيات بهذا المعنىٰ جرت مجرى البحث في الحال :

أنت الأمين على الرسالة كلها	قد جاء وصفك ذاك في التنزيل
وحباك ربّك في الأنام مكانة	تسمو معاقدها على الإكليل
يا خير مرسول لأسعد أمة	بوركت يا ذا الخير من مرسول
قد كنت في جيد الزمان قلادة	زينته كقلادة العطبول
وبعثت كي تهدي الأنام لمبدإ	ثرٍّ العطاء ومنهج وسبيل

قال عليه السلام :

[اللَّهُمَّ فَصَلِّ عَلَىٰ الْبَشيرِ النَّذيرِ ، السِّراجِ الْمُنيرِ ، الَّذي أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَىٰ الْمُسْلِمينَ ، وَجَعَلْتَهُ رَحْمَةً لِلْعالَمينَ] .

اللُّغَةُ

البشير : البشير الجميل ، والبشير الحسن الوجه ، وناقة بشيرة ، أي حسنة ، وأبشره أحسنه من البشر وهو طلاقة الوجه وبشاشته ، والبشارة (بالفتح) الجمال والحسن ، قال الأعشي :

ورأت بأن الشيب جا نبه البشاشة والبشارة

وتباشير الصبح أوله ، وكذلك أوائل كل شيء ، قاله الجوهري .

وتباشر القوم أي بشّر بعضهم بعضاً ، والبشارة ما يعطاه المبشر بالأمر .

وقالوا البشير المبشر الذي يبشر القوم بأمر خير أو شر .

وقلنا لا يجوز ذلك إلاّ على سبيل التهكم ، وذلك كقوله تعالىٰ

﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾[1] والمبشرات الرياح التي تهب بالسحاب ، وتبشر بالغيث . قال ـ تعالى ـ : ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾[2] .

النذير : النذير المنذر ، والجمع نذر ، وأنذره خوفه وحذره ، والإنذار المصدر . وفي التنزيل قال ـ تعالى ـ : ﴿فستعلمون كيف نذير﴾[3] ، وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فستعلمون كيف نذير﴾[4] معناه فكيف كان إنذاري ، وكذلك النذيرة .

وقال بعضهم : النذير صوت القوس ، لأنه ينذر الرمية وأنشد لأوس بن حجر :

وصفراء من نبع كأن نذيرها ... إذا لم تخفضه عن الوحش أفكل

وتناذر القوم أنذر بعضهم بعضاً ، ونذيرة الجيش طليعته الذي ينذرهم أمر عدوهم أن يعلمهم ، والإنذار الإبلاع ولا يكون إلّا في التخويف ، وقوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿وجاءكم النذير﴾[4] قال ثعلب : هو الرسول ، وقال بعضهم النذير الشيب .

السراج : السراج المصباح الزاهر الذي يسرج بالليل والمسرجة التي فيها الفتيل ، والشمس سراج النهار . وفي التنزيل : ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾[5] والهدىٰ سراج المؤمن . وجبين سارج واضح كالسراج . قال الراجز :

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٢١ .
(٢) سورة الروم ، آية : ٢٦ .
(٣) سورة الملك ، آية : ٦٧ .
(٤) سورة فاطر ، آية : ٣٧ .
(٥) سورة النبأ ، آية : ١٣ .

يا ربّ بيضاء من العواسج لينة المس على المعالج
هأ هاءة ذات جبين سارج

وسرّج الله وجهه وبهجه أي حسنه .

البيان

كرر ـ عليه السلام ـ في هذه الفقرة الصلاة على النبي بعد مرات سبقت ، ومرات ستأتي ، وذلك مما يشعر بأهمية هذه الكلمات الخفيفة في مجال العبادة والدعاء ، وثقلها الكبير في مقام الجزاء . وقد وصف النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ بما هو أهله ، وبما وصفه به ربّه في كتابه العزيز ، فقوله ـ عليه السلام ـ : (أللهم فصلّ على البشير النذير السراج المنير . . . النص) قد نطق ومبشراً ونذيراً)[٦] وبهذا المنطوق ورد كثير من الآيات . قال المفسرون لهذه الآية : شهادته ـ صلى الله عليه وآله ـ على الأعمال أن يتحملها في هذه المنشأة ، ويؤديها يوم القيامة ، وكونه مبشراً ونذيراً تبشيره المؤمنين المطيعين لله ورسوله بثواب الله والجنة ، وإنذاره الكافرين والعاصين بعذاب الله والنار .

أما قوله ـ سبحانه ـ : ﴿**وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً**﴾[٧] فدعوته إلى الله هي دعوته الناس إلى الإيمان بالله وحده ، ولازمه الإيمان بدين الله وتقييد الدعوة بإذن الله يجعلها مساوقة للبعثة .

وكونه ـ صلى الله عليه وآله ـ سراجاً منيراً هو كونه بحيث يهتدي به الناس إلى سعادتهم وينجون من ظلمات الشقاء والضلالة فهو من الإستعارة . وقول بعضهم إن المراد بالسراج المنير القرآن والتقدير ذا سراج

---

(٦) سورة الأحزاب ، آية : ٤٥ .
(٧) سورة الأحزاب ، آية : ٤٦ .

منير تكلف من غير موجب[8] .

بعد ذلك نقول : إن إستعمال هذه الألفاظ (البشير النذير السراج المنير) في مثل هذا السياق يدل على كثير من المعاني .

أما (البشير) فإن إستعمالها يدل على أنه ـ صلى الله عليه وآله ـ أرسل رحمة للعالمين ـ كما سوف يأتي ـ لأن هذا اللفظ يستأنس به كل من له عقل ، وخصوصاً من كان مذنباً ؛ لأن البشارة لا تكون لمن ألف العمل الصالح وتيقن من دخوله الجنة ، وشعر برضوان الرب ـ سبحانه ـ فإن هذا من باب تحصيل الحاصل ، فالمبشر لمثل هذا الصنف من البشر لا يأتيهم بشيء جديد ، وذلك لعلمهم بحصول ما يبشرون به أو ما يقارب ذلك ثقةً بربهم في قبول عملهم .

ولكن البشارة تأخذ بقلب الإنسان إذا لم يكن لديه شيء منها . فالمذنب عندما يبشر بغفران ذنبه من مثل هذا الصادق الأمين فإنه تعتريه الخشية وتهزه النشوة ، ويتدارك ما فرط منه بالتوبة ؛ وذلك لأنه عاقل فإذا عرف بأنّ ذلك في مصلحته عاد إلى رشده . وبهذا تكون البشارة إنقاذاً له من ورطة الذنوب . وبهذا بعث الأنبياء ، ونادت الرسل ، وارتفع صوت الناصحين والمخلصين للمبادىء الحية .

---

(٨) الميزان للطباطبائي .

فلسفة الإنذار

أما النذير فإنه يدل على العكس مما يدل عليه البشير ، والمخاطب به أيضاً بعكس ما يخاطب به البشير . فالبشارة كما قلنا خوطب بها المذنبون لتشجيعهم لتهيئة نفسياتهم للتوبة النصوح ، ولكن النذير يخاطب به المؤمنون لئلّا يعتريهم في أعمالهم العجب . وقد ورد في الحديث القدسي بما معناه : إن العبد ليسهر ليله في طاعة الله وعبادته ، فإذا استمر كذلك ضرب الله على أذنيه بالنوم لئلّا يأخذه العجب بعمله فيفسد ويذوب كما تذوب حبة الملح في الماء الفرات .

فالإنذار للمطيعين يوجه لهم حفاظاً عليهم من نزغات الشيطان وإبعادهم عن خطر الذنوب .

وعلى هذا فإن الإنذار الموجه إلىٰ الإنسان من الله ـ سبحانه ـ هو قول فصل وليس بالهزل ؛ لأن الله عندما يوجه كلامه إلى المؤمنين المخلصين الذين أطاعوه آناء الليل وأطراف النهار لا يعني الإستهزاء بهم ؛ لأنهم أكرم على الله ومقامهم أجل قدراً وأرفع شأناً من ذلك . ولكن توجيه الإنذار والتهديد بالعقاب يعني حياشتهم إلى الجنة . قالت الزهراء ـ عليها السلام ـ في خطبتها : (. . . ثم جعل الثواب على طاعته ، ووضع العقاب على معصيته زيادةً لعباده عن نقمته ، وحياشةً لهم إلى جنته) .

الإنذار يوم الدار

وفي أول الدعوة الإسلامية التي حملها رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ إلى الناس كافة أمره الله أن ينذر عشيرته الأقربين ، لأن هؤلاء أقرب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ من غيرهم ، فهم ألصق بالدعوة دون غيرهم ، وبالتالي تكون مسؤوليتهم أكبر من غيرهم في نشر الدعوة . قال ـ تعالى ـ : ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾[٩] قال في مجمع البيان : عشيرة الرجل قرابته سمّوا بذلك لأنه يعاشرهم وهم يعاشرونه .

وقال في الميزان : خص عشيرته وقرابته الأقربين بالذكر بعد نهي نفسه عن الشرك وإنذاره تنبيهاً على أنه لا استثناء في الدعوة الدينية ، ولا مداهنة ولا مساهلة ـ كما هو معهود في السنن الملوكية ـ فلا فرق في تعلق الإنذار بين النبي وأمته ولا بين الأقارب والأجانب ، فالجميع عبيد والله مولاهم .

وذكر السيد هاشم البحراني ـ رحمه الله ـ في تفسير البرهان كثيراً من الروايات التي ذكرت هذه المرحلة من مراحل الدعوة نختار منها ما يلي :

---

(٩) سورة الشعراء ، آية : ٢١٤ .

الشيخ في مجالسه ، قال : حدثنا جماعة عن أبي الفضل ، قال : حدثنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري سنة ثمان وثلاثمائة ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل الأبرش ، قال : حدثني محمد بن إسحاق بن عبد الغفار ، قال : أبو الفضل وحدثنا محمد بن محمد بن سليمان الباغندي واللفظ له ، قال : حدثنا محمد بن الصباح الجرجلوي ، قال : حدثني سلمة بن صالح الجعفي ، عن سليمان الأعمش وأبي مريم جميعاً ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبدالله بن الحارث بن نوفل ، عن عبدالله بن عباس ، عن علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ فقال لي : يا علي إن الله ـ تعالى ـ أمرني ﴿**أن أنذر عشيرتك الأقربين**﴾ قال : فضقت بذلك ذرعاً وعرفت أني متى أبادرهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره ، فصمت على ذلك وجاءني جبرئيل ـ عليه السلام ـ فقال : يا محمد إنك ان لم تفعل ما أمرت به عذبك ربّك ، فاصنع لنا يا علي صاعاً من طعام ، واجعل عليه رجل شاة ، واملأ لنا عسّاً من لبن ، ثم اجمع له بني عبد المطلب حتى أكلمهم وأبلغهم ما أمرت به ، ففعلت ما أمرني به ثم دعوتهم وهم يومئذٍ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب ، فلما اجتمعوا له دعاني بالطعام الذي صنعت لهم فجئت به فلما وضعته تناول رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ حزمة من اللحم فنتفها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصفحة ثم قال : خذوا بسم الله فأكل القوم وصدروا ، مالهم بشيء من الطعام حاجة وما أرى إلّا مواضع أيديهم ، وأيم الله والذي نفس علي بيده أن كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدمت من جميعهم ، ثم جئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا جميعاً وأيم الله إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله فلما أراد رسول الله

ـ صلى الله عليه وآله ـ أن يكلمهم ابتدره أبو لهب بالكلام فقال : لشد ما سحركم صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ فقال لي : من الغد يا علي أن هذا الرجل قد سبقني إلى ما قد سمعت القول ففرق القوم قبل أن أكلمهم فعد لنا من الطعام بمثل ما صنعت ثم اجمعهم لي ، قال : ففعلت ثم جمعتهم فدعاني بالطعام فقربته لهم كما فعل بالأمس وأكلوا حتىٰ ما لهم به من حاجة ، ثم قال : اسقهم فجئتهم بذلك العس فشربوا حتىٰ رووا منه جميعاً ثم تكلم رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ فقال : يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء بأفضل ما جئتكم به إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني ربي ـ عزّ وجلّ ـ أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤمن بي ويوازرني على أمري ، فيكون أخي ووصيي ووزيري ، وخليفتي في أهلي من بعدي ؟ قال : فأمسك القوم وأحجموا عنها جميعاً ، قال : فقمت واني لأحدثهم سناً وأرمصهم عيناً وأعظمهم بطناً وأحمشهم ساقاً فقلت : أنا يا نبي الله أكون وزيرك على ما بعثك الله به ، قال : فأخذ بيدي ثم قال : إن هذا أخي ووصيي ووزيري وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا ، فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع لإبنك وتطيع(١٠) .

وفيه أيضاً أبو علي الطبرسي ـ رحمه الله ـ في تفسيره بذلك عند الخاص والعام في الخبر المأثور عن البراء بن عازب ، إنه قال لما نزلت هذه الآية جمع رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ بني عبد المطلب وهم يومئذٍ أربعون رجلاً ، الرجل منهم يأكل المسنة ، ويشرب العس . فأمر علياً ـ عليه السلام ـ برجل شاة فأدمّها ، ثم قال لهم : أدنوا باسم الله ،

---

(١٠) البرهان للسيد البحراني : ج٣ ص١٩٠ .

فشربوا حتىٰ رووا ، فبدرهم أبو لهب فقال : هذا لشدّ ما سحركم الرجل ، فمكث رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ ولم يتكلم .

فدعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب ، ثم أنذرهم رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ فقال : يا بني عبد المطلب إني أنا النذير إليكم من الله ـ عزّ وجلّ ـ والبشير ، فأسلموا وأطيعوني تهتدوا ، ثم قال من يواخيني ، ويؤازرني على هذا الأمر يكون وليي ووصيي بعدي وخليفتي في أهلي ، ويقضي ديني ؟ فسكت القوم ، فأعادها ثلاثاً كل ذلك يسكت القوم ويقول علي ـ عليه السلام ـ : أنا . فقال له في المرة الثالثة : أنت هو ، فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب : أطع إبنك فقد أمّر عليك(١١) .

ومن خلال ما تقدم يظهر لك وجه إستعمال هذه الصفات التي وصف بها النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ ، وأنه إستعملها في مواضعها .

ثم ذكر ـ عليه السلام ـ ما تفضل به ـ سبحانه وتعالى ـ على المسلمين وهو رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ ، وقد عدّه من النعم التي أنعم بها على الناس ، وذلك من خلال فضله ومكانته عند الله ، فقال ـ عليه السلام ـ : (الذي أنعمت به على المسلمين) ومايتبادر إلى الذهن من المعنىٰ الذي تحمله كلمة (أنعمت) فإنها تشير إلى ما يتوفر من خيرات الدنيا من أنواع الرزق المباحة ، إلّا أنه عند التأمل قد يتعدىٰ اللفظ إلى معنىً أكبر من ذلك وأسمىٰ . فإن النعمة التي توفرت بسبب الرسول ـ صلى الله عليه وآله ـ لا تنحصر في زمان أو مكان ، فقد ملأ الدهر خيراً وجاء رحمة للعالمين ـ كما هو منطوق الآية الكريمة ـ في قوله ـ عزّ

---

(١١) البرهان : ج٣ ص١٩٠ .

وجلّ ـ : ﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين﴾[١٢] . فقد جاء في تفسير هذه الآية : أي أنك رحمة مرسلة إلى الجماعات البشرية كلهم ، والدليل عليه الجمع المحلىٰ باللام ، وذلك مقتضىٰ عموم الرسالة .

وهو ـ صلى الله عليه وآله ـ رحمة لأهل الدنيا من جهة إتيانه بدين في الأخذ به سعادة أهل الدنيا في دنياهم وأخراهم وهو ـ صلّى الله عليه وآله ـ رحمه لأهل الدنيا من حيث الآثار الحسنة التي سرت من قيامه بالدعوة الحقة في مجتمعاتهم ، مما يظهر ظهوراً بالغاً بقياس الحياة العامة البشرية اليوم إلى ما قبل بعثته وتطبيق إحدىٰ الحياتين على الأخرىٰ[١٣] .

فشمول الرسالة يعني شمول الرحمة ، وشمول الرحمة يعني شمول الرسالة ؛ لأنه بحسب منطوق الآية ينطبق كل منهما على الآخر .

وهناك تخصيص بالنعمة للمسلمين ، وتعميم بالرحمة للعالمين في قوله ـ عليه السلام ـ : (الذي أنعمت به على المسلمين ، وجعلته رحمة للعالمين) فالنعمة خاصة لا ينعم بها ولا يلتذ بها إلاّ من حصل عليها ، وهو المسلم الذي دخل إلى حظيرة الإسلام فنعم بالعبادة والطاعة ببركة دعوته ـ صلى الله عليه وآله ـ فهي خاصة بمن دخل في الإسلام ؛ لأن لذة القرب من الله ـ سبحانه ـ ونعمة الإجابة في الدعوة لا تكون إلاّ للمسلم ، وإن استثنينا بعض الحالات التي تحصل للكافر ، وهي تدخل في باب الجزاء العاجل وحصول الأعواض .

وأما كونه رحمة للعالمين فهو كما ورد في تفسير الآية : أنه قد أرسل

---

(١٢) سورة الأنبياء ، آية : ١٠٧ .

(١٣) الميزان : ج١٤ ص٣٣٠ .

إلى الناس كافة ، والرسالة هي رحمة من الله ، والإعتقاد برسالتـه ـ صلى الله عليه وآله ـ واجب على كـلٍّ مكلف وجد منـذ بدايـة الدعـوة إلى يوم القيامة ؛ لأنه لا نبي بعده ، فالدين محصور في رسالته منذ ذلك اليوم فمنْ اعتقدها فهو مرحوم ومن أنكرها فهو محروم ، ولله في خلقه شؤون يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

قال عليه السلام :

[اَللَّهُمَّ فَصَلِّ عَلىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ ، كَمٰا مُحَمَّدٌ أَهْلُ ذٰلِكَ يٰا عَظيمُ ، فَصَلِّ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِ مُحَمَّدٍ الْمُنْتَجَبينَ الطَّيِّبِينَ ، الطّاهِرينَ أَجْمَعينَ ، وَتَغَمَّدْنٰا بِعَفْوِكَ عَنّا ، فَإِلَيْكَ عَجَّتِ الأَصْوٰاتُ بِصُنُوفِ اللُّغٰاتِ] .

اللُّغَةُ

تغمدنا : الغمد جفن السيف وجمعه أغماد . وغمد العرفط غموداً إذا إستوفرت خصلته ورقاً ، حتىٰ لا يرىٰ شوكها كأنه قد أغمد . وتغمده الله برحمته غمده فيها وغمره بها وتغمدت فلاناً سترت ما كان منه وغطيته .

وكل هذه المعاني مأخوذة من الأول . وغامد هي من اليمن . قال الشاعر :

ألا هل أتاها على نأيها ... بما فضحت أهلها غامد

وغمدان قبة سيف ابن ذي يزن ، وقيل قصر معروف باليمن ، وبرك الغماد موضع ، ونقل أن الأنصار قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وآله ـ : (ولو دعوتنا إلى برك الغماد) بكسر الغين .

المنتجبين : النجيب الفاضل من كل شيء ، وفي الحديث : (إن

الله يحب التاجر النجيب) أي الفاضل الكريم السخي . والنجائب جمع نجيبه تأنيث النجيب ، والنجيب من الرجال الكريم الحسيب ، وكذلك البعير والفرس إذا كانا كريمين عتيقين ، والجمع أنجاب ونجباء ونجب . وأنجب الرجل والمرأة إذا ولدا ولداً نجيباً أي كريماً . والمنتجب المختار من كل شيء ، وقد انتجب فلان فلاناً إذا استخلصه واصطفاه إختياراً على غيره .

عجت : عج ويعج بكسر العين وفتحها عجاً وعجيجاً رفع صوته وصاح وقالوا بأن ذلك خاص بالدعاء والإستغاثة . وفي الحديث : (أفضل الحج العج والثج) . العج : رفع الصوت بالتلبية . والثج : صب الدم وسيلان دماء الهدي يعني الذبح قال ـ تعالى ـ : **﴿وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً﴾**[1] .

وعجت القوم وعجيجهم صياحهم وجلبتهم ونهر عجاج كثير الماء تسمع لمائه عجيجاً أي صوتاً . وفحل عجاج في هديره أي صياح . وعجعج صوت . قال أبو ذؤيب :

لكل مسيل من تهامة بعدما ... تقطع أقران السحاب عجيج

بصنوف : الصنوف جمع صنف النوع والضرب من الشيء والتصنيف تمييز الأشياء بعضها من بعض . والصنف الصفة ، وصنفة الإزار طرفه التي عليها الهدب وقيل : هي حاشيته أية كانت . وقالوا صنف الشجر إذا بدأ يورق فكان صنفين ، صنف قد أورق وصنف لم يورقّ ، وكذلك تصنف . قال الشاعر :

بها جازئات العين تضحي وكورها ... فيال إذا الأرطىٰ لها تتصنف

---

(١) سورة النبأ ، آية : ١٤ .

البيان

تكـرر ذكر الصـلاة على النبي في كثير من فقـرات الـدعـاء في مـا مضىٰ ، وسيتكرر أيضاً ذلك فيما يستقبل من الكلام ، ونحن بـدورنا قـد كررنا الحديث عن ذلك وسنكرر هذا أيضاً كل مـا اقتضىٰ الحال ذلـك ، ولكن بأساليب مختلفة ، علماً بـأنه لا يمكن لنـا أن نستقصي فضل هـذه العبارة والإطراء عليها . لكنه ـ عليه السلام ـ هنا أشار إلى ناحية لم يسبق الإشارة إليها في ما مضىٰ ، فقد قال ـ عليه السلام ـ : (أللهم فصل على محمد وآله كما محمد أهل ذلك يا عظيم) فإن الأهلية المذكورة في هذه العبارة يعني إستحقاقـه للكرامـة التامـة التي تعرف من الثنـاء والمدح لـه ـ صلى الله عليه وآله ـ في القرآن الكريم وغيره من رسالات السماء وهي تتجلىٰ في أمور عدة :

١ ـ إنه نبي مرسل إستحق من الله هذا الشرف الكبير ؛ لأن الله قد اختاره لوحيه ، وانتجبه لسره ، فهو حقيق بكلٍّ هذا الشرف والفضل .

٢ ـ إنه أرسل رحمة للعالمين ، وقد ذكرنـا في البحث السابق مـاذا تعني كلمـة (العالمين) فمـرة نقول : بـأنه أرسـل للناس كـافـة أبيضهم وأسـودهم ، وأعاجمهم وعربهم كـل ذلك على حـدٌ سواء . ومـرة أخرىٰ نقول : بأنه أرسل لجميع الكائنات من جنٍّ وإنسٍ وغيرهم ممن حقت له الدعوة وبذلك يفسر قولـه ـ تعالى ـ : ﴿**قـال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار . . .**﴾[2] الآية . قال في التبيان : هذه حكاية عن قول الله ـ تعالى ـ للكفار يوم القيـامة وأمـره لهم بالـدخول في جملة الأمم الذين تبعوا من قبلهم من جملة الجن والإنس وهم في النار .

---

(٢) سورة الأعراف ، آية : ٣٨ .

ويجوز أن يكون ذلك اخباراً عن جعله إياهم في جملة أولئك في النار من غير أن يكون هناك قول[٣] .

قال المؤلف : إن ادخال الجن والإنس في النار وعذابهم يدل على معاصيهم وهذا يدل بدوره على أن الشرع من الله واحد وإلاّ لم يصح عطف الإنس على الجن ؛ لأن هذا يعني التشريك في الحكم وهذا يدل أيضاً على أن الرسول واحد ، وليس هو إلاّ رسول الله (محمد بن عبدالله) ـ صلى الله عليه وآله ـ .

٣ ـ إنه قد بشرت به الأنبياء أممهم في القديم ، كما اشترط عليهم ربّهم الإعتراف بنبوته مسبقاً والإيمان به ونصرته إذا بعث وهم موجودون ، وإلى هذا أشار قوله ـ تعالى ـ : **﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقرتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين . فمن تولىٰ بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾**[٤] .

قال في مجمع البيان : يكون على هذا تقديره : إن الله ـ تعالى ـ قال لهم مهما أوتيتم كتاباً وحكمةً ثم يجيئكم به رسول مصدق لما معكم من ذلك الكتاب والحكمة والله لتؤمنن به ولتنصرنه ، فأقروا بذلك وأعطوا عليه مواثيقهم ، وهذا أشبه بما ذكر أن الميثاق أخذ على الأنبياء ليأخذوا على أممهم لتصديق محمد إذا بعث ، ويأمرونهم بنصرته على أعدائه إن أدركوه ، وهو المروي عن علي وابن عباس وغيرهما . ويكون معنىٰ قوله : **﴿جاءكم﴾** جاء أممكم وأتباعكم ، وإنما خرّج الكلام على النبيين لأن ما لزمهم لزم

---

(٣) التبيان : ج٤ ص٤٢٦ .

(٤) سورة آل عمران ، آية : ٨١ ، ٨٢ .

أممهم ؛ وذلك لأن الأنبياء هم الأفاضل وخيار الناس فأقروا بما أقروا وأشهدهم الله على ذلك وهو شاهد عليهم ، وقيل معناه ليشهد بعضكم على بعض ، وقيل : قال الله للملائكة : إشهدوا عليهم فيكون ذلك كفاية عن غير مذكور[٥] .

٤ ـ إنه قد أرسل خاتماً لهم ، وإلى هذا أشار قوله ـ تعالى ـ : ﴿**ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** . . . الآية﴾ قال في الميزان : الخاتم بفتح التاء ما يختم به كالطابع والقالب بمعنىٰ ما يطبع به ، وما يقلب به . والمراد بكونه خاتم النبيين أن النبوة اختتمت به ـ صلى الله عليه وآله ـ فلا نبي بعده .

وقد تقدم في ما مر بيان معنىٰ الرسالة والنبوة ، وأن الرسول هو الذي يحمل رسالة من الله للناس ، والنبي هو الذي يحمل نبأ الغيب الذي هو الدين ـ وحقائقه ولازم ذلك أن ترتفع الرسالة بارتفاع النبوة ، فإن الرسالة من أنباء الغيب ، فإذا انقطعت هذه الأنباء انقطعت الرسالة[٧] .

وروىٰ في المجمع في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ . . . **ولكن رسول الله وخاتم النبيين** . . . ﴾ الآية وصح الحديث عن جابر بن عبدالله عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ قال : إنما مثلي في الأنبياء كمثل رجل بنىٰ داراً فأكملها وحسنها إلاّ موضع لبنة ، فكان من دخلها ونظر إليها فقال : ما أحسنها إلاّ موضع هذه اللبنة . قال ـ صلى الله عليه وآله ـ : فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء . أورده البخاري ومسلم في صحيحهما .

---

(٥) مجمع البيان : ج١ ص٤٧٨ .
(٦) سورة الأحزاب ، آية : ٤٠ .
(٧) الميزان : ج١٦ ص٣٢٥ .

هذا كله إضافة إلى ما مدحه به ـ سبحانه ـ بصفاته في القرآن كقوله ـ تعالى ـ : ﴿وإنك لعلىٰ خلق عظيم﴾[8] قال في مجمع البيان أي على دين عظيم وهو دين الإسلام ، وقيل معناه إنك متخلق بأخلاق الإسلام ، وعلى طبع كريم . وحقيقة الخلق ما يأخذ به الإنسان نفسه من الآداب ، وإنما سمي خلقاً لأنه يصير كالخلقة فيه . فأما ما طبع عليه من الآداب فإنه (الخيم) فالخلق هو الطبع المكتسب و (الخيم) هو الطبع الغريزي . وقيل : الخلق العظيم : الصبر على الحق وسعة البذل وتدبير الأمور على مقتضىٰ العقل بالصلاح والرفق والمداراة وتحمل المكاره في الدعاء إلى الله ـ سبحانه ـ ، والتجاوز والعفو وبذل الجهد في نصرة المؤمنين ، وترك الحسد والحرص ونحو ذلك . وخلاصة القول : إن من مدحه الله ـ سبحانه ـ بأنه على خلق عظيم فليس وراء مدحه مدح . وقيل سمي خلقه عظيماً لأنه عاشر الخلق بخلقه وزايلهم بقلبه . فكان ظاهره مع الخلق ، وباطنه مع الحق . وقيل : لأنه امتثل تأديب الله ـ سبحانه ـ إياه بقوله : ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾[9] وقيل : سمي خلقه عظيماً لإجتماع مكارم الأخلاق فيه ويعضده ما روي عنه قال : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق وقال : أدبني ربي فأحسن تأديبي وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار . وعن أبي الدرداء قال : قال النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ ما من شيء أثقل في الميزان من خلق حسن . وعن الرضا علي بن موسىٰ ـ عليه السلام ـ عن آبائه ، عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ قال : عليكم بحسن الخلق فان حسن الخلق في الجنة لا محالة ، وإياكم وسوء الخلق فإن سوء

---

(٨) سورة القلم ، آية : ٢ .

(٩) سورة الأعراف ، آية : ١٩٩ .

الخلق في النـار لا محالـة . وعن أبي هريـرة عن النبي ـ صلى الله عليـه وآله ـ قال : (أحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً الموطؤن أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون ، وأبغضكم إلى الله المشاؤون بالنميمة المفـرقون بين الإخـوان الملتمسون للبرآء العثرات)[10] .

وكثير غير هذه الصفات التي ميزته عن غيره من سائر المخلوقات ، ورفعته عن مستوىٰ البشر ، فاستحق بذلك أن يكون سيد الكائنات .

ثم يكـرر ـ عليه السـلام ـ هذه العبـارة بين وقت وآخر وبين حـالـةٍ وأخرىٰ ، وبين كلام وآخر لأنه يعلم أنها هي الباب الذي يؤتىٰ منه لطلب الحاجات فنـراه يقول : (فصـلّ عليه وعلى آل محمـد المنتجبين الطيبين الطاهرين أجمعين) . وخلاصة القـول : إن هذا التكـرار جاء عن معـرفة تـامة بـالنبي ـ صلى الله عليه وآلـه ـ وآله الـذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . هؤلاء الذين ورد ذكرهم في القرآن في كثير من مناسبات الكـلام في أساليب المـدح والثناء ، مثـل قولـه ـ تعـالى ـ : ﴿**الـذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنـا لله وإنا إليـه راجعون أولئـك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون**﴾[11] فقد ذكر السيد هاشم البحراني في كتاب البرهان ، عن ابن شهر آشوب ، قال لما نعى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ علياً ـ عليه السلام ـ بحال جعفر في أرض مؤتة قال : ﴿**إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾ ، فأنزل الله : ﴿**الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمـة ، وأولئك هم المهتدون**﴾ .

---

(١٠) مجمع البيان : ج٥ ص٥٠٠ .

(١١) سورة البقرة، آية: ١٥٦ .

العفو عند المقدرة

وبعد هذا التوسل بمحمد وآله بصفاتهم سأل الله ما يريد ، وذلك بقوله : (وتغمدنا بعوفك عنا) ومن الملاحظ أنه قد عطف هذا على قوله : (فصلّ عليه وعلىٰ آل محمد . . . النص) المقبول حتماً عند الله ، فشرّك بذلك بينهما ليجعلهما صفقة واحدة ؛ لأنه ـ تعالى ـ أكرم من أن يقبل شيئاً ويرد شيئاً آخر من المسألة ، وذلك لتبعضها .

أما العفو المقصود فإنه قد عرّفه بالإضافة ، وذلك إلى الخصوصيات المعهودة في العفو المنسوب إليه ـ تعالى ـ فإن العفو مطلقاً ربما لا يأخذ هذا المعنىٰ ، ولكن العفو المقيد بالإضافة والمختص به ـ سبحانه ـ لا يشاكل غيره من العفو ؛ وذلك بعد التأمل في معنىٰ العفو الذي يفهم من اللفظ في النص وهو كما يلي :

١ ـ عفو عن غير مقدرة ، فهذا وإن كان يطلق عليه عفواً بالمعنىٰ المجازي إلاّ أنه يأتي نتيجة للعجز عن الإنتقام .

ويحدثنا التاريخ عن حوادث صدرت بهذا الشكل بين كثير من الملوك والأمراء أعياهم أمر مطاردة خصومهم حتىٰ يئسوا من الظفر بهم على ما أوتوا من حول وطول ، وبعد أن لجّوا في الطلب لجئوا إلى إصدار العفو عن هؤلاء الخصوم تآلفاً ، لهم بل خوفاً منهم .

غدر الرشيد بيحيى

من الحوادث المروعة التي يندىٰ لها الجبين هو ما فعله الرشيد بيحيىٰ بن عبدالله بن الحسن بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب المعروف بصاحب الديلم .

فقد نقل صاحب كتاب (مقاتل الطالبيين) إنه يكنىٰ بأبي الحسن ، وأمه قريبة بنت عبدالله وهو ذبيح ابن أبي عبيدة بن عبدالله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي . وهي بنت أخي هند بن أبي عبيدة ، وكان حسن المذهب مقدماً في أهل بيته بعيداً مما يعاب على مثله ، وقد روىٰ الحديث وأكثر الرواية عن جعفر بن محمد ـ عليه السلام ـ وروىٰ عن أبيه وعن أخيه محمد وعن أبان بن تغلب ، وروىٰ عنه مخول بن إبراهيم ، وبكار بن زياد ، ويحيىٰ بن مساور وعمرو بن حماد ، وذكر صاحب الكتاب أن جعفر بن محمد كان قد ربىٰ يحيىٰ بن عبدالله بن الحسن فكان يسميه حبيبي ، وكان إذا حدّث عنه قال : حدثني حبيبي جعفر بن محمد .

وقد ذكر الرواة إن يحيىٰ بن عبدالله بن الحسن لمّا قتل أصحاب فخ كان في قبلهم فاستتر مدة يجول في البلدان ويطلب موضعاً يلجأ إليه ،

وعلم الفضل بن يحيىٰ بمكانه في بعض النواحي فأمره بالإنتقال عنه وقصد الديلم ، وكتب له منشوراً لا يتعرض له أحد .

فمضىٰ متنكراً حتىٰ ورد الديلم ، وبلغ خبره الرشيد وهو في بعض الطريق ، فولّىٰ الفضل بن يحيىٰ نواحي المشرق وأمره بالخروج إلى يحيىٰ .

ثم استطرد أبو الفرج في ذكر حوادث جرت في هذا الضمن ثم قال : قالوا فلما علم الفضل بمكان يحيىٰ بن عبدالله كتب إلى يحيىٰ :

إني أحب أن أحدث بك عهداً وأخشىٰ أن تبتلىٰ بي وأبتلي بك ، فكاتب صاحب الديلم فإني قد كاتبته لك لتدخل في بلاده فتمتنع به ، ففعل ذلك يحيىٰ ، وكان قد صحبه جماعة من أهل الكوفة فيهم ابن الحسن بن صالح بن حي . كان يذهب مذهب الزيدية البترية في تفضيل أبي بكر وعمر ، وعثمان في ست سنين من امارته ، ويكفره في باقي عمره ، ويشرب النبيذ ، ويمسح على الخفين ، وكان يخالف يحيىٰ في أمره ويخالف أصحابه .

قال أبو الفرج : فلما جاء الفضل إلى بلاد الديلم قال يحيىٰ بن عبدالله : أللهم اشكر لي إخافة قلوب الظالمين ، أللهم إن تقض لنا النصر عليهم فإنما نريد إعزاز دينك ، وإن تقض لهم النصر في ما تختار لأوليائك وأبناء أوليائك من كريم المآب وسني الثواب . فبلغ ذلك الفضل فقال : يدعو الله أن يرزقه السلامة فقد رزقها .

قالوا فلما ورد كتاب الرشيد على الفضل وقد كتب الأمان على ما رسم يحيىٰ وأشهد الشهود الذين إلتمسهم ، وجعل الأمان على نسختين إحداهما مع يحيىٰ والأخرىٰ معه ، شخص يحيىٰ مع الفضل حتىٰ وافى

بغداد ودخله معادله في عمارية على بغل فقال مروان بن أبي حفصة :

وقــالــوا الــطالقــان يجن كنــزاً سيــأتينــا به الدهر الــمــديــل
فــأقبــل مكــديــاً لـهم بيحيىٰ وكنــز الــطالــقــان لــه زمــيــل

قالوا فلما قدم يحيىٰ أجازه الرشيد بجوائز سنية يقال أن مبلغها مائتا ألف دينار ، وغير ذلك من الخلع والحملان ، فأقام على ذلك مدة وفي نفسه الحيلة على يحيىٰ والتفرغ له ، وطلب العلل عليه وعلى أصحابه . حتىٰ أخذ رجلاً يقال له فضالة بلغه أنه يدعو إلى يحيىٰ فحبسه ، ثم دعا به فأمره أن يكتب إلى يحيىٰ بأنه قد أجابه جماعة من القواد وأصحاب الرشيد ففعل ذلك . وجاء الرسول إلى يحيىٰ فقبض عليه وجاء به إلى يحيىٰ بن خالد فقال له : هذا جاءني بكتاب لا أعرفه ودفع الكتاب إليه فطابت نفس الرشيد بذلك ، وحبس فضالة هذا فقيل له إنك تظلمه في حبسك إياه فقال : أنا أعلم ذلك ولكن لا يخرج وأنا حي أبداً .

قال فضالة : فلا والله ما ظلمني لقد كنت عهدت إلى يحيىٰ إن جاءه مني كتاب أن لا يقبله وأن يدفع الرسول إلى السلطان وعلمت أنه سيحتال عليه بي .

قالوا فلما تبين يحيىٰ بن عبدالله ما يراد به إستأذن في الحج فأذن له .

وقال علي بن إبراهيم في حديثه لم يستأذن في الحج ولكنه قال للفضل ذات يوم : إتق الله في دمي ، واحذر أن يكون محمداً ـ صلى الله عليه وآله ـ خصمك غداً فيَّ فرق له وأطلقه .

وكان على الفضل عين للرشيد قد ذكر ذلك له فدعا بالفضل وقال : ما خبر يحيىٰ بن عبدالله ؟ قال : في موضعه عندي مقيم . قال :

وحياتي ؟ قال : وحياتك إني أطلقته ، سألني برحمه من رسول الله فرققت له . قال : أحسنت قد كان عزمي أن أخلي سبيله . فلما خرج أتبعه طرفة وقال : قتلني الله إن لم أقتلك .

قالوا : ثم إن نفراً من أهل الحجاز تحالفوا على السعاية بيحيىٰ بن عبدالله بن الحسن والشهادة عليه بأنه يدعو إلى نفسه ، وأن أمانه منتقض ، فوافق ذلك ما كان في نفس الرشيد له ، وهم عبدالله بن مصعب الزبيري ، وأبو البختري وهب بن وهب ، ورجل من بني زهرة ، ورجل من بني مخزوم . فوافوا الرشيد لذلك واحتالوا إلى أن أمكنهم ذكرهم له ، فأشخصه الرشيد إليه وحبسه عند مسرور الكبير في سرداب ، فكان في أكثر الأيام يدعو به فيناظره ، إلى أن مات في حبسه رضوان الله عليه .

واختلف الناس في أمره وكيف كانت وفاته .

قيل بأن الرشيد دعا بيحيىٰ يوماً فجعل يذكر ما رفع إليه في أمره ، وهو يخرج كتباً كانت في يده حججاً له ، فيقرؤها الرشيد وأطراف الكتب بيد يحيىٰ . ثم أقبل عليه الرشيد فقال : دعني من هذا يا يحيىٰ ، أينا أحسن وجهاً أنا أو أنت ؟ قال : بل أنت يا أمير المؤمنين إنك لأنصع لوناً وأحسن وجهاً . قال : فأينا أكرم وأسخىٰ أنا أو أنت ؟ فقال : وما هذا يا أمير المؤمنين ما تسألني عنه ؟ أنت تجبىٰ إليك خزائن الأرض وكنوزها ، وأنا أتمحىٰ معاشي من سنة إلى أخرىٰ .

قال : فأينا أقرب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ أنا أو أنت ؟ قال : قد أجبتك عن خطتين فاعفني من هذه . قال : لا والله قال : بل فاعفني ، فحلف بالطلاق والعتاق أن لا يعفيه .

فقال : يا أمير المؤمنين لو عاش رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ

وخطب إليك ابنتك أكنت تزوجه ؟ قال : أي والله قال : فلو عاش فخطب إليّ أكان يحل لي أن أزوجه ؟ قال : لا ، قال : فهذا جواب ما سألت . فغضب الرشيد وقام من مجلسه وخرج الفضل بن ربيع وهو يقول : لوددت أني فديت هذا المجلس بشطر ما أملكه . ثم ردّه إلى محبسه في يومه ذلك .

ثم دعا به وجمع بينه وبين عبدالله بن مصعب الزبيري ليناظره في ما رفع إليه ، فجبهه ابن مصعب بحضرة الرشيد وقال له : نعم يا أمير المؤمنين إن هذا دعاني إلى بيعته . قال له يحيىٰ : يا أمير المؤمنين أتصدق هذا وتستنصحه ؟ وهذا ابن عبدالله بن الزبير الذي أدخل أباك وولده الشعب وأضرم عليهم النار حتىٰ تخلّصه أبو عبدالله الجدلي صاحب علي بن أبي طالب منه (عنوة) .

وهو الذي بقي أربعين جمعة لا يصلي على النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ في خطبته حتىٰ التاث عليه الناس ، فقال : إن له أهل بيت سوء إذا صليت عليه أو ذكرته أتلعوا أعناقهم واشرأبوا لذكره وفرحوا بذلك فلا أحب أن أقر عينهم بذكره .

وهو الذي فعل بعبدالله بن العباس ما لا خفاء به عليك حتىٰ لقد ذبحت يوماً عنده بقرة فوجدت كبدها قد ثقبت ، فقال إبنه علي بن عبدالله : يا أبه أما ترىٰ كبد هذه البقرة ؟

فقال : يا بني ، هكذا ترك ابن الزبير كبد أبيك ، ثم نفاه إلى الطائف ، فلما حضرته الوفاة قال لعلي إبنه : يا بني إلحق بقومك من بني عبد مناف بالشام ، ولا تقم في بلد لابن الزبير فيه إمرة . فاختار له صحبة يزيد بن معاوية على صحبة عبدالله بن الزبير .

وبعد أخذ ورد وحجاج في الكلام ونقض وإبرام رفع الرشيد رأسه إلى السقف يجيله فيه ليستر ما عراه من الضحك ثم غلب عليه الضحك ساعة وخجل ابن مصعب .

قالوا ثم جمع له الرشيد الفقهاء وفيهم محمد بن الحسن صاحب أبي يوسف القاضي ، والحسن بن زياد اللؤلؤي ، وأبو البختري وهب بن وهب ، فجمعوا في مجلس وخرج إليهم مسرور الكبير بالأمان ، فبدأ محمد بن الحسن فنظر فيه فقال : هذا أمان مؤكد لا حيلة فيه ، وكان يحيىٰ قد عرضه بالمدينة على مالك ، وابن الدراوردي وغيرهم فعرفوه أنه مؤكد لا علة فيه .

قال فصاح عليه مسرور وقال هاته ، فدفعه إلى الحسن بن زياد اللؤلؤي فقال بصوت ضعيف : هو أمان . واستلبه أبو البختري وهب بن وهب فقال : هذا باطل منتقض ، قد شق عصا الطاعة وسفك الدم فاقتله ودمه في عنقي .

فدخل مسرور إلى الرشيد فأخبره فقال له : إذهب فقل له خرّقه إن كان باطلاً بيدك ، فجاء له مسرور فقال له ذلك فقال : شقه يا أبا هاشم . قال له مسرور : بل شقه أنت إن كان منتقضاً .

فأخذ سكيناً وجعل يشقه ويده ترتعد حتىٰ صيره سيوراً ، فأدخله مسرور على الرشيد فوثب فأخذه من يده وهو فرح وهو يقول له : يا مبارك يا مبارك ! ووهب لأبي البختري ألف ألف وستمائة ألف، وولاه القضاء، وصرف الآخرين ، ومنع محمد بن الحسن من الفتيا مدة طويلة ، وأجمع على إنفاذ ما أراده في يحيىٰ بن عبدالله .

قال أبو الفرج الإصبهاني : عن رجل مع يحيىٰ بن عبدالله في

المطبق قال : كنت قريباً منه فكان في أضيق البيوت وأظلمها فبينا نحن ذات ليلة كذلك إذ سمعت صوت الأقفال وقد مضت من الليل هجعة ، فإذا هارون قد أقبل في بردون له ، ثم وقف وقال : أين هذا ؟ يعني يحيىٰ بن عبد الله بن الحسن . قالوا : في هذا البيت . قال عليّ به فأدني إليه فجعل هارون يكلمه بشيء لم أفهمه فقال : خذوه ، فأخذوه فضرب مائة عصا ، ويحيىٰ يناشده الله والرحم والقرابة من رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ ويقول : بقربتي منك ، فيقول : ما بيني وبينك قربة . ثم حمل فردّ إلى موضعه فقال : كم أجريتم عليه ؟ فقالوا : أربعة أرغفة وثمانية أرطال ماء . قال : إجعلوه على النصف ، ثم خرج ومكثنا ليالي ثم سمعنا وقعاً فإذا نحن به حتى دخل فوقف وقفة فقال : عليّ به ، فأخرج ففعل به مثل ما فعله ذلك ، وضربه مائة عصا أخرىٰ ، ويحيىٰ يناشده الله ، فقال : كم أجريتم عليه ؟ قالوا رغيفين وأربعة أرطال ماء قال : إجعلوه على النصف ، ثم خرج وعاد الثالثة ، وقد مرض يحيىٰ بن عبدالله وثقل ، فلما دخل قال : عليّ به ، قالوا هو عليل مدنف لما به . قال : كم أجريتم عليه ؟ قالوا رغيفاً ورطلين ماء ، قال : فاجعلوه على النصف . ثم خرج فلم يلبث يحيىٰ بن عبدالله أن مات ، فأخرج إلى الناس ، ودفن رضي الله عنه وأرضاه .

وقال ابن عمار في روايته عن إبراهيم بن رباح انه بنىٰ عليه إسطوانة بالرافعة وهو حي . وقال ابن عمّار في خبره عن علي بن محمد بن سليمان : إنه دسّ إليه في الليل من خنقه حتىٰ تلف . قال : وبلغني أنه سقاه سماً . وقال : علي بن إبراهيم ، عن إبراهيم بن بنان الخثعمي ، عن محمد بن أبي الخنساء : أنه أجاع السباع ثم ألقاه إليها فأكلته[١٢] .

---

(١٢) وإلى هذه الغدرة من الرشيد أشار الشاعر أبو فراس الحمداني في ميميته : =

وهناك روايات أخرىٰ حول كيفية قتله أعرضنا عنها خوف الإطالة .

قال المؤلف : من خلال ما تقدم ندرك أن الإنسان بقوته مهما بلغت فهو ضعيف ، وبعقله مهما بلغ فهو غبي .

إن الغدر من شأن اللئام ، ونقض العهد من شأن كل متحلل من الدين والأخلاق . والنموذج المطروح يدل علىٰ تغلب النفس الشريرة على العقل الذي يهدي الإنسان إلى الصراط السوي لو لم يجمد ، وعلى تغلب جانب الشر على جانب الخير كنتيجة حتميّة لصراع نفسي يحتدم في كيان الإنسان فيطفح على تصرفاته في ما بينه وبين غيره .

٢ ـ عفو حقيقي : وهو الذي يكون ناتجاً بمحض الإرادة بعد القدرة التامة على المجازاة ، وهذا لا يكون إلّا من عند الله . وإلى هذا أشار الكتاب العزيز في كثير من الآيات مثل قوله ـ تعالى ـ : ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾(١٣) قال في التبيان : أمر الله ـ تعالىٰ ـ نبيه أن يأخذ مع الناس بالعفو ، وهو التساهل فيما بينه وبينهم ، وقبول اليسير منهم الذي سهّله عليهم ، ويسّر فعله لهم ، وأن يترك الإستقصاء عليهم في ذلك ، وهذا يكون في المطالبة بالحقوق الواجبة لله ـ تعالى ـ وغيرها . وهو في معنىٰ الخبر عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ (رحم الله سهل القضاء سهل الإقتضاء) . ولا ينافي ذلك أن لصاحب الحق والديون وغيرها استيفاء الحق وملازمة صاحبه حتىٰ يستوفيه ؛ لأن ذلك مندوب إليه دون أن يكون واجباً . وقد يكون العفو في قبول العذر من المعتذر وترك المؤاخذة بالإساءة . وقد مرّ معنا في أبحاث سابقة من هذا الجزء حديث

= يا جاهداً في مساويهم يكتمها غدر الرشيد بيحيى كيف ينكتم

(١٣) سورة الأعراف ، آية : ١٩٩ .

حول هذا الموضوع .

ثم ذكر ـ عليه السلام ـ الحالة التي يكون الناسك عليها عادة في مثل ذلك الوقت فقال : (فإليك عجت الأصوات بصنوف اللغات) والعجيج هو عادة تغلب على كل ناسك ، وقد ذكرنا في بحث اللغة بأن العج هو رفع الصوت ، وفي هذه العبارة إشارة خفية إلى من يشمله العفو الذي سأله ربه وذلك أن عجيج الأصوات لا يصدر إلاّ عن إخلاص محض ، فإن العج لما كان مربوطاً بالدعاء لأنه من صفات الناسك وأن الدعاء كما قلنا في مواطن كثيرة بأنه عبادة ومركزة فإن العجيج إذا كان مصحوباً بهذا الدعاء وهذا الإخلاص فإن ذلك قد بلغ الذروة في العبادة ؛ لأن العج لا يأتي بمجرد الدعاء . وكأنه ـ عليه السلام ـ أراد أن يكون العفو لهؤلاء المخلصين الذين عجت أصواتهم بالدعاء في ذلك الإخلاص . أما من سواهم وهم الذين يعبدون الله على حرف ويرفعون أصواتهم بدون قصد فلا يشملهم محتوىٰ العبارة ؛ لأن ذلك لا يعدو كونه حالة ضوضائية لا تندرج تحت كلمة (العج) من الأصوات بحسب إفادة المعنىٰ اللغوي لهذه الكلمة .

أما صنوف اللغات فإنها تعني كل ناسك بحسب لغته ، فإما أن يكون المقصود من ذلك هو تعدد الألسنة سواء في ذلك العربي والأعجمي ، فإنه إذا أخلص في الدعاء والمسألة ، وأقبل على الله بقلب خاشع فإن اللسان يعبر عما في القلب بأي لغة . وأما أن يكون المقصود هو اختلاف المستويات ، وفهم الحالة التي يكون عليها الإنسان وهي تختلف شدةً وضعفاً من واحدٍ إلى آخر ، وينتج عن ذلك التعبير عمّا يكنه القلب باللسان بلهجات مختلفة أو تعبير مختلف ، وفي كل الخير . وبذلك تختلف مستويات الإجابة ، وبالتالي يختلف العطاء من حيث الكم .

وأما أن يكون المراد من ذلك هو الإختلاف ما بين المتكلم والأخرس الذي لا يستطيع أن يعبر في دعائه عن طلبه إلّا بإشارة يده .

وقد تتوارد على الخاطر من هذه العبارة بعض المعاني الأخرىٰ التي ربما تكون مقصودة أو غير مقصودة .

وأنت إذا حضرت ذلك المحشر تجسد لك ما نقول وفوق ما نقول ، فالكل في شغل شاغل ، والكل في أمرٍ لا يهمه غيره والكل في حالة إنصهار في الدعاء والمسألة . فهو يشبه إلى حدٍّ كبير يوم الحشر الأكبر إلّا أنه لا تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ؛ لأن الإنسان في ذلك اليوم منشد إلى الإنسان ، وكل واحدٍ يدعو لصاحبه ، وذلك بحسب ما ورد عن أهل البيت الطاهر ـ عليهم السلام ـ كما تقدم ذلك مراراً في تضاعيف الكتاب .

قال عليه السلام :

[واجْعَلْ لَنا في هٰذِهِ الْعَشِيَّةِ نَصِيْباً ، في كُلِّ خَيْرٍ تَقْسِمُهُ ، وَنوُرٍ تَهْدي بِهِ ، وَرَحْمَةٍ تَنْشُرُها ، وَعافِيَةً تُجَلِّلُها ، وَبَرَكَةٍ تُنْزِلُها ، وَرِزْقٍ تَبْسُطُهُ ، يا أَرْحَمَ الرّاحِمينَ] .

اللُّغَةُ

تنشرها : النشر الريح الطيبة قال مرقّش :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الاكف عنم

ونشر الله الميت أي أحياه ، قال ـ تعالى ـ : ﴿والناشرات نشراً﴾(١) قيل هي الملائكة تنشر الرحمة ، وقيل : هي الرياح تأتي بالمطر وانتشر الشيء انبسط ، ونشرت الخبر أنشره أي أذعته . والنشرة بضم النون ضرب من الرقية والعلاج ، يعالج به من كان يظن أن به مسّاً من الجن .

تجللها : جلل الشيء تجليلاً أي عمم . والمجلل السحاب الذي يجلل الأرض بالمطر أي يعم . وفي حديث الإستسقاء : وابلاً مجللاً أي

(١) سورة المرسلات ، آية : ٣ .

يجلل الأرض بمائة أو بنباته ، والجليل من أسمائه ـ سبحانه ـ ، وهو ذو الجلال والإكرام ، وجلال الله عظمته . والجلّىٰ الأمر العظيم ، وجلّ الدابة الذي تلبسه وتصان به والجمع جلال وأجلال . قال كثير :

وترىٰ البرق عارضاً مستطيراً مرح البلق جلن في الأجلال

وجلال كل شيء غطائه ، وتجلله أي علاه . وتجلل فلان بعيره إذا علا ظهره ، وأبل جلّاله تأكل العذرة وقد نهي عن لحومها وألبانها .

تبسطه : البسط نقيض القبض قال بعضهم :

إذا الصحيح غلّ كفاً غلّا بسّط كفيه معاً وملّا

وبسط الشيء نشره ، والبسيطة من أسماء الأرض ، وقيل هي الأرض العريضة الواسعة ، وبسط الرزق لعباده ـ سبحانه ـ يوسعه عليهم بجوده ورحمته ، والإنبساط ترك الإحتشام وبسط فلان يده بما يحب ويكره ، وبسط إلي يده بما أحب وأكره وفي التنزيل العزيز : ﴿**لئن بسطت إلي يدك لتقتلني** . . .﴾[2] الآية .

البيان

في هذه الفقرة ذكر ـ عليه السلام ـ مطلباً آخر من المطالب التي سأل الله أن يحققها فقال : (واجعل لنا في هذه العشية نصيباً في كل خير تقسمه) ولقد سأل بلسان الجميع فجاء بضمير الجمع (لنا) وذلك لغرض الإفادة والإستفادة فهو يدعو لأهل الموقف جميعاً ، وهم من تقدمت صفاتهم والتي ذكرناها في البحث السابق .

على أن الطلب الذي يسأله الإنسان في مثل تلك المواطن لا يلبث

(٢) سورة المائدة ، آية : ٢٨ .

أن يلبي في الحال ، لأن أسباب الإجابة متوفرة ومن أهمها الإخلاص في الدعاء . وإن ما أراده الحسين ـ عليه السلام ـ لا يريده لنفسه فقط ، وانما لأهل الموقف عامة من كان يستحق منهم تلبية ذلك الطلب .

ففي عشية عرفة وهي نصف النهار ما بين الزوال إلىٰ غروب الشمس عطاء من الله لعباده الناسكين لا يخطر ببال ؛ لأن هذا الوقت قد محض لهذا الغرض ، وهو يمر في السنة مرة واحدة . ولقد ذكرنا مراراً بأن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ قد كثفوا الأدعية وذكروا كثيراً من الفضل ، وطرحوا كثيراً من الترغيبات لهذه القطعة السنوية من الوقت .

أما النصيب الذي ذكره في العبارة فالمقصود به شيء من ذلك الخير الفائض ، وسهم من ذلك العطاء الذي لا ينقطع أبداً . وفي العبارة إشارة إلى تعدد هذا الخير فقوله ـ عليه السلام ـ : (في كل خير) أي في جميع أنواع الخير ، وأنواعه متعددة كما هو ظاهر يلوح في أفق العبارة التي بعد هذا ، وسوف يأتي تفصيله .

فهو يدعو لأهل الموسم بأن ينال كل منهم نصيباً من ذلك الخير الذي يقسمه سبحانه في تلك العشية على عبادة كما وعد بذلك الداعين السائلين وهو لا يخلف وعده .

النصيب من الخير

ثم بدأ ـ عليه السلام ـ بعد أن سأل الله العطاء له ولغيره من أهل الموقف ، بدأ يعدد كل نصيب على حده ، وذلك ينبيك أن العطاء في ذلك اليوم ليس من سنخ واحد وهو كما يلي :

١ ـ (ونور تهدي به) والهداية بالنور تكون في الأصل للعين الباصرة ؛ وذلك لوجود العلاقة القوية بين العين وبين النور ، وقد سبق أن ذكرنا ذلك في الجزء الثاني من الكتاب . ولماذا لم يقل : (ضياء) ، أو (ضوء) . ولقد قلنا هناك بأن نسبة العموم والخصوص المطلق بين الضوء والنور هي التي أوجدت الفرق في الإستعمال . وقد أوضحنا هناك كثيراً من الفوارق بما لا مزيد عليه من التفصيل . هذا إذا قلنا بأن النور الوارد في عبارة الدعاء هذه مما يخص نور الإبصار . وربما انطبق هذا المعنى على قوله تعالى : ﴿**ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور**﴾[٣] . فقد ورد في تفسيرها أن ذلك نفى للنور عنهم بأن الله لم يجعله لهم كيف لا ؟ وجاعل النور هو الله الذي هو نور كل شيء ، فإذا لم يجعل لشيء نوراً لم يكن له نور إذ لا جاعل غيره تعالى . قاله في الميزان .

---

(٣) سورة النور ، آية : ٤٠ .

أما إذا قلنا : بأن النور هو ما يهدي البصيرة وينير العقل فإن الهداية بهذا المعنىٰ ، وكما يفيده سياق العبارة تعني التمسك بالحق ، ولزوم دين الإسلام .

وفي العبارة إستعارة حسّية ظاهرة ، وبذلك يبلغ كلامه ـ عليه السلام ـ الذروة في الأسلوب من حيث ظهور المعنىٰ .

وإلى هذا يشير قوله ـ تعالى ـ : **﴿يوم ترىٰ المؤمنين والمؤمنات يسعىٰ نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم﴾**[٤] قال في الميزان : الآية مطلقة تشمل مؤمني جميع الأمم ولا تختص بهذه الأمة والتعبير عن إشراق النور بالسعي يشعر بأنهم ساعون إلى درجات الجنة التي أعدّها الله ـ سبحانه لهم وتستنير لهم جهات السعادة ومقامات القرب واحدة بعد واحدة حتىٰ يتم لهم نورهم[٥] .

وبذلك يظهر لنا معنىٰ النور الذي يهدي به ـ سبحانه ـ هو نور الإيمان الذي يهدي إلى الصراط المستقيم . قال ـ تعالى ـ : **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾**[٦] قال المفسرون : أما الهداية فيظهر معناها في ذيل الكلام على الصراط ، وأما الصراط فهو الطريق ، والسبيل قريب المعنىٰ . وقد وصف ـ تعالى ـ الصراط بالإستقامة ثم بيّن أنه الصراط الذي يسلكه الذين أنعم الله عليهم ، فالصراط الذي من شأنه ذلك هو الذي سئل الهداية إليه ، وهو بمعنىٰ الغاية للعبادة . أي أن العبد يسأل ربّه

---

(٤) سورة الحديد ، آية : ١٢ .

(٥) الميزان : ج١٩ ص١٥٥ .

(٦) سورة الفاتحة ، آية : ٦ .

أن تقع عبادته الخالصة في هذا الصراط إلىٰ آخره[7] .

ولما كان النور بهذه المكانة في حياة الإنسان بحيث أصبح مرتبطاً بجميع حركاته وسكناته سواءً كان في ليل أو نهار ، كان له أثر ظاهر وأثر باطن :

١ ـ **أما الأثر الظاهر** : فهو لا يمكنه رؤية الأشياء ، وكل ما حوله من جبالٍ وأشجارٍ وسماءٍ وأرضٍ وشمسٍ وقمرٍ ونجومٍ إلّا بواسطة النور الذي يقع في بصره فيرسله إلى الأشياء فيراها أو يقع على الأشياء منعكسه على بصره فيحس بالإبصار وقد مرّ ذلك في كثير من المواطن من أبحاث الكتاب في الجزء الثاني .

وخلاصة القول أن الإنسان لا يمكن لأن يهتدي إلى رؤية الأشياء إلّا بواسطة النور ، وبذلك يعرف الإنسان مواطن الخطر ، ويفرق بين الجميل والقبيح .

٢ ـ **أما الأثر الباطن** : فهو ما تناولته عبارة الدعاء ، وهو نور الحق الذي ينير قلبه ويهدي بصيرته . ولا يخفىٰ ما في ذلك من وجوه المماثلة بين الهدايتين الظاهرة والباطنة ، وإلى هذا أشار قوله ـ تعالى ـ : **﴿فإنها لا تعمىٰ الأبصار ولكن تعمىٰ القلوب التي في الصدور﴾**[8] قال في الميزان عدّ من لا يعقل ولا يسمع أعمىٰ القلب ثم بولغ فيه بأن حقيقة العمىٰ هي عمىٰ القلب دون عمىٰ العين لأن الذي يعمىٰ بصره يمكنه أن يتدارك بعض منافعه الفائتة بعصا يتخذها أو بهادٍ يأخذه بيده ، وأما القلب فلا بدل له يتسلىٰ به . وجعل ظرفاً للقلب من المجاز في النسبة ، وفي الكلام مجاز

---

(٧) الميزان : ج١ ص ٢٨ .

(٨) سورة الحج ، آية : ٤٦ .

آخر ثانٍ من هذا القبيل وهو نسبة العقل إلى القلب ، وهو للنفس[٩] . فإن التقابل بين الهداية والعمىٰ وبين العين والقلب ، يشبه على الإنسان أيهما مصاب بالعمىٰ في موطن من المواطن ، ولكن هـذا القرآن قـد رفع هـذا الإيهام ، وذكر بأن العمىٰ يصيب القلب ولا يصيب العين ؛ لأن العين وهي إحدىٰ الحواس الخمس قد تعوض عنها بقية الحواس الأخرىٰ لأن جميع هذه الجوارح الخمس مادية تقوم كل منها مقام الأخرىٰ ، وتعوض إحداها عن الأخرىٰ ، فالأعمىٰ الذي فقد بصره يستطيع أن يعتمد على ما بقي له من الحواس ، فيقوم بأعمال يقـوم بها المبصـر كحصول العلم وغيـره من الأشياء التي تشترك في الحصول عليها الحواس جميعاً .

أما القلب وهو الجارحة الوحيدة التي لا يقوم مقامها جارحـة أخرىٰ فإنها إذا تعطلت تعطلت كل الحواس بما في ذلك البصر ؛ لأن القلب هو السلطان عليها ، وبذلك تصبح الحواس في وضع فـوضوي ليس لهـا آمر وناهي .

ومما تقدم ندرك أن عبارة الدعاء يحتمل فيها قوياً أنها قد تناولت في مفهومها النقطتين السابقتين ، أي الـظاهر والبـاطن ، وهو قـوله ـ عليـه السلام ـ : (ونور تهدي به) .

٢ ـ (ورحمة تنشرها) أخذ في هذه العبارة يتحدث عن الرحمة التي وسعت كل شيء ويطلبها . ونشر الرحمة يعني بسطها على جميع خلقه ، وكل خلقه محتـاجون لـرحمته بغيـر استثناء من جن وإنس ومـلائكة وكـل موجود في الكون .

وفي العبـارة إشارة إلى أن رحمتـه سبحانـه لا تنتهي ، لأن التنكيـر

(٩) الميزان للطباطبائي : ج١٤ ص٣٨٩ .

يقتضي عدم التخصيص ، وهذا بدوره يقتضي أن هناك رحمة ينشرها ، وهناك رحمة أخرىٰ مخزونة ، وهناك أنواع من الرحمة بين هاتين ، وأفواج منها أخرىٰ لا نعلمها .

فرحمة الدنيا ـ مثلاً ـ تختلف عن رحمة الآخرة وكلاهما رحمة . فإن رحمة الدنيا تتمثل في مظاهرها المادية الموجودة ، والتي ربما تتجلىٰ في العبارات التالية لهذه العبارة مثل قوله ـ عليه السلام ـ : (عافية) ، (بركة) ، (رزق) . فنشر هذه الرحمة يعني توفير هذه الأشياء للإنسان في حياته الدنيا ، وهذا ما يشير إليه قوله ـ تعالى ـ : ﴿**وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته**﴾[10] قال الطوسي في التبيان : أي ينزله عليهم من بعد أياسهم من نزوله ، ووجه إنزاله بعد القنوط أنه أدعىٰ إلى شكر الآتي به وتعظيمه والمعرفة بمواقع إحسانه ، وكذلك الشدائد التي تمر بالإنسان ، ويأتي الفرج بعدها ، تعلق الأمل بمن يأتي به ، وتكسب المعرفة بحسن تدبيره في ما يدعو إليه من العمل بأمره والإنتهاء إلى نهيه . ونشر الرحمة عمومها لجميع خلقه ، فهكذا نشر رحمة الله مجددة حالاً بعد حال . ثم يضاعفها لمن يشاء ، وكل ذلك على مقتضىٰ الحكمة وحسن التدبير الذي ليس شيء أحسن منه[11] .

٣ ـ ثم قال ـ عليه السلام ـ : (وعافية تجللها) والتجلل بالعافية يعني شمولها للإنسان ، وهي بحسب المفهوم اللغوي سلامة الإنسان في بدنه من الداخل والخارج .

أما من الداخل فهو أن تكون أعضاء الإنسان وجوارح جسمه سليمة

---

(١٠) سورة الشورىٰ ، آية : ٢٨ .

(١١) التبيان للطوسي : ج٩ ص١٦٢ .

ليس فيها عطب . والعافية بهذا الإعتبار نعمة من الله للإنسان ، وهي تعني الصحة التي هي من أكبر النعم على الإنسان . بل إن الصحة هي نعم الدنيا كلها ، فمن تمتع بها فقد تمتع بخير الدنيا .

وأما من الخارج فهي السلامة من جميع أنواع الأذىٰ التي يكون الإنسان غرضاً لها ، فإن أنواع المحن التي تلم بالإنسان من قريب أو بعيد وترد عليه من جميع الجهات قد تقلق راحته وقد تؤدي بحياته ، فالخوف والحزن والكدر أيّاً كان أسبابها كلها تنفي العافية وتبعدها عن الإنسان . إن تجلل العافية يعني نفي كل ما يشوب حياة الإنسان من أكدار وضيق معيشة وكل ما من شأنه أن يتسبب في قلق راحة الإنسان ، والإنحراف بمزاجه الطبيعي .

وهذا الكلام كما يشمل أصحاب النفوس البسيطة يشمل أصحاب النفوس العالية ، إلّا أن الأولين يطفح كل ذلك على ملامحهم الخارجية وتعتريهم الإنفعالات النفسية .

أما الآخرون فإن نفوسهم تمتص ما يعتريها من كوارث خارجية ومن مصائب ترد عليهم من هنا ومن هنا كما يمتص الإسفنج الماء .

فهذه النفوس وإن تشبعت بذلك كله مما يعتريها فإنها تكتمه ، بل وتبالغ في كتمانه ، ويعتبر هذا الإنسان نفسه أشد قوة ، وأصلب عوداً من هذه المؤثرات وإن كبرت .

٤ ـ ثم بدأ ـ عليه السلام ـ في طلب البركة التي تنزل من السماء ، والحديث عنها كالحديث الذي سبق عن الرحمة ، وهناك من الآيات في الذكر الحكيم التي تشير إلى هذه البركة وإنزالها من السماء مثل قوله ـ تعالى ـ : **﴿وجعلنا بينهم وبين القرىٰ التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا**

فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين﴾[١٢] قال الراغب في المفردات إن أصل البرك ـ بفتح الباء ـ صدر البعير وإن استعمل في غيره وبرك البعير ألقىٰ ركبه وابتركت الدابة وقفت وقوفاً كالبروك وسمي محبس الماء بركة ، والبركة ثبوت الشيء الإلٰهي في الشيء ، وسمي بذلك لثبوت الخير فيه ، ثبوت الماء في البركة ، والمبارك ما فيه ذلك الخير .

قال ولما كان الخير الإلٰهي يصدر من حيث لا يحس وعلى وجهٍ لا يحصىٰ ولا يحصر قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة .

فالبركة بالحقيقة هي الخير المستقر في الشيء اللازم له البركة في النسل وهي كثرة الأعقاب أو بقاء الذكر بهم خالداً ، والبركة في الطعام أن يشبع به خلق كثير مثلاً ، والبركة في الوقت أن يسع من العمل ما ليس في سعة مثله أن يسعه .

غير أن المقاصد والمآرب الدينية لما كانت مقصورة في السعادات المعنوية أو الحسيّة التي تنتهي إليها بالآخرة كان المراد بالبركة الواقعة في الظواهر التي فيها هو الخير المعنوي أو ينتهي إليه كما أن مباركته ـ تعالى ـ الواقعة في قول الملائكة النازلين على إبراهيم ـ عليه السلام ـ : **﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾**[١٣] خيرات متنوعة معنوية كالدين والقرب وغيرهما ، وحسّية كالمال وكثرة النسل وبقاء الذكر وغيرها ، وجميعها مربوطة بخيرات معنوية .

وعلى هذا فالبركة وهي كون الشيء مشتملاً على الخير المطلوب

---

(١٢) سورة سبأ ، آية : ١٨ .

(١٣) سورة هود ، آية : ٧٣ .

كالأمر النسبي يختلف باختلاف الأغراض ؛ لأن خيرية الشيء إنما هي بحسب الغرض المتعلق به فالغرض من الطعام ربما كان إشباعه الجائع ، أو أن لا يضر آكله ، أو يؤدي إلىٰ شفاء واستقامة مزاج ، أو يكون نوراً في الباطن يتقوىٰ به الإنسان على عبادة الله ، ونحو ذلك كانت البركة فيه إستقرار شيء من هذه الخيرات فيه بتوفيق الله ـ تعالى ـ بين الأسباب والعوامل المتعلقة به ورفعه الموانع .

ومن هنا يظهر أن نزول البركة الإلٰهية على شيءٍ واستقرار الخير فيه لا ينافي عمل سائر العوامل فيه واجتماع الأسباب عليه فليس معنىً إرادة الله صفة أو حالة في شيء أن يبطل سائر الأسباب والعلل المقتضية له ـ وقد مرّ مراراً في أبحاثنا السابقة ـ فإنما الإرادة الإلٰهية سبب في طول الأسباب الأخر لا في عرضها . فإنزاله ـ تعالى ـ بركته على طعام مثلاً هو أن يوفق بين الأسباب المختلفة الموجودة في أن لا تقتضي في الإنسان كيفية مزاجية يضره معها هذا الطعام ، وأن لا تقتضي فساده أو ضيعته أو سرقته أو نهبه أو نحو ذلك ، وليس معناه أن يبطل الله سائر الأسباب ويتكفل هو تعالىٰ إيجاد الخير فيه من غير توسيطها .

والبركة كثيرة الدور في لسان الدين فقد ورد في الكتاب العزيز ذكرها في آيات كثيرة بألفاظ مختلفة ، وكذا ورودها في السنّة(١) .

وخلاصة القول في ذلك أن البركة التي ينزلها ـ سبحانه ـ لها مدخلية كبيرة في تنظيم حياة الإنسان المعاشية ، وذلك لأن الرزق هو مقرر من الله ـ سبحانه ـ وقد ورد عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ قوله : (لا تسألوا الله زيادة الرزق ، ولكن سلوه البركة) ، وذلك لأن الرزق مقرر وإنما يبارك فيه ، ولذلك جاء بالرزق مباشرة بعدها .

---

(١٤) الميزان للطباطبائي : ج٧ ص٢٨٠ .

بسط الرزق

فقد قال ـ عليه السلام ـ :

٥ ـ (ورزق تبسطه) وبسط الرزق يعني توزيعه على جميع الخلق .

وهذه المسألة هي من أمهات المسائل التي يبحثها علماء الكلام في كيفية توزيع هذا الرزق .

والسؤال الذي يراود الإنسان في هذا المجال هو لماذا يكون التفاوت بين العباد في الرزق ، وهل هذا التفاضل فيه يعني التفاضل في الخلق ؟ وللجواب على هذا السؤال ينبغي أن ننظر مسبقاً إلى أحوال الخلق المتفاوتة من حيث القوة والضعف في البدن ومن حيث الطول والقصر ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرىٰ اختلاف نفسيات البشر من واحدٍ إلىٰ آخر ، ومن ثم اختلاف هواياتهم . هذه الإختلافات الحتمية الموجودة في كيان الإنسان أشار إليها ـ سبحانه وتعالى ـ في الكتاب العزيز في قوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾[١٥] فقد جاء في تفسيرها أن أحد وجوه التفسير في الآية خلقكم مختلفين في الصفات ، أغنياء وفقراء ، وزمنىٰ وأصحاء ، وطوالاً وقصاراً . قاله في مجمع البيان .

---

(١٥) سورة نوح ، آية : ١٤ .

وما ورد في الحديث القدسي قوله : (منهم من لو أغنيته لأفسده الغنىٰ ، ومنهم من لو أفقرته لأفسده الفقر) لأن الله عالم بعواقب الأمور .

وقد علل ـ سبحانه ـ كل هذا بقوله في الذكر الحكيم : **﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير﴾**[16] القدر مقابل البسط ومعناه التضييق ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : **﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾**[17] والقدر بفتح الدال وسكونها كمية الشيء .

ومعنىٰ الآية ولو وسع الله الرزق على عباده فأشبع الجميع بإتيانه لظلموا في الأرض ، لما أن من طبع سعة المال الأشر والبطر والإستكبار والطغيان كما قال ـ تعالى ـ : **﴿إن الإنسان ليطغىٰ ، أن رآه استغنىٰ﴾**[18] ، ولكن ينزّل ما يشاء من الرزق بقدر وكمية معينة إنه بعباده خبير بصير ، فيعلم ما يستحقه كل عبد ، وما يصلحه من غنىٰ أو فقر فيؤتيه ذلك .

فسنة الإصلاح لتقدير الرزق سنة إبتدائية يصلح بها حال الإنسان إلاّ أن يمتحنه الله . وكما أن إيتاء المال والبنين وسائر النعم الصورية من الرزق المقسوم كذلك المعارف الحقة والشرائع السماوية المنتهية إلى الوحي من حيث إنزالها ومن حيث الإبتلاء بها والتلبس بالعمل بها من الرزق المقسوم .

فالرزق بالمعارف والشرائع من أي جهة فرض كالرزق الصوري

---

(١٦) سورة الشورىٰ ، آية : ٢٧ .

(١٧) سورة الإسراء ، آية : ٣٠ .

(١٨) سورة العلق ، آية : ٧ .

مفروز بين الناس مقدر على حساب صلاح حالهم[١٩] .

فقوله ـ عليه السلام ـ في النص الماثل أمام هذا البحث : (ورزق تبسطه) يقتضي شمول هذه الأنواع التي ذكرت في تفسير الآية من المال والبنين والتوفيق للطاعة واعتناق مبدأ الحق وغير ذلك من كل ما يزين الإنسان ، ويتزين به الإنسان في أمور معاشة وحياته وكيانه وشرفه .

---

(١٩) الميزان للسيد الطباطبائي : ج١٨ ص٥٦ .

أرحم الرّاحِمِين

ثم توسل ـ عليه السلام ـ لله سبحانه بذكر صفة هي من أعظم صفاته وأجلّها قدراً ، وأحبها لكل مخلوق تلك هي قوله : (يا أرحم الراحمين) وذلك لأن جميع ما طلبه من الله لا يتحقق إلاّ برحمته ومنّه ، فوصفه بهذه الصفة وذكرها بعد السؤال مباشرة وإلصاقها بما طلب ، يعني طلب ما يتعلق بتلك الصفة ، وما يأتي بواسطتها ، وما يتعلق بها هو الهداية والرحمة والعافية والبركة والرزق .

أما كونه (أرحم الراحمين) فلا شك في ذلك بعد أن أفاضت الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والأخبار المعصومية في الكلام عن هذه الرحمة ، فكلامنا فيها بعد ذلك كله كناقل التمر إلى هجر ، أو كتحصيل حاصل .

بقي الكلام حول إسم التفضيل (أرحم) هل تصح المقايسة والمقارنة بين رحمته سبحانه ورحمة عباده التي هي مستمدة من رحمته ؟ ونرىٰ بموجب هذا السياق أن معنىٰ الرحمة معنىٰ مشكك ، فهي تختلف شدةً وضعفاً حتىٰ ما بين أفراد البشر .

فالرحمة بمفهومها العام هي كل ما يطلق عليه هذا الإسم ، إلاّ أن

المصاديق تختلف من فرد لآخر ، إلاّ أن أعلاها ذروة هي رحمة الله التي وسعت كل شيء إن صحّ التعبير . فهي تشمل رحمة العباد لبعضهم البعض ؛ لأنه سبحانه هو الذي يتصرف في القلوب الرحيمة ، فيلقي فيها الرحمة ويقلبها من حالٍ إلى حالٍ .

وفي ما ورد عن الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمد ـ عليه السلام ـ في أحوال الإمام المنتظر وسيرته قال : (لا يزال يقتل ويقتل حتىٰ يرضىٰ الله . فسأله أحد أصحابه : وكيف يعلم بأن الله قد رضي . قال : يلقي الرحمة في قلبه فيكف عن القتل . . . الحديث) .

وقد ورد كثيراً هذا اللفظ بعينه في كتاب الله العزيز مثل قوله ـ تعالى ـ : ﴿فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾[٢٠] قال في الميزان : هو في موضع التعليل لقوله : ﴿فالله خير حافظ﴾ أي إن غيره ـ تعالى ـ ربما أمن في أمر وائتمن عليه في أمانة سلّم له ، فلم يرحم المؤتمن وضيع الأمانة ، لكنه ـ سبحانه ـ أرحم الراحمين لا يترك الرحمة في محل الرحمة[٢١] .

(٢٠) سورة يوسف ، آية : ٦٤ .

(٢١) الميزان : ج١١ ص٢١٤ .

قال عليه السلام :

[اَللَّهُمَّ أَقْلِبْنا في هٰذَا الْوَقتِ مُنْجِحينَ ، مُفْلِحينَ ، مَبْرُورينَ غٰانِمينَ ، وَلا تَجْعَلْنٰا مِنَ الْقانِطِينَ ، وَلاٰ تُخْلِنا مِنْ رَحْمَتِكَ ، وَلاٰ تَحْرِمْنٰا ما نُؤَمِّلُهُ مِنْ فَضْلِكَ ، وَلاٰ تَرُدَّنٰا خـائِبِينَ ، وَلاٰ عَنْ بٰابِـكَ مَطْرُودينَ ، وَلاٰ تَجْعَلْنـا مِنْ رَحْمَتِكَ مَحْرُومينَ ، وَلاٰ لِفَضْلِ ما نُؤَمِّلُهُ مِنْ عَطٰايٰاكَ قـانِطينَ ، يـا أَجْوَدَ الأَجْوَدينَ ، وَيَا أَكْرَمَ الأَكْرَمينَ] .

اللُّغَةُ

أقلبنا : القلب تحويل الشيء عن وجهه ، وقلب الشيء وقلبه حوّله ظهـراً لبطن ، وقلبت الشيء فـانقلب أي إنكب . والقلب أيضاً صـرفـك إنساناً عن وجهه الذي يريده .

وقلب الأمـور بحثها ، ونـظر في عواقبهـا . وفي الذكـر الحكيم : ﴿وقلّبوا لك الأمور﴾(١) . والإنقلاب إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ المصيـر إليه ، وقال بعضهم سمي القلب قلباً لتقلبه وأنشد :

(١) سورة التوبة ، آية : ٤٨ .

مـا سمي الـقلب إلاّ مـن تقـلبـه والـرأي يصرف بـالإنسـان أطـواراً

وقلب القرآن (يس) وقلب العقرب منـزل من منازل القمـر ، وهو كوكب نير وبجانبيه كوكبان .

والإنقلاب الرجوع ومنه قـوله ـ تعـالى ـ : ﴿فانقلبـوا بنعمة من الله وفضلٍ لم يمسسهم سوء﴾[٢] .

مفلحين : الفلاح والفلح : الفوز والنجاة والبقاء في النعيم والخير . قال ـ تعالى ـ : ﴿قد أفلح المؤمنون﴾[٣] وإنما قيل لأهل الجنة مفلحـون لفوزهم ببقاء الأبد ، وأفلح الرجل ظفر ، وقد يقال لكل من أصاب خيـراً مفلح . قال عبيد :

أفـلح بـمـا شئت فـقـد يـبـلغ بـالـنـوك وقـد يخـدع الأريـب

معناه فز واظفر ، وقيل عش بما شئت من عقل وحمق ، فقد يرزق الأحمق ، ويحرم العاقل . ومن ألفاظ الجـاهلية في الـطلاق : إستفلحي بأمرك أي فوزي به .

وفي الأذان (حيّ على الفلاح) يعني هلّم على بقاء الخير ، وقيل : أي عجل وأسرع على الفلاح ، وقيل : أي أقبل على النجاة ، وقيل : أي هلمّوا إلى سبب البقاء في الجنة والفوز بها وهو الصلاة .

مبرورين : البر الصدق والطاعة ، والبر خير الدنيا والآخرة . فخير الـدنيا مـا ييسره الله ـ تعـالى ـ للعبد من الهـدىٰ والنعمة والخيـرات وخير الآخـرة الفوز بـالنعيم الـدائم في الجنـة ، جمـع الله لنـا بينهمـا بكـرمـه

(٢) سورة آل عمران ، آية : ١٧٤ .
(٣) سورة المؤمنون ، آية : ١ .

ورحمته ، وبرّ يبر إذا صلح . وبرّ في يمينه يبرّ إذا صدقه ولم يحنث .

وفي الحديث في برّ الوالدين وهو في حقهما وحق الأقربين من الأهل ضد العقوق ، وهو الإساءة إليهم ، وأبرّ عليهم غلبهم قال طرفة :

يكشفون الضر عن ذي ضرهم ويبرون على الآبي المبر

غانمين : الغنم الفوز بالشيء من غير مشقّة . جاء ذلك في لسان العرب . وفيه نظر ، لأن غنيمة الحرب لا تسمى بذلك إلّا بعد الحرب . والحرب مشقة . والفوز بالشيء غنيمة . وجاء في الحديث : (من كان له الغنم فعليه الغرم) . وقال الأزهري : الغنيمة ما أوجف عليه المسلمون بخيلهم وركابهم من أموال المشركين ويجب فيه الخمس كما نطق بذلك الذكر الحكيم في قوله ـ تعالى ـ : **﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربىٰ . . .﴾**[4] الآية .

والغانم آخذ الغنيمة ، والجمع الغانمون . وفي الحديث : الصوم في الشتاء الغنيمة الباردة سمّاه غنيمة لما فيه من الأجر والثواب مع عدم المشقة .

القانطين : القنوط اليأس أو اليأس من الخير وليس مطلقاً ، وقيل : أشدّ اليأس من الشيء ، قال ـ تعالى ـ : **﴿قال ومن يقنط من رحمة ربّه إلّا الضالون﴾**[5] . ويقال : شر الناس الذين يقنطون الناس من رحمة الله أي يؤيسونهم .

خائبين : خاب يخيب خيبة ، حرم ولم ينل ما طلب ، والخيبة

---

(٤) سورة الأنفال ، آية : ٤١ .

(٥) سورة الحجر ، آية : ٥٦ .

الحرمان والخسران . قال تعالى : ﴿وقد خاب من افترىٰ﴾[٦] أي بمعنىٰ كفر ، والخياب القدح الذي لا يوري ، وقد أنشد ثعلب :

أسكت ولا تنطق فأنت خياب كلك ذو عيب وأنت عياب

مطرودين : الطرد الشل ، والطريد المطرود من الناس والأنثىٰ طريد وطريدة . ويقال طردت فلاناً فذهب .

والطرد الإبعاد . والحكم طريد رسول ـ صلى الله عليه وآله ـ من المدينة ؛ لأنه أبعده عنها . والطريد الرجل يولد بعد أخيه فالثاني طريد الأول . والليل والنهار طريدان كل منهما طريد صاحبه . قال الشاعر :

يعيدان لي ما أمضيا وهما معاً طريدان لا يستلهيان قراري

وطردت الرجل إذا نحيته ، والطريدة ما طردت من صيد وغيره ، وأطرد الكلام إذا تتابع ، ومنه العكس والطرد .

البيان

بعد أن فرغ من ذكر ما طلب في ما تقدم من الكلام في البحث السابق بدأ في هذه الفقرة يسأل الله الإجابة على ما سأل ، ويدعوه إلى أن يفعل به الخير ؛ لأنه أهل للخير . وقد صور ـ عليه السلام ـ نفسه في وقت الدعاء في اطمئنانه للإجابة إنه كالمتناول حاجته بيده ، ومع هذا كله فهو لا ينفك عن التضرع والخشوع إليه ـ تعالى ـ .

فقد قال ـ عليه السلام ـ : (أللهم اقلبنا في هذا الوقت منجحين) والإقلاب في مثل ذلك الوقت ، وهو عشية عرفة الذي كان فيه ما كان من عج الأصوات بمختلف اللغات وتغاير اللهجات هو حصيلة عمل ذلك

---

(٦) سورة طه ، آية : ٦١ .

اليوم ، والغرض الأسمىٰ من هذه العبادة التي سعىٰ إليها الإنسان ، ولم يبلغها إلاّ بشق الأنفس .

والإنقلاب بعد ذلك بالنجاح والإنجاح دليل على قبول العمل ، وربما توجه هذا النجاح إلى معنيين .

الأول : هو إستمرار الإنسان الناسك في بقية أعماله بدون حرج لم يمسسه شيء من الضيق حتىٰ يؤدي ما فرض عليه من مستقبل أعمال الحج .

الثاني : أو أن (منجحين) يعني بقبول هذا العمل الذي أخلص فيه الإنسان لربّه كما مر مع ـ تجاوز في التعبير ـ وإلى هذا أشار قوله ـ تعالى ـ : ﴿**فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء**﴾[٧] . قال الطوسي في التبيان : الإنقلاب والرجوع والمصير واحد ، وقد فرّق بينهما بأن الإنقلاب هو المصير إلى ضدّ ما كان قبل ذلك ، كانقلاب الطين خزفاً .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿**بنعمة من الله وفضل**﴾ قيل في معناه ـ كما ذكر كثير من المفسرين جملة من الأقوال أهمها :

هو أن النعمة العافية ، والفضل التجارة والسوء القتل . وقيل النعمة ها هنا الثبوت على الإيمان في طاعة الله ، وفضل الربح في تجارتهم ؛ لأنه روي أنهم أقاموا في الموضع ثلاثة أيام فاشتروا أدماً وزبيباً ربحوا فيه . وقال قوم إن أقل ما يفعله الله بالخلق فهو نعمة ، وما زاد عليه فهو الموصوف بأنه فضل . والفرق بين النعمة والمنفعة أن النعمة لا تكون نعمة إلاّ إذا كانت حسنة ؛ لأنه يستحق بها الشكر ، ولا يستحق الشكر بالقبيح

---

(٧) سورة آل عمران، آية: ١٧٤ .

والمنفعة قد تكون حسنة وقد تكون قبيحة مثل أن يغصب ما لا ينتفع به وإن كان قبيحاً[٨] .

ثم يأخذ ـ عليه السلام ـ في التدريج في هذا الإنقلاب الذي يعود فيه الإنسان بالسعادة من نجاحه في مسألته فإنه ينتج عنه الفلاح فيما سأل . وإلى هذا أشار بقوله ـ عليه السلام ـ : (مفلحين) ؛ لأن الفلاح يأتي كنتيجة مترتبة على النجاح .

وكثيراً ما نوّه القرآن بهذا الفلاح ونسبه إلى المؤمنين مما يدل على عظم شأن الكلمة . قال ـ تعالى ـ : **﴿قد أفلح المؤمنون﴾**[٩] قال الراغب : الفلح بالفتح فالسكون الشق وقيل : الحديد بالحديد يفلح أي يشق ، والفلاح الظفر وإدراك بغية ، وذلك ضربان دنيوي وأخروي . فالدنيوي الظفر بالسعادات التي تطيب بها الحياة الدنيا ، وهو البقاء والغنىٰ والعز ، والأخروي أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وغنىً بلا فقر وعز بلا ذل ، وعلم بلا جهل ، ولذلك قيل لا عيش إلاّ عيش الآخرة ، فالفلاح بهذا الإعتبار هو عبارة عن تلك الحالة التي يكون فيها الإنسان وهو مغبوط بما عنده نتيجة لعمله الذي استوفىٰ أجره .

بقي أن نقول أن هذه الكلمة (مفلحين) إن كانت بكسر اللام فإن معنىٰ ذلك أن الإنسان بعمله الذي أخلص فيه لله أوصله إلىٰ هذه النتيجة المرضية .

وإن كان بفتح اللام فإن ذلك يعني أن هذا الفلاح قد تفضل به عليه ربّ الأرباب إذ وفقه في ذلك اليوم وهو يوم عرفة للعمل الصالح ، ثم قبل منه ذلك العمل .

---

(٨) التبيان للطوسي .

(٩) سورة المؤمنون ، آية : ١ .

البرُّ

ثم يقول ـ عليه السلام ـ : (مبرورين) والبر معناه قبول العمل أو العمل المقبول . فالبر بمفهومه العام هو مباركة العمل وهو يعني فعل الخير ، وقد ورد هذا المفهوم في آي الذكر الحكيم ، قال ـ تعالى ـ : ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾[10] قال السيد عبد الأعلى السبزواري في تفسيره الكبير (مواهب الرحمٰن) البر هو سعة الخير ، ويطلق على كل خير من الإحسان ، والنسيان غيبة الشيء عن النفس بعد حضوره فيها ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿وما كان ربّك نسياً﴾[11] إذ لا يعقل النسيان ممن كان ما سواه حاضراً لديه ويستعمل بمعنىً مطلق الترك أيضاً . قال ـ تعالى ـ : ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾[12] .

والخطاب وإن كان موجهاً إلى بني إسرائيل لكنه عام يشمل الجميع ، وأشد معاتبة الآمرون بالمعروف التاركون له ، والناهون عن

---

(١٠) سورة البقرة، آية: ٤٤ .

(١١) سورة مريم ، آية : ٦٤ .

(١٢) سورة الأعراف ، آية : ٥١ .

المنكـر الفاعلون لـه حتىٰ نفىٰ الله ـ تعالى ـ عنهم العقـل بلسان التـوبيخ والتأنيب ، وهو كذلك لأن أول مرتبة العقـل والكمال العقلي هـو مطابقـة القول للفعل ، بل يعد ذلك من الأمور النـظامية الإجتمـاعية ، فـإن نظام المجتمع يقوم بالقانون والعمل به وبدونـه يكون خـرقاً للنـظام ، وإشاعـة للفساد ، كما أن الآمرين بالمعـروف والناهين عن المنكـر أحق باتبـاع ما يـأمرونـه ، والإنتهاء عمّـا ينهون عنـه ، لأن الحجة عليهم أتم ، فـإن لم ينسلخ عن شهوة نفسه كيف يتمكن من إزالة الشهوة عن غيره ، ولذا ورد التأكيد عن الأئمة الهداة ـ عليهم السلام ـ بقولهم : (كونوا دعـاة إلى الله بغيـر ألسنتكم) وقد ثبت في الفلسفـة ، وفي الأحـاديث الكثيـرة علىٰ أن للحركات القلبية والجذبات النفسية آثاراً خاصـة في النفوس ، بـل يكون الشخص في عين أنه ينهىٰ بلسانـه مثلاً بكـون تأثيـراته النفسيـة أقوىٰ من النهي اللساني على النفوس .

وهذه الآيات تتضمن قاعدة محاورية من صحـة خطاب الأبنـاء بما يفعل الآباء ، أو خطاب الآباء بما يفعل الأبناء أو خطاب الجميع بما يفعل البعض(١٣) .

بعد كل ما تقدم من توضيح لمعنىٰ البر من خلال الآيـات القرآنيـة والمعاني اللغوية نقول : إن قوله ـ عليه السلام ـ (مبرورين) أي أن العمل ليس المطلوب مجرد قبوله ، ولكن بالإضافـة إلى ذلك يـريده أن يتصـدر العمل الصالح لأنه لا يرضىٰ من نفسه بالعمل الهزيل . وكثيراً ما ورد في الروايات ذكـر الحج المبـرور ، ولما كـان موقف عـرفة هـو بدايـة أعمال الحج ، ويكون العمـل مبروراً في ذلـك اليوم ، فـإن الأعمال المتـلاحقة

---

(١٣) تفسير مواهب الرحمٰن للسيد السبزواري : ج١ ص٢٠٨ .

تأخذ ذلك الطابع فتكون مبرورة ، وإذا كان العمل قد بلغ القمة في القبول بهذا الوصف ، وتربع في دست الطاعة فإن بقية الأعمال ينسحب عليها ذلك الوصف أيضاً أو القبول على الأقل .

الغنيمة

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (غانمين) والغنيمة بحسب ما ورد في بحث اللغة هو الفوز بالشيء ، فهو يسأل في ذلك اليوم الفوز بقبول عمله في موقف عرفة من أول الموقف إلى آخره بدليل قوله ـ عليه السلام ـ (أقلبنا) لأن الإنقلاب من الموقف لا يكون إلّا في آخره وهو غروب الشمس من ذلك اليوم .

وإذا انجرّ الكلام على الغنيمة يأتينا في هذا المورد ذكر غنائم الحرب ، وهي ما أوجف عليه المسلمون بخيلهم وركابهم من أموال المشركين ، وهذا يجب فيه الخمس . وقد ورد بهذا الحكم الكتاب والسنّة .

أما الكتاب فمنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿**واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربىٰ** . . . الآية ﴾[١٤] فقد جاء في تفسيرها أن الغنيمة ما أخذ من أموال أهل الحرب من الكفار بقتال ، وهي هبة من الله ـ تعالى ـ للمسلمين والفيء ما أخذ بغير قتال ، وهو المروي في أخبارنا عن أهل البيت الطاهر .

(١٤) سورة الأنفال ، آية : ٤١ .

وقال قوم الفيء والغنيمة واحد . قاله في التبيان[15] .

وقال في مجمع البيان : بين ـ سبحانه ـ حكم الغنيمة في هذه الآية مما قلّ أو كثر . وقد اختلف العلماء في كيفية قسمة الخمس ومن يستحقه على أقوال : ونحن لا يهمنا إلاّ ما ذهب إليه أصحابنا . وهو أن الخمس يقسم على ستة أسهم ، فسهم لله وسهم للرسول ، وهذان السهمان مع سهم ذي القربىٰ للإمام القائم مقام الرسول ـ صلى الله عليه وآله ـ وسهم ليتامىٰ آل محمد ، وسهم لمساكينهم ، وسهم لأبناء سبيلهم ، لا يشركهم في ذلك غيرهم ؛ لأن الله ـ سبحانه ـ حرّم عليهم الصدقات ؛ لكونها أوساخ الناس ، وعوضهم من ذلك الخمس ، وروىٰ ذلك الطبري عن علي بن الحسين زين العابدين ـ عليه السلام ـ ، ومحمد بن علي الباقر ـ عليهما السلام ـ . وروي أيضاً عن أبي العالية والربيع : أنه يقسم على ستة أسهم إلاّ أنهما قالا : سهم الله للكعبة والباقي لمن ذكره الله[16] .

أما ما جاء في السنة فمنها ما روي في المسائل عن محمد بن الحسن ، بإسناده عن سعد بن عبدالله ، عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بن يحيىٰ ، عن عبدالله بن مسكان ، عن زكريا بن مالك الجعفي ، عن أبي عبدالله ـ عليه السلام ـ : إنه سأله عن قول الله ـ عزّ وجلّ ـ : **﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل﴾** فقال : أما خمس الله ـ عزّ وجلّ ـ فللرسول يضعه في سبيل الله ، وأما خمس الرسول فلأقاربه ، وخمس ذوي القربىٰ فهم أقرباؤه وحدها ، واليتامىٰ يتامىٰ أهل بيته ، فجعل هذه الأربعة أسهم فيهم ، وأما المساكين وابن السبيل فقد عرفت أنا

(١٥) التبيان للطوسي : ج٥ ص١٤٣ .

(١٦) مجمع البيان للطبرسي : ج٤ ص٨٣٥ .

لا نأكل الصدقة ولا تحل لنا فهي للمساكين وأبناء السبيل[17] .

وعنه عن أحمد بن محمد ، عن الحسين بن سعيد ، عن حمّاد بن عيسىٰ ، عن ربعي بن عبدالله بن الجارود عن أبي عبدالله ـ عليه السلام ـ قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ إذا أتاه المغنم أخذ صفوه وكان ذلك له ثم يقسم ما بقي خمسة أخماس ويأخذ خمسه ثم يقسم أربعة أخماس بين الناس الذين قاتلوا عليه ، ثم قسم الخمس الذي أخذه خمسة أخماس يأخذ خمس الله ـ عزّ وجلّ ـ لنفسه ، ثم يقسم الأربعة أخماس بين ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وأبناء السبيل يعطي كل واحداً منهم حقاً ، وكذلك الإمام أخذ كما أخذ الرسول ـ صلى الله عليه وآله ـ[18] .

ثم يواصل ـ عليه السلام ـ كلامه المتردد بين الخوف والرجاء بصورة مشفق من أعماله وخائف من سوء المنقلب فقال : (ولا تجعلنا من القانطين) .

---

(١٧) وسائل الشيعة للحر العاملي : ج٦ ص ٣٥٥ .

(١٨) وسائل الشيعة الحر العاملي : ج٦ ص٣٥٦ .

القنوط

القنوط كما سبق تفسيره في بحث اللغة هو اليأس من الخير ، وهو حالة نفسانية تصل فيها النفس إلى هذه المرحلة المسبوقة بمراحل مختلفة فمنها :

المرحلة الأولى : طول الأمل ، وهذه الحالة تؤدي إلى إهمال الإنسان كل شيء تعويلاً على المستقبل الغامض ، وهذا ناتج عن سوء التصرف والجهل الممقوت .

قال في جامع السعادات : طول الأمل هو أن يقدر ويعتقد بقاءه إلى مدة متمادية ، مع رغبته في جميع توابع البقاء ، من المال والأهل والدار وغير ذلك ، وهو من رذائل قوتي العاقلة والشهوة ، إذ الإعتقاد المذكور راجع إلى الجهل المتعلق بالعاقلة ، وحبه لجميع توابع البقاء وميله إليه من شعب حب الدنيا . وجهله راجع إلى تعويله ! إما على شبابه ، فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، ولا يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدّوا لكانوا أقل من عشر عشير أهل البلد ، وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر ، وإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب ، أو على صحته وقوته ، ويستبعد مجيء الموت فجأة غير بعيد ، إذ كل مرض إنما يقع فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً . ولو تفكر هذا الغافل ، وعلم أن

الموت ليس له وقت مخصوص ، من شباب وشيب وكهولة ، ومن شتاء وخريف وصيف وربيع ، وليل ونهار ، وحضر وسفر ، لكان دائماً مستشعراً غير غافل عنه ، وعظم اشتغاله بالإستعداد له ، لكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا بعثاه على الغفلة وطول الأمل ، فهو أبداً يظن أن الموت بين يديه ، ولا يقدر نزوله ووقوعه فيه ، ويشيع الجنائز ولا يقدر أن يشيع جنازته ، لأن هذا قد تكرر عليه ، وألفه بتكرر مشاهدة موت غيره . وأما موت نفسه ، فلم يألفه ولا يتصور أن يألفه ، لأنه لم يقع ، وإذا وقع لا يقع دفعة أخرىٰ بعده فهو الأول وهو الآخر !

المرحلة الثانية : وهي تعادل الخوف والرجاء عند الإنسان ، وهذه المرحلة هي الحالة المثلىٰ التي يمتاز بها المتقون عن غيرهم ، حتىٰ أنه لو وزن أحدهما مقابلاً للآخر لما رجح هذا على ذاك ذرة واحدة ، وهي حالة لا تكون إلّا عند من خاف مقام ربّه ونهىٰ النفس عن الهوىٰ ، ووثق بالله ثقة تامة . وقد استوفينا هذا في أبحاث مختلفة سابقة من الكتاب أغنتنا عن الإطالة هنا .

المرحلة الثالثة : وهي مرحلة القنوط واليأس من رحمة الله ، وهذه الحالة هي من أخطر الحالات على العبد ؛ لأنه من أساء ظنه بربّه ، وقد ورد في المأثور (إن الله عند ظن عبده فليظن به خيراً) . وقد حذر الباري ـ سبحانه ـ عباده من أن تعتريهم هذه الحالة التي تضيع الآمال وتذيب الأعمال . فقال ـ تعالى ـ في الكتاب العزيز : **﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾**[19] جاء في تفسير هذه الآية : إن الآية شاملةً

---

(١٩) سورة الزمر ، آية : ٥٣ .

للمشركين ، ولا ينبغي أن يرتاب في ذلك ، والقول بأن المراد به المشركون خاصة ، نظراً إلى سياق الآيات كما نقل عن ابن عباس أقرب إلى القبول من تخصيصه بالمؤمنين . والمراد بالرحمة بقرينة خطاب المذنبين ودعوتهم هو الرحمة المتعلقة بالآخرة دون ما هي أعم . الشاملة للدنيا والآخرة .

ومن المعلوم أن الذي يفتقر إليه المذنبون من شئون رحمة الآخرة بلا واسطة هو المغفرة . فالمراد بالرحمة المغفرة ؛ ولذا علل النهي عن القنوط من الرحمة بقوله : ﴿**إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾[٢٠] .

ومن الروايات الواردة في تفسير هذه الآية ـ كما في مجمع البيان ـ عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ انه قال : ما في القرآن آية أوسع من ﴿**يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم** . . . الآية ﴾ .

وفيه أيضاً قيل : هذه الآية يعني قوله : ﴿**يا عبادي الذين أسرفوا** . . . الآية ﴾ نزلت في وحشي قاتل حمزة حين أراد أن يسلم وخاف ألّا تقبل توبته ، فلما نزلت الآية أسلم . فقيل يا رسول الله هذه له خاصة أم للمسلمين عامة ؟ فقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : بل للمسلمين عامة .

وعن كتاب سعد السعود لابن طاوس نقلاً عن تفسير الكلبي : بعث وحشي وجماعة إلى النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ أنه ما يمنعنا من دينك إلّا أننا سمعنا تقرأ في كتابك أن من يدعو مع الله إلٰهاً آخر ويقتل النفس ويزني يلق أثاماً ويخلد في العذاب ونحن قد فعلنا ذلك كله ، فبعث إليهم بقوله ـ تعالى ـ : ﴿**إلّا من تاب وآمن وعمل صالحاً**﴾[٢١] فقالوا : نخاف أن لا

---

(٢٠) تفسير الميزان للطباطبائي : ج١٧ ص٢٧٩ .
(٢١) سورة مريم ، آية : ٦٠ .

نعمل صالحاً فبعث إليهم : **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾** فقالوا نخاف أن لا ندخل في المشيئه. فبعث إليهم **﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾** فجاؤوا وأسلموا .

فقال النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ لوحشي قاتل حمزة : غيب وجهك عني فإني لا أستطيع النظر إليك ، قال : فلحق بالشام فمات في الخُمر .

قال المؤلف : مما تقدم يظهر لنا أن القنوط وهو اليأس من الخير لا يمكن أن يخامر قلب المؤمن ، لأن هذا ثقته بربّه تكفي لنيل الرحمة ، فإذا حلت الرحمة إنتفىٰ القنوط كما هو صريح الآية الكريمة الآنفة الذكر . على أن الرحمة التي وسعت كل شيء لا يمكن للإنسان إلّا أن يذعن لها وتنفي عن نفسه الوسواس والشكوك ليحل محل ذلك الأمل الذي يداعب خيال الإنسان فإن الذنب وإن كان عظيماً فإن الله أعظم من ذلك ، وهل يغفر الذنب العظيم إلّا العظيم ؟

فعن الدر المنثور قال : أخرج ابن أبي شيبة ومسلم عن أبي أيوب الأنصاري قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ يقول : لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون فيغفر لهم .

الخلو من الرحمة

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (ولا تخلنا من رحمتك) والخلو من الرحمة يكون له أسباب متعددة :

١ ـ أن لا يكون عمل يؤهله لشمول الرحمة له ، وبذلك يأتي يوم القيامة وهو خالي اليدين من أي عمل قليلاً كان أو كثيراً ، وهذا النمط من البشر موجود بكثرة ، وهذه الحال مترتبة على عدم شعور الإنسان بالمسئولية ، وإهماله لكل القيم ، فلم يحسب للأمور حسابها .

٢ ـ وربما كان له عمل غير مقبول وذلك لأسباب لها مدخلية في ردّ ذلك العمل ، كالرياء والعجب وغير ذلك من الأمور التي تأكل الأعمال كما تأكل النار الحطب .

وقد تعرض القرآن لهذه الظاهرة في قوله ـ تعالى ـ : **﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾**(٢٢) فقد جاء في تفسير هذه الآية : وأقبلنا إلى كل عمل عملوه ، والعمل هو الذي يعيش به الإنسان بعد الموت ففرقناه تفريقاً ، لا ينتفعون به كالهباء المنثور .

---

(٢٢) سورة الفرقان ، آية : ٢٣ .

ولا منافاة بين ما تدل عليه الآية من حبط الأعمال يومئذٍ وبين ما تدل عليه آيات أخر أن أعمالهم أحبطت حين ما عملوها في الدنيا بكفرهم وإجرامهم ، فإن معنىٰ الإحباط بعد الموت ظهور الحبط لهم بعدما كان خفياً في الدنيا عليهم(٢٣) .

وذكر السيد هاشم البحراني في تفسير البرهان عن الشيخ أحمد بن فهد في كتاب (عدة الداعي) قال : روىٰ الشيخ أبو محمد جعفر بن أحمد بن علي القمي نزيل الري في كتابه المبني عن زهد النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ عن عبد الرحمٰن عمّن حدثه ، عن معاذ بن جبل قال : قلت حدثني بحديث سمعته من رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ وحفظته من دقة ما حدثك به ، قال : نعم ، وبكى معاذ ، ثم قال : بأبي وأمي حدثني وأنا رديفه قال : بينما نحن نسير إذ رفع بصره إلى السماء فقال : الحمد لله الذي يقضي في خلقه ما أحب ثم قال : يا معاذ قلت : لبيك يا رسول الله سيد المؤمنين ، قال : يا معاذ قلت : لبيك يا رسول الله إمام الخير ونبي الرحمة ، قال : أحدثك لما حدث من بني أمية ، إن حفظته نفعك عيشك ، وإن سمعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله ، ثم قال : إن الله خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السمٰوات فجعل في كل سماء ملكاً قد جللها بعظمته ، وجعل على كل،(وفي نسخة) لكل باب من أبواب السمٰوات ملكاً بواباً ، فتكتب الحفظة عمل العبد من حين يصبح إلى حين يمسي ، ثم ترفع الحفظة بعمله وفي نسخة ثم تصعد الحفظة بعمله ، وله نور كنور الشمس حتىٰ إذا بلغ سماء الدنيا فتزكيه وتكثره فيقول الملك : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك الغيبة ، فمن اغتاب فلا أدع

(٢٣) تفسير الميزان : ج١٥ ص٢٠١ .

عمله يجاوزني إلى غيري ، أمرني بذلك ربي ، ثم قال : تجيء الحفظة من الغد ، ومعهم عمل صالح متميز به فتزكيه وتكثره حتىٰ يبلغ إلى سماء الثانية فيقول الملك الذي في السماء الثانية : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنما أراد بهذا غرض الدنيا أنا صاحب الدنيا لا أدع عمله يتجاوز إلى غيري ، قال : ثم تصعد الحفظة بعمل العبد مبتهجاً بصدقة وصلاة ، فتعجب به الحفظة فيجاوزه إلى السماء الثالثة فيقول الملك : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه وظهره أنا صاحب الكبر ، فيقول : إنه عمل وتكبر فيه على الناس في مجالسهم ، أمرني ربي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كالكوكب الدري في السماء ، له دوي بالتسبيح والصوم والحج ، فمر به إلى السماء الرابعة ، فيقول لهم الملك قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه وبطنه ، أنا ملك العجب ، إنه كان يعجب بنفسه ، وأنه عمل وأدخل نفسه العجب أمرني ربي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد كالعروس المزفوفة إلى أهلها ، فتمر به إلى ملك السماء الخامسة بالجهاد والصلاة ما بين الصلاتين ، ولذلك العمل زنين كزنين الإبل عليه ضوء كضوء الشمس ، فيقول الملك قفوا أنا ملك الحسد ، واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه وتحمله على عاتقه أنه كان يحسد من يتعلم أو يعمل لله بطاعته ، وإذا رأىٰ لأحد فضلاً في العمل والعبادة حسده ووقع فيه ، فيحمله على عاتقه ويلعنه عمله ، قال : ويصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمرة وغيرها فيتجاوز إلى السماء السادسة فيقول الملك : قفوا أنا صاحب الرحمة ، اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واطمسوا عينيه لأن صاحبه لم يرحم شيئاً وإذا أصاب عبد من عباد الله ذنباً للآخرة أو ضراء به في الدنيا ، شمت به أمرني ربي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري قال : فتصعد الحفظة بعمل العبد بفقه واجتهاد

وورع ، وله صوت كصوت الرعد ، وضوء كضوء البرق ، ومعه ثلاثة آلاف ملك فيمر بهم إلى السماء السابعة ، فيقول الملك : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه ، أنا ملك الحجاب ، أحجب كل عمل ليس الله أنه أراد رفعة عند الناس ، وذكراً في المجالس وصيتاً في المدائن أمرني ربي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري ما لم يكن خالصاً قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد مبتهجاً به من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وحسن خلق وصمت وذكر كثير ، تشيعه ملائكة السمٰوات والملائكة السبعة بجماعتهم ، فيطوون الحجب كلها ، حتىٰ يقوموا بين يدي الله ـ سبحانه ـ فيشهدوا له بعمل صالح ودعاء فيقول : أنتم حفظة عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه ، انه لم يردني بهذا العمل عليه لعنتي فتقول الملائكة : عليه لعنتك ولعنتنا قال : ثم بكىٰ معاذ قال : فقلت : يا رسول الله ما أعمل وما أخلص فيه ؟ قال : اقتد نبيك يا معاذ في اليقين ، قال : قلت : أنت رسول الله وأنا معاذ ؟ قال : وإن كان في عملك تقصير يا معاذ فاقطع لسانك عن إخوانك ، وعن حملة القرآن ولتكن ذنوبك عليك لا تحملها على إخوانك ، ولا تزك نفسك بذميم إخوانك ، وفي نسخة بذم إخوانك ، ولا ترفع نفسك بوضع إخوانك ، ولا ترائي بعملك ولا تدخل من الدنيا في الآخرة ، ولا تفحش في مجلسك لكي يحذروك لسوء خلقك ، ولا تناجي مع رجل وأنت مع آخر ، ولا تتعظم على الناس فيقطع عنك خيرات الدنيا ، ولا تمزق الناس فتمزقك كلاب أهل النار ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿**والناشطات نشطاً**﴾[24] أفتدري ما الناشطات ؟ هي كلاب أهل النار تنشط اللحم والعظم قلت : ومن يطيق هذه الخصال ؟ قال : يا معاذ أما أنه يسر على من يسّر الله عليه ، قال : وما رأيت معاذاً يكثر تلاوة القرآن

(٢٤) سورة النازعات ، آية : ٢ .

كما يكثر تلاوة هذا الحديث[١٥] .

٣ ـ القنوط وقد تحدثنا عنه توأ ، وهو من أعظم الخطايا التي يقترفها الإنسان في حق ربّه ـ سبحانه ـ ؛ لأنه إساءة ظن بالله سبحانه ، وعدم ثقة بالنفس ، وتحقير للعمل ، كل ذلك إذا اجتمع فإنه يؤدي إلى هدم الكيان وزعزعة النفس المطمئنة إلى ربّها . راجع هذا الموضوع قبل صفحات .

ثم بدأ يذكر ما يريد في ذلك الموقف ، وما يؤمله من الله ـ سبحانه ـ فقال : (ولا تحرمنا ما نؤمله من فضلك) وهذه اللهجة يظهر فيها منتهىٰ الثقة بالله ـ سبحانه ـ ، ولكنها مشوبة بالحذر مليئة بالخوف من الله ، فإن الحرمان الذي سأل ربّه أن يجنبه إياه هو وارد على العبد في كل لحظة وعلى كل حال ، ولكن الأمل الذي جاء من بعده أحدث الموازنة بين احتمال الحرمان ، وبين تحقيق ما يؤمله من فضل الله سبحانه .

أما الأمل فإنه حق من حقوق العبد التي يحصل بها من مولاه شيئاً كثيراً ، وفي ذلك غاية الإنشداد والتبعية إلى المولىٰ ـ سبحانه ـ ، وبعد هذا فإن الله أكرم من أن يخيب هذا الأمل من العبد ، أو يبدد تلك الأحلام التي تراوده في كل لحظة ، فتضيع بذلك الثقة به ـ سبحانه ـ .

ثم يقول ـ عليه السلام ـ : (ولا تردنا خائبين ، ولا عن بابك مطرودين ، ولا تجعلنا من رحمتك محرومين ، ولا لفضل ما نؤمله من عطاياك قانطين) هذه عبارات متقاربة في المعنىٰ وكلها تشير إلى نمط واحد من التضرع والخشوع ، ولزوم حالة واحدة في الدعاء يعني عدم الإنصراف قلباً وقالباً عن ذكر الله ـ سبحانه ـ ، فقوله ـ عليه السلام ـ :

---

(٢٥) تفسير البرهان للسيد البحراني : ج٣ ص١٥٩ .

(ولا تردنا خائبين) أن الرد بالخيبة هو خسران الـدنيا والآخـرة ، وإذا لم يرجع الإنسان بعد ذلك الموقف بالنجاح فإن الدنيا ستظلم بين عينيه ؛ لأن ذلك المكان وذلـك الزمـان فيهما أكبـر فرصـة للحصول على المغنم من العطاء ، فمن ساء طالعه وردّ خـائباً في ذلـك اليوم فـذلك هـو الخسران المبين .

وقوله ـ عليه السلام ـ : (ولا عن بابك مطرودين) معناه الإبعاد عن الرحمة والرضوان ، وقد أشار القرآن العزيز إلى هذا في قوله ـ عزّ وجلّ ـ : **﴿ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾**[٢٦] قال في الميزان : إن المشركين من قـوم النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ إقترحوا عليه أن يطرد عن نفسه الضعفاء المؤمنين بـه فنهاه الله ـ تعالى ـ في هذه الآية عن ذلك .

وذلك منهم نظير ما إقترحه المستكبرون من سائـر الأمم من رسلهم أن يطردوا عن نفسهم الضعفاء والفقـراء من المؤمنين استكباراً وتعـزيزاً ، وقـد حكىٰ الله ـ تعالى ـ عن قـوم نوح في مـا حكاه من محـاجته ـ عليـه السلام ـ حجاجاً يشبه ما في هذه الآيات من الحجاج ، قـال ـ تعالى ـ : **﴿فقال الملأ الذين استكبروا من قومه ما نراك إلاّ بشراً مثلنا ، ومـا نراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي نرىٰ لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾**[٢٧] .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (ولا تجعلنا من رحمتك محرومين) فإن

---

(٢٦) سورة الأنعام ، آية : ٥٢ .

(٢٧) سورة الأعراف ، آية : ٧٥ .

الحرمان من الرحمة هو نفس الخيبة ونفس الطرد ، وقريب منه معنىٰ القنوط ، إلّا أن الأخير بما ورد من معناه في بحث اللغة وهو اليأس هو أعلىٰ درجات الحرمان . ومن الملاحظ في هذه الفقرات أنه قد تدرج فيها من اللين إلى الشدّة ، فالخيبة أقل من الطرد والطرد أقل من الحرمان من الرحمة ، والحرمان أقل من القنوط الوارد في قوله ـ عليه السلام ـ : (ولا لفضلك ما نؤمله من عطاياك قانطين) .

ثم نراه ـ عليه السلام ـ قد بدأ في التملق فأخذ يصف ربّه بما هو أهله من الصفات فقال ـ عليه السلام ـ : (يا أجود الأجودين ، ويا أكرم الأكرمين) وأفعل التفضيل في هاتين الصيغتين ، وما يعنيه هو بعينه ما ينطبق على قوله : (يا أرحم الراحمين) في البحث السابق ، فقد ذكرنا هناك بأن معنىٰ الرحمة من المعاني المشككة وهو ما يختلف شدةً وضعفاً بين أفراد الكلي . وكذلك (أجود) ، (أكرم) . ثم أنظر إلى هاتين الكلمتين فإنك تجد عند التأمل أن كل واحدة منهما آخذة بذيل الأخرىٰ وذلك لشدة تعلق بعضهما ببعض ، وذلك ينبيك عن متانة الأسلوب ورصانته من جهة ، وما يعبر عنه من إخلاص في الدعاء من جرّاء هيمنة الموقف ورهبته من جهة أخرىٰ .

فالجود يختلف من إنسان إلى آخر بمقدار ما يعطيه وهو عطاء محدود من الإنسان . أما من الله ـ سبحانه وتعالى ـ فإنه ليس له حدود ، وكذلك القول في الصفة الأخرىٰ وهو الكرم .

إذاً فهو جواد كما وصف نفسه ـ سبحانه ـ لا كالأجواد فهو أجودهم ، وهو كريم لا كالكرماء ، وهو أكرمهم ، وذلك لعدم وجود مانع من العطاء ؛ ولأنه وصف نفسه بذلك وهو أصدق القائلين .

قال عليه السلام :

[اَللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَقْبَلْنا مُوقِنينَ ، وَلِبَيْتِكَ الْحَرامِ آمِّيْنَ قاصِدينَ ، فَأَعِنّا عَلىٰ مَنْسَكِنَا ، وَأَكْمِلْ لَنا حَجَّنا ، وَاعْفُ اَللَّهُمَّ عَنّا وَعافِنا ، فَقَدْ مَدَدْنا إِلَيْكَ أَيْدِيَنا ، وَهِيَ بِذِلَّةِ الإِعْتِرافِ مَوْسُومَةٌ] .

اللُّغَةُ

آمين : الأم بالفتح القصد ، أمّه يؤمّه أمّاً إذا قصده ، والإمة الحالة ، والأمة الشرعة والدين ، وفي التنزيل : ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة . . . الآية ﴾[1] على إختلافات في القراءات بين الضم والفتح والكسر ، وأمّ القوم وأمّ بهم تقدمهم وهي الإمامة ، والإمام كل من أئتم به القوم ، كانوا على الصراط المستقيم ، أو كانوا ضالين ، قال ـ تعالى ـ : ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾[2] وأممت القوم في الصلاة إمامة وأتم به أي اقتدىٰ به . والإمام المثال قال النابغة :

(١) سورة الزخرف ، آية : ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٧١ .

أبــوه قــبــلـه وأبــو أبــيــه   بنــوا مجــد الحيــاة عــلى إمــام

منسكنـا : النسك العبـادة والـطاعـة ، وكـل مـا تقـرب بـه إلى الله ـ تعالى ـ . والنسك الذبيحة وقيل الدم .

والنسك ما أمـرت به الشـريعة ، والـورع ما نهت عنـه ، والمنسك شرعة النسك . قال ـ تعالى ـ : ﴿**وأرنا منـاسكنا**﴾[٣] . وينسكـون البيت يأتونه ، ولفلان منسك يعتاده في خير كان أو غيره . وبه سميت المناسك ، وسميت أمور الحج كلها مناسك لتكررها في كل عام ، أو لإعتياد النـاس الذهاب إليها ، ونسك الثوب غسله بالماء وطهّره ، وفي ذلك مناسبة تطهير الإنسان من الذنوب . قال الشاعر :

ولا ينبت المـرعىٰ سبـاخ عــراعـر   ولـو نسكت بـالمــاء ستـة أشهـر

موسومة : الوسم أثـر الكي ، والجمع وسـوم . واتسم الرجـل إذا جعـل لنفسه سمـة يعرف بهـا ، والوسـام ما وسم بـه البعيـر من ضـروب الصور . والميم المكواة أو الشيء الذي يوسم بـه الدواب . وفي الـذكر الحكيم قوله ـ تعالى ـ : ﴿**سنسمه على الخرطوم**﴾[٤] والمتوسم المتحلي بسمة الشيوخ . وقد توسمت فيه الخير أي تغرست . قال ـ تعالى ـ : ﴿**إن في ذلك لآيات للمتوسمين**﴾[٥] .

والوسمي مطر أول الربيع، وهو بعـد الخريف ؛ لأنـه يسم الأرض بالنبات فيصير فيها أثراً في أول السنة ، وأرض موسومة أصابها الوسمي ، وتوسم الرجل طلب كلأ الوسمي قال الشاعر :

---

(٣) سورة البقرة ، آية : ١٢٨ .

(٤) سورة القلم ، آية : ١٦ .

(٥) سورة الحجر ، آية : ٧٥ .

وأصبحن كالدوم النواعم غدوة على وجهة من ظاعن متوسم

وموسم الحج والسوق مجتمعهما . وفي الحديث : تنكح المرأة لميسمها أي لحسنها من الوسامة .

البيان

في هذه الفقرة بدأ ـ عليه السلام ـ يبين ما لاقاه في سبيل الوصول إلى ذلك المكان المقدس الذي لا يصله إلّا بشق الأنفس ، وأخذ يذكر ذلك بلهجة متضرع خاشع ، وكأنه يخاطب ربّه بقوله : إنك تعلم سبحانك ما أصابنا من النصب والتعب في سبيل الوصول إلى هذه الأماكن المقدسة ، فحاشاك بعد ذلك أن تردنا بالخيبة والخسران .

فبدأ ـ عليه السلام ـ بقوله : (**أللهم إليك أقبلنا موقنين**) .

الإقبال إلى الله ودواعيه

وصف هذا الإقبال بأن الذي يحدوه فيه هو اليقين الخالص ؛ وذلك لأن الإقبال بغير يقين هو حضور مادي لا قيمة لـه ؛ لأنه يكـون أجوف لا يسمن لا يغني من جوع ، فالقلب إذا لـم يتعلق بتصرفات الإنسان وأعماله في هـذه الحياة ـ ومنهـا الطاعـة ـ فإن العمـل لا قيمة لـه . وحتىٰ العمل الدنيوي الذي يزاوله الإنسان لتسيير أمور حياته إذا أعوزه التفكير فإنه يكون عملاً خائباً ، فإن كل حركة كما قالوا تحتاج إلى فكر ، فكيف بعمل الآخرة وهو أقرب إلى الروح منه إلى المادة ، وأقرب إلى القلب منه إلى الجسم ، وأقرب إلى الخالق منه إلى المخلوق .

وقد روينا عن أهل بيت العصمة أن الإنسان لا يقبل من صلاته إلاّ ما يقبل به على الله بقلبه .

والعبارة المطروحة أمامنا للحديث تدل على أن إقباله ـ عليه السلام ـ ليس مجرد المجيء من المكان البعيد ، وقطع المسافات الشاسعة ؛ لأن اليقين لا يتحقق إلاّ بـالقلب ، فهو قـد ربط في هـذه العبـارة بين القـرب المادي والقرب المعنوي ، وذلك بحسب النقاط التالية : ـ

١ ـ الإقبـال من البعيد ، فـلا شك أنـه ـ عليه السـلام ـ قد تحمـل

المشاق وصعوبة الطريق حتىٰ وصل إلى مكة ليؤدي مناسكه ، ووصل إلى ذلك المكان بعد لأي شديد . وهذا ما يدل عليه قوله (إليك أقبلنا) .

٢ ـ الإقبال بالقلب ، لأنه ما لم يكن حضور بالقلب عند ممارسة العبادة فلا يمكن أن تتحقق مصداقيتها الخالصة . وهذا ما يدل عليه قوله ـ عليه السلام ـ : (موقنين) فاليقين أعلى درجات العلم ، إذ ليس هناك إحتمال في الطرف الآخر ، ومعنىٰ ذلك أنه يقول : إننا قد أقبلنا إليك على علم لا يخامره شك ، ولا يساوره احتمال آخر بأنك ستقبل عبادتنا وتقبل علينا بوجهك الكريم ؛ لأنها بعينك وأنت الذي وفقتنا لها حتىٰ وصلنا إلى مكان مناجاتك ودعائك ، فليس من المعقول بعد كل هذا التوفيق أن نرجع خائبين .

٣ ـ أو بهما معاً ، يعني الحضور المادي والحضور المعنوي ، أو القلبي ، وهذا ما يتجلىٰ في العبارة كاملة ؛ لأنه لا يمكن أن تتحقق هذه المناجاة بهذا العمق من غير حضور قلب .

إذاً فالإقبال إلى الله هو إقبال بالقلب والقالب ، وإن كان هناك فرق بين الجر (إلى) وبين حرف الجر (على) فالأول يعني الحضور بعد الإنتقال من مكان إلى مكان ؛ لأنها تدل على الغاية ، وذلك الإنتقال حركة ، وقد عرّفوها بأنها هي الوجود الأول في المكان الثاني . إلاّ أنه لا يمكن القول : بأن الدعاء الصادر منه ـ عليه السلام ـ في قوله : (أقبلنا) هو الحضور المادي فقط ؛ لأن العبادة في مثل هذه الحال لا معنىٰ لها ، وصدور ذلك منه بعيد كل البعد غريب كل الغرابة منفي كل النفي .

فارتباط القلب وحضوره في حال ممارسة العبادة شيء ضروري لا بدّ منه . بقي أن نشير إلى أن حضور القلب أو غيابه هل هو بفعل الإنسان أم لا ؟

وفي محاولة للإجابة على هذا السؤال ينبغي أن نعلم بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو مقلب القلوب والأبصار ، وقد عرض ذلك الذكر الحكيم في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾(٦) قال في التبيان : أخبر الله ـ تعالى ـ أنه يقلب أفئدة هؤلاء الكفار وأبصارهم عقوبة لهم وفي كيفية تقليبها قولان :

١ ـ إنه يقلبها في جهنم على لهب النار وحر الجمر ، وجمع بين صفتهم في الدنيا وبين صفتهم في الآخرة .

٢ ـ إنه يقلبها بالحسرة التي تنعم وتزعج النفس .

وقال الحسن بن علي المغربي معناه : إنا نحيط علماً بذات الصدور وخائنة الأعين ، وهو أن يختبر قلوبهم فيجد باطنها بخلاف الظاهر(٧) .

وقال في الميزان : إنهم لا يؤمنون لو نزلت عليهم الآيات ؛ وذلك أنّا نقلب أفئدتهم كما ينبغي أن يعقلوه ، وأبصارهم فلا يبصرون بها ما من حقهم أن يبصروه ، فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بالقرآن أول مرة من الدعوة قبل نزول هذه الآيات المفروضة ، ونذرهم في طغيانهم يترددون ويتحيرون(٨) .

ومما تقدم نعلم بأن القلب في إقباله وإدباره مرتبط كل الإرتباط بإرادة المولى سبحانه ولا يدخل هذا في مسألة الجبر والتفويض ، فإن العبد له كل الحق في أن يختار لنفسه ما يريد من الشأن ، ولكن الله ـ تبارك وتعالى ـ يبين له الطريق النافع من الضار ، فقد يختار الإنسان طريقاً

---

(٦) سورة الأنعام ، آية : ١١٠ .

(٧) التبيان للطوسي : ج٤ ص٢٥٧ .

(٨) الميزان : ج٧ ص٣٢٠ .

متعرجاً ، وإلى هذا أشار قوله ـ تعالى ـ : **﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمىٰ على الهدىٰ﴾**[٩] قال في مجمع البيان : أي بيّنا لهم سبيل الخير والشر عن قتادة ، وقيل دللناهم وبيّنا لهم الحق عن ابن عباس والسدّي وابن زيد ، فاختاروا العمىٰ في الدين على قبول الهدىٰ ، وبئس الإختيار ذلك . وقيل اختاروا الكفر على الإيمان .

---

(٩) سورة فصّلت ، آية : ١٧ .

قصد البيت الحرام

ثم بدأ ـ عليه السلام ـ يذكر نوع العبادة التي يطلب بها ما يؤمله من المولىٰ ـ سبحانه ـ فقال : ﴿ولبيتك الحرام آمين قاصدين﴾ فالأمّ هو القصد ـ كما هو واضح من سياق العبارة ـ ، وكما هو وارد في بحث اللغة ـ وهو الحج إلى بيت الله الحرام ، وقد جاء هذا المعنىٰ في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربّهم ورضواناً﴾(١٠) قال في التبيان : قال أبو جعفر ـ عليه السلام ـ : نزلت هذه الآية في رجل من بني ربيعة يقال له الحطم ، أقبل حتى أتىٰ النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ وحده ، وخلّف خيله خارجة من المدينة فدعاه فقال : إلى ما تدعو؟ فأخبره . وقد قال النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ : يدخل اليوم عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان ، فلما أخبره النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ قال : أنظروا لعلّي أسلم ولي من أشاوره ، فخرج من عنده فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : لقد دخل بوجه كافر ، وخرج بعقب غادر ، فمر بسرج من سرج المدينة وانطلق به وهو يرتجز ويقول :

قد لفها الليل بسواق حطم ليس براعي إبل ولا غنم

(١٠) سورة المائدة ، آية : ٢ .

ولا بجزار على ظهر وضم　　باتوا نياماً وابن هند لم ينم
بات يقاسيها غلام كالزّلم　　خدّلج الساقين ممسوح القدم

ثم أقبل من عام قادم حاج قد قلّد هدياً ، فأراد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ ، أن يبعث إليه ، فنزلت هذه الآية : ﴿ولا آمين البيت الحرام﴾ . وقال ابن زيد : نزلت يوم الفتح في ناس يؤمون البيت من المشركين يهلّون بعمرة . فقال المسلمون : يا رسول الله إنما هؤلاء مشركون مثل هؤلاء دعنا نغير عليهم ، فأنزل الله ـ تعالى ـ الآية . قال ابن عباس : ذلك في كل من توجه حاجاً ، وظاهره يحتمل المسلم والمشرك لعموم اللفظ(١١) .

وقال السيد البحراني في تفسير البرهان : ﴿ولا آمين البيت الحرام﴾ الذين يحجون البيت(١٢) .

قال المؤلف يظهر مما تقدم من أقوال المفسرين أن البيت يؤمّه المسلم والمشرك ، وذلك يعني مجرد القصد والذهاب إليه ، أما القصد القلبي فهو لا يتأتىٰ إلّا من المؤمن . أللهم إلّا أن نقول أن التأكيد لقوله ـ عليه السلام ـ (قاصدين) يعطي معنىٰ آخر يضاف إلى القصد المادّي ، وقرائن الكلام في ما تقدم وما تأخر تؤيد ذلك .

وقد بات من المؤكد أن هذه الحادثة قد حدثت قبل منع المشركين من أن يقربوا المسجد الحرام وذلك في قوله ـ تعالى ـ : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم﴾(١٣)

---

(١١) تفسير التبيان : ج٣ ص٤٢١ .

(١٢) البرهان : ج١ ص٤٣٢ .

(١٣) سورة التوبة ، آية : ٢٨ .

قال في مجمع البيان : أي فامنعوهم عن المسجد الحرام . قيل : المراد به منعهم من دخول الحرم ، والحرم كله مسجد وقبلة . والعام الذي أشار إليه هو سنة تسع الذي نادىٰ فيه علي ـ عليه السلام ـ بالبراءة . وقال : لا يحجنّ بعد هذا العام مشرك . وقيل المراد به منعهم من دخول المسجد الحرام على طريق الولاية للموسم والعمرة . وقيل منعوا من الدخول أصلاً في المسجد ، ومنعوا من حضور الموسم ودخول الحرم . واختلف في نجاسة الكافر ، فقال قوم من الفقهاء إن الكافر نجس العين ، وظاهر الآية يدل على ذلك .

وروي عن عمر بن عبد العزيز إنه كتب : إمنعوا اليهود والنصارىٰ من دخول مساجد المسلمين ، واتبع نهيه قول الله ـ تعالى ـ : ﴿إنما المشركون نجس . . .﴾ الآية . وعن الحسن قال : لا تصافحوا المشركين ، فمن صافحهم فليتوضأ وهذا يوافق ما ذهب إليه أصحابنا من أن من صافح الكافر ويده رطبة وجب أن يغسل يده ، وإن كانت أيديهما يابستين مسحهما بالحائط .

وقال آخرون : إنما سماهم الله نجساً لخبث إعتقادهم وأفعالهم وأقوالهم . وأجازوا للذمّي دخول المساجد . قالوا : إنما يمنعون من دخول مكة للحج لأنهم يجنبون ولا يغتسلون ويحدثون ولا يتوضؤن فمنعوا من دخول المسجد لأن الجنب لا يجوز له دخول المسجد(١٤) .

قال المؤلف : إن نجاسة الكافر نجاسة عينية ولا يطهر إلاّ بالإسلام ، ووجود النجاسة في المسجد في أي مسجد تعرض العبادة للبطلان ، فدخول المشركين إلى المسجد الحرام فيه حرج على ممارسة

---

(١٤) مجمع البيان : ج٥ ص٣٢ .

عباداتهم داخل المسجد ، وربما تعرضت هذه العبادة للبطلان كما قلنا ، فأمر الله المسلمين أن يمنعوا المشركين من دخول المسجد الحرام .

ثم طرح ـ عليه السلام ـ ما يؤمله من الإجابة ومن تحقيق المطالب فقال : (فأعنا على منسكنا) والمنسك بحسب ما ورد في بحث اللغة يعني الطاعة ، وقد خصصت هذه الطاعة بكثير من القرائن الدالة على الحج ، فهو يطلب من الله من أن يعينه على أداء هذه الطاعة ، ومعنىٰ ذلك أنه يريد أن يأتي بها على الوجه الأكمل ؛ لأن مفهوم الطاعة إذا لم تأت بحسب ما يريد المولىٰ فهي مصادرة ومضروب بها عرض الجدار . ويمكن أن توجه هذه العبارة إلى معنيين :

١ ـ أن المقصود بالنسك هو موقف عرفة على الخصوص ؛ لأن الكلام هذا قد صدر في ذلك المكان ، ولأن موقف عرفة هو بداية أعمال الحج ، ولأنه هو أصعب الأعمال وذلك لطول وقته من زوال الشمس إلى غروبها وذلك ينبيك عن الأهمية الخاصة التي يوليها الشرع الشريف لهذا الموقف .

٢ ـ وربما كان المقصود من المنسك هو أعمال الحج عامة ، وذلك لعدم إنفصال موقف عرفة عن غيره من بقية أعمال الحج ، ولأن هناك من الواجبات ما يضارع عرفة في الركنية كموقف المشعر والطواف والسعي ، وقد تقدم أن قلنا بأن الإعانة معناها الإتيان بهذه الواجبات على الوجه الصحيح .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (وأكمل لنا حجنا) فإن كمال الحج أن يختم الأعمال بعد أن يأتي بها على وجهها الصحيح كما مرّ ، وهذه العبارة تضارع العبارة السابقة في المعنىٰ إلاّ أنها تأتي في الترتيب بعدها لأن إكمال الحج وإنهاءه يأتي كنتيجة للإعانة على مناسكه .

العفو والعافية مرة أخرىٰ

ثم يقول ـ عليه السلام ـ : (واعف أللهم عنّا وعافنا) وقد مرّ معنا في لمحة خاطفة تعلق العفو والعافية في ما سبق في أبحاث الكتاب ، ونضيف هنا بأن تعلق كل منهما بالآخر بعكس مدى الخوف من الذنب الذي لوّح به سيد الشهداء ـ عليه السلام ـ كما يظهر طافحاً على متن العبارة .

فالعفو المقصود هو التجاوز عن الذنب ، على أن العفو يأتي بعد الذنب يجعل الإنسان رهيناً مغلولاً لولا أن تداركه رحمة من ربّه .

أما إقحام العافية مع العفو فإن ذلك يدل على أن الحالة النفسانية للإنسان عند اقتراف الذنب تكون مشوبةً بالإضطراب ، وذلك عندما يرجع الإنسان إلى عقله ، ويلجأ إلى ربّه ؛ لأنه يبقىٰ من هم وغم عند محاسبة نفسه ، وهذا يؤدي إلى إضطراب أعصابه وانحلال جسمه . وعندما يحصل الإنسان على هذا العفو ليس من الضروري أن يعلم به ؛ لأن ذلك من أمور الغيب ، ولكن الإرتياح النفسي يعدّ علامة تدل على العفو من الله ـ سبحانه ـ وينتج عن ذلك الإرتياح في البدن وهدوء الأعصاب ، ويترتب على ذلك العافية التي طلبها وهي تأتي كنتيجة للعفو .

وقد بحثنا موضوع (العفو) مجرداً في ما سبق من أبحاث الكتاب مراراً كما أشرنا إلى ذلك في صدر هذا الحديث . وهذه أبيات جاءت على طرف اللسان في طريق البحث :

يا غافر الذنب عفواً فالأمور جرت ... بها المقادير إن الذنب مغفور
القلب في فرق والعين في أرق ... والدمع مما جنىٰ هذان منثور
فاغفر فأنت الرحيم البر يا أملي ... فالظهر مني بذاك الذنب موقور
والمرء ما لم يكن مولاه يرحمه ... فصبحه حالك والنورد يجور

ثم ذكر الحال التي يكون عليها الداعي فقدم النموذج الحي لذلك فقال : (فقد مددنا إليك أيدينا ، وهي بذلة الإعتراف موسومة) ومدّ اليد هنا يدل على أكثر من شيء :

١ ـ إنه يشعر بالحاجة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، فالإنسان مهما كان في سعة من المال ، وفي بسطة في العلم والجسم فإنه لا يزال بحاجة إلى مدد إلٰهي يحفظ إستمرارية بقاء المال والعلم والجسم . وإن العلم مهما بلغ الإنسان فيه ومهما بلغ من العبقرية والتجارب ، ومهما تنوعت عنده طرق التعليم ، فإن القرآن لا يزال يناديه : **﴿وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً﴾**(١٥) وإن الإنسان مهما بلغ من البسطة في الجسم فإنه في حاجة إلى رعاية صحية ، فإن مرور الأيام وتعاقب الأحوال لا تجعل الإنسان هادىء البال ، وهذا كفيل بضعفه وتنازل قواه .

٢ ـ إن العطاء الذي يغمر المخلوقات من برّ وفاجر ، وإنسان وحيوان ، يطمع الإنسان في أن يمدّ يده إلى الله ـ سبحانه ـ أما لطلب زيادة في ذلك العطاء ، وأما لطلب نوع آخر من تلك العطايا التي لا تقف عند

---

(١٥) سورة الإسراء ، آية : ٥٨ .

حد ، ولا تأتي من باب واحد . وبهذا ورد الدعاء المأثور المعروف بدعاء الإفتتاح عن الإمام الحجة ـ عجل الله فرجه الشريف ـ قوله : (. . . أطمعني في أن أسألك ما لا أستوجبه منك) . وبهذا الحال يكون الإنسان أقرب إلى الله من سائر الأحوال ، وإن الله يحب أن يرىٰ عبده في حال تضرع وخشوع .

٣ ـ إن مد اليد إلى الله ـ سبحانه ـ يعبر عن الخضوع والخشوع والحاجة ، وهذا في غاية الإخلاص ، وهذه الكناية من أبلغ الكنايات في التعبير عن المسألة والحاجة إلى الله ، فقوله ـ عليه السلام ـ : (فقد مددنا إليك أيدينا) يعبر عن الحاجة إليه ـ سبحانه ـ ، وهي عبارة شاملة تعطي معنى الحاجة وغيرها ، فإن مد اليد في بعض الحالات قد يتعدى إلى أكثر من الحاجة ، إلّا أن العبارة التي بعدها خصصت ذلك وهو قوله ـ عليه السلام ـ : (وهي بذلة الإعتراف موسومة) والإعتراف أعم من السؤال ، فاعترافه بالحاجة ، أو اعترافه بالذنب ، أو اعترافه بالتقصير كل ذلك ذلّ ، ولكن هذا الذل أمام العزيز الجبار العلي الكبير ينتج عنه العز والشرف ؛ لأن المنتمي إلى العزيز عزيز ، وقد ورد في ما روينا عن الإمام الهادي ـ عليه السلام ـ دعاءً بهذا المعنىٰ ، قال ـ عليه السلام ـ : (يا عزيز العز في عزّه ، ما أعز عزيز العز في عزه ، يا عزيز أعزني بعزك ، وأيدني بنصرك ، وادفع عني همزات الشياطين ، وادفع عني بدفعك ، واصنع عني بصنعك واجعلني من خيار خلقك ، يا واحد يا أحد ، يا فرد يا صمد ، يا من لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد)[16] .

وإذا كان الإعتراف بالذنب فضيلة أمام من يساوي الإنسان في

---

(١٦) مهج الدعوات : ص٤٣ .

المرتبة ، أو أمام ملك من الملوك ، أو أمام عظيم من العظماء ، فإن الإعتراف أمام ملك الملوك وعظيم العظماء الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فهو الفضيلة حقيقة لا تنزيلاً .

أما كون الأيدي موسومة بذلّة الإعتراف فذلك يعني الحاجة إلى مدّ يده إلى الله واعتراف العبد بما أحدث من صغيرة وكبيرة ، ودليل على إخلاصه في الدعاء وإقلاعه عن ممارسة الذنب ، وهذا من التوفيق الإلٰهي المحض ، وهو بدوره يهيء الدعاء للإستجابة والقبول .

قال عليه السلام :

[اَللَّهُمَّ فَأَعْطِنٰا في هٰذِهِ الْعَشِيَّةِ مٰا سَأَلْنٰاكَ ، وَاكْفِنٰا مٰا اسْتَكْفَيْنٰاكَ ، فَلٰا كٰافِيَ لَنٰا سِوٰاكَ ، وَلٰا رَبَّ لَنٰا غَيْرُكَ ، نٰافِذٌ فينٰا حُكْمُكَ ، مُحيطٌ بِنٰا عِلْمُكَ ، عَدْلٌ فينٰا قَضٰاؤُكَ ، إِقْضِ لَنٰا الْخَيْرَ ، وَاجْعَلْنٰا مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ] .

اللُّغَةُ

نافذ : النفاذ الجواز تقول نفدت أي جزت ، ورجل نافذ في أمره أي ماض في جميع أمره ، وأمره نافذ أي مطاع . وأنفذ الأمر قضاه ، وطعنة نافذة قاتلة قال الشاعر :

طعنت ابن عبد قيس طعنة ثائر لها نفد لولا الشعاع أضاءها

ونفذهم البصر جاوزهم . وأنفذ القوم صار بينهم ، النوافذ كلّ سمٍّ يوصل إلى النفس فرحاً أو ترحاً .

محيط : حاطه يحوطه وحيطة حفظه وتعهده ، قال الهذلي :

وأحفظ منصبي وأحوط عرضي وبعض القوم ليس بذي حياط

واحطاط الرجل أخذ مني أموره بالأحزم .

والحائط الجدار لأنه يحوط ما فيه والجمع حيطان ، والحائط البستان من النخيل إذا كان عليه حائط ، وقوله ـ تعالى ـ : ﴿**أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين**﴾[1] أي علمته من جميع جهاته .

وأحاط به علمه ، وأحاط به علماً . وفي الحديث : أحطت به علماً أي أحدق علمي به من جميع جهاته وعرفه .

البيان

إن الوقت الذي صدّر فيه الحسين ـ عليه السلام ـ هذا الدعاء لجدير بعدة وقفات للتأمل ، وينبيك عن أهميته الخاصة دون بقية أوقات الحج وأعماله التكرار الذي أخذ يردده ـ عليه السلام ـ بين عبارة وأخرىٰ . وإن الوجدان ليحكم بذلك ، عندما يرىٰ الناس في تلك البقعة المقدسة كالفراش المبثوث لا همّ لهم إلاّ الدعاء والمسألة .

يقول ـ عليه السلام ـ : (أللهم فاعطنا في هذه العشية ما سألناك) والعطاء في مثل ذلك اليوم من بداية الموقف إلى نهايته عطاء كثير ؛ لأن الله قد أمر عباده بالسؤال ، ولازم ذلك أنه سيتجيب لهم . وعلى قدر الجهد في العبادة والإخلاص يجزل العطاء ، والعبادة فى ذلك اليوم شاقة متعبة، لأن العطاء جزيلٌ . هذا إذا قلنا بأن العطاء قبال العبادة ، أما إذا قلنا إن الله يضاعف لمن يشاء فذلك شيء آخر لا يحتاج إلى دليل ؛ لأنه ـ سبحانه ـ قد وعد عباده بذلك وهو لا يخلف وعده .

ولقد خصص ـ عليه السلام ـ العطاء بأن يكون في تلك العشية ،

(١) سورة النمل ، آية : ٢٢ .

لأن العطاء فيها يكـون أضعافـاً مضاعفـة ؛ ذلك لأن الـوقت مبارك ، لأن البركة تعني الزيادة ، فتخصيص العطاء في عشية عـرفة يعني الـزيادة في العطاء عند السؤال في تلك العشية .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (ما سألناك) فهو يعني ما سأله في ذلك اليـوم من أول العشية إلى آخـرها ، وهـو يعني التلبس بـالأزمنـة الثـلاثـة الماضي والحاضر والمستقبل ؛ لأنه ليس من الضروري أن يكون الدعـاء في آخر الوقت حتى ينطبق الكلام على ما مضىٰ من العشية .

وما عسىٰ أن يكون السؤال في مثل ذلك اليوم ؟ إن تمحض الوقت وتخصيصة للمسألـة ينبغي أن نعلم بأنـه ـ عليه السـلام ـ قد استغـل ذلك الوقت إستغلالاً حقيقياً ، وهذا ينبيك بأن ثقته بربّه قد بلغت إلى حدٍّ كان قد علم بأن الله قد استجاب له ما سأله من قبل ، فالطلب كان مخصصاً بما سأله في ذلك اليوم .

الله الكافي

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (واكفنا ما استكفيناك) فإن ذلك يعني رد الخطر عنه في ما يستقبل من الزمان ؛ لأنه ـ تبارك وتعالى ـ هو الكافي لعبده ، وقد أشار ـ عزّ وجلّ ـ في التنزيل العزيز إلى ذلك في قوله : **﴿أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد﴾**[٢] جاء في تفسير هذه الآية بالذين من دونه آلهتهم من دون الله على ما يستفاد من السياق .

والإستفهام للتقرير ، والمعنىٰ هو يكفيهم ، وفيه تأمين للنبي قبال تخويفهم إياه بآلهتهم ، وكناية عن وعده . بالكفاية كما صرّح به في قوله : **﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾**[٣] قاله في الميزان .

فسؤاله ـ عليه السلام ـ الإستكفاء من الله في هذا السياق يدلنا على أنه على علم بأن الإستكفاء لا يدفعه إلاّ الله ؛ لأن ذلك من أمور الغيب لا يعلمها إلاّ هو ، ولأن الإنسان لا يعلم بمصير المستقبل حتىٰ يستطيع أن يدرأ الخطر عن نفسه ، أو عن غيره ، ولذلك فإن العبارة التي جاءت بعد

---

(٢) سورة الزمر ، آية : ٣٦ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ١٣٧ .

ذلك أشارت بوضوح إلى هذا المعنىٰ (فلا كافي لنا سواك) فسواه من مخلوقاته مفتقر إليه في كفاية الضر ، لأن ذلك مربوط بعلم الغيب ولا يعلم الغيب إلاّ الله كما أسلفنا . أما المرض والسقم فإن الله ـ سبحانه ـ هو الكاشف لهما ، لكن وإن كان ذلك قد يعزىٰ إلى سبب مباشر كالطبيب والدواء والدعاء وغير ذلك فكله يرجع إلى السبب الأول . وإن تجاوزنا بذلك حدود الأدب ؛ وذلك لأن المرض بوجوده الفعلي يختلف كل الإختلاف عن وجوده في المستقبل ، فيستطيع الإنسان أن يشخص أي مشكلة ليقوم بحلّها وعلاجها .

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (ولا ربّ لنا غيرك) ومعنىٰ ذلك أن هذا لا يستطيع أن يكفينا ما نستكفيه إلاّ الرّب ، وأنت ربّنا فاكفنا ، ما استكفيناك ، لأن العبد لا يلجأ إلاّ إلى مولاه ، وها نحن نلجأ إليك فأنت ربّنا دون غيرك لا نشرك بك أحداً ، ولا نعول على غيرك ؛ لأنه لم يستطع أحد ذلك سواك . وفي ذلك إشارة إلى التوحيد الخالص ، فكأنه يتوسل إلى ربّه في استجابة دعائه بالإقرار لله بالربوبية ، وتلك من الصفات العظيمة التي يتفرد بها ـ عزّ وجلّ ـ. فهو يعلم بماذا يتوسل، ويعلم بماذا يتضرع ، ويعلم كيف يجاب دعاؤه ؛ ولهذا تابع كلامه ـ عليه السلام ـ بلوازم الربوبية والإلوهية بذكر الصفات اللازمة لذلك ، فقال ـ عليه السلام ـ : (نافذ فينا حكمك ، محيط بنا علمك ، عدل فينا قضاؤك) .
أما نفاذ الحكم فهو بحسب ما ورد في بحث اللغة امضاؤه بتصرف مطلق لا يشوبه شيء من التردد ، لأن ذلك من شأن الضعيف جسماً وعقلاً فيحسب للأمور حسابها ، إما بسبب جهل وعدم معرفة ، وإما بسبب نتائج وتبعات يجرها هذا الفعل من جهات أخرىٰ . أما من لا يُسأل عمّا يفعل وهم يسألون فليس كذلك . ولهذا عقب ـ عليه السلام ـ بإحاطته ـ سبحانه ـ

علماً بما يفعل ؛ لأن نفاذ الحكم يستلزم أن يكون في محلّه ، وإلاّ كذلك فهو من باب قولهم : (ما وقع لم يقصد ، وما قصد لم يقع) وبذلك يكون الحكم معطلاً لم ينفذ ؛ لأن إنفاذ الحكم ليس مجرد إمضائه ، ولكنه إمضاؤه على وجهه الصحيح ، وهذا ما يتطلب الإحاطة بكل شيء .

ثم انتقل ـ عليه السلام ـ إلى صفة من صفات الله ـ تعالى ـ وهو العدل في القضاء فقال : (عدل فينا قضاؤك) .

القضاء والقدر

والقضاء كما تعرضنا لـه في الجزء الأول من الكتـاب ـ ص٦٢ ـ : (هو ولاية شـرعية على الحكم والمصـالح العـامة من قبـل الإمام ـ عليـه السلام ـ) هذا ما جاء في تعريفه شرعاً .

أما ما ورد من معنىٰ القضاء المنسوب إلى الله ـ سبحانه ـ فقد أفاض فيـه علماء الكـلام الكثيـر من الكـلام ، ونضيف هنـا فنقـول : إن قـولـه ـ تعـالى ـ : ﴿**وإذا قضىٰ أمـراً فـإنمـا يقـول لـه كن فيكـون**﴾[٤] وقـولـه ـ تعـالى ـ : ﴿**وقضينا إلى بني إسـرائيل في الكتـاب لتفسـدن في الأرض مرتين**﴾[٥] إنه لا ريب أن قانون العلّية والمعلولية ثابت وأن الوجود الممكن معلول له ـ سبحانه ـ أما بلا واسطة معها ، وإن المعلول إذا نسب إلى علته التامة كانت له منها الضرورة والوجود إذا لم يجب يوجد ، وإذا لم ينسب إليها كان له الإمكان سواءً أخذ في نفسـه ولم ينسب إلى نفسه كـالماهيـة الممكنة في ذاتها ، أو نسب إلى بعض أجزاء علته التامة ، فإنه لو أوجب ضرورته ووجوبه كانت علةً له تامة .

---

(٤) سورة البقرة ، آية : ١١٧ .

(٥) سورة الإسراء ، آية : ٤ .

ولما كانت الضرورة هي تعين أحد الطرفين وخروج الشيء عن الإبهام كانت الضرورة المنبسطة على سلسلة الممكنات من حيث إنتسابها إلى الواجب ـ تعالى ـ الموجب لكل منها في ظرفه الذي يخصه قضاءً عاماً منه ـ تعالى ـ ، كما أن الضرورة الخاصة لكل واحدٍ منها قضاءٌ خاص به منه ، إذ لا نعني بالقضاء إلّا فصل الأمر وتعيينه عن الإبهام والتردد .

ومن هنا يظهر أن القضاء من صفاته الفعلية ، وهو منتزع من الفعل من جهة نسبته إلى علته التامة(٦) .

والروايات في ما تقدم كثيرة ، فمنها ما رواه في المحاسن عن أبي الحسن قال : لا يكون إلّا ما شاء الله وأراد وقدّر وقضىٰ . قلت : فما معنىٰ شاء ؟ قال : ابتداء الفعل . قلت : فما معنىٰ أراد ؟ قال : الثبوت عليه . قلت : فما معنىٰ قدّر ؟ قال : تقدير الشيء من طوله وعرضه . قلت : فما معنىٰ قضاء ؟ قال : إذا قضىٰ أمضىٰ . فذلك الذي لا مردّ له .

وفي التوحيد عن الدقاق عن الكليني ، عن إبن عمار ، عن المعلّىٰ قال : سئل العالم ـ عليه السلام ـ كيف علم الله ؟ قال : علم وشاء وأراد وقدر وقضىٰ وأمضىٰ فأمضىٰ ما قضىٰ وقضىٰ ما قدر ، وقدر ما أراد ، فبعلمه كانت المشيئة، وبمشيئته كانت الإرادة ، وبإرادته كان التقدير ، وبتقديره كان القضاء ، وبقضائه كان الإمضاء، فالعلم متقدم على المشيئة، والمشيئة ثانية ، والإرادة ثالثة والتقدير واقع على القضاء بالإمضاء .

فللّه ـ تبارك وتعالى ـ البداء فيما علم متىٰ شاء ، وفيما أراد تقدير الأشياء ، فإذا وقع القضاء بالإمضاء فلا بداء . . . الحديث .

(٦) تفسير الميزان للطباطبائي : ج١٣ ص٧٣ .

والذي ذكره ـ عليه السلام ـ من ترتب المشيئة على العلم والإرادة على المشئة ، وهكذا ترتب عقلي بحسب صحة الإنتزاع .

وفيه بإسناده عن ابن نباته قال : إن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ عدل من عند حائط مائل إلى حائط آخر فقيل له : يا أمير المؤمنين : تفر من قضاء الله ؟ قال : أفر من قضاء الله إلى قدر الله ـ عزّ وجلّ ـ .

الخير والشر

وبعد أن وصف ربّه ـ عزّ وجلّ ـ بما تقدم من الصفات ، وأهمها العدل في القضاء وهو من الأمور الحسّاسة جداً في بناء العقيدة الإسلامية بين علماء المسلمين وفرقهم على إختلاف آرائهم ، وبعد أن ذكر العدل في القضاء ، والعدل له ميزة خاصة في هذا المجال كما أشرنا إلى ذلك سابقاً في هذا الجزء من الكتاب . بعد كل ذلك سأل الله ـ سبحانه ـ أن يقضي له في جملة ما يقضي بالخير ، وأن يجعله من أهل الخير . فقال ـ عليه السلام ـ : (إقض لنا الخير ، واجعلنا من أهل الخير) والخير هو كل ما يعود على الإنسان بالمصلحة ، أو ما يأتيه من شيء ، سواء كان ذلك من أمور الدنيا والآخرة ، والقضاء بالخير للإنسان يعني إعطاءه ذلك الشيء الذي سأل ربّه إياه أو لم يسأله ، أما جعله من أهل الخير فهو أعم من ذلك ؛ لأن الإنسان إذا كان من أهل الخير قضى له به أو لم يقض له بذلك .

وعندما سأل ربّه بهذا السؤال كان على علم لأن الخير لا يأتي إلاّ من جهته فهو ـ سبحانه ـ المتصرف في أمور عباده يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، وكل ذلك مصلحة للعبد داخلة في ضمن عنوان الخير ، وقد أشار

ـ سبحانه ـ إلى ذلك في الكتاب العزيز في قوله ـ عزّ وجلّ ـ : **﴿قل أللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾**(٧) قال في الميزان : هو أمر بالإلتجاء إلى الله ـ تعالى ـ الذي بيده الخير على الإطلاق ، وله القدرة المطلقة لتتخلص من هذه الدعاوىٰ الوهمية التي نشبت في قلوب المنافقين والمتمردين من الحق من المشركين وأهل الكتاب فضلوا وهلكوا بما قدّروه لأنفسهم من الملك والعزّة والغنىٰ عن الله ـ سبحانه ـ ويعرض الملتجيء نفسه على إفاضة مفيض الخير والرازق لمن يشاء بغير حساب .

والأصل في معنىٰ الخير هو الإنتخاب ، وإنما سمي الشيء خيراً لأنا نقيسه لشيء آخر ، نريد أن نختار أحدهما فننتخبه فهو خير ، ولا نختاره إلّا لكونه متضمناً لما نريده ونقصده ، فما نريده هو الخير بالحقيقة ، وان كنا أردناه أيضاً لشيء آخر فذلك الآخر هو الخير بالحقيقة ، وغيره خير من جهته ، فالخير بالحقيقة هو المطلوب لنفسه يسمىٰ خيراً لكونه هو المطلوب إذا قيس إلى غيره ، وهو المنتخب من بين الأشياء إذا أردنا واحداً منها وترددنا في اختياره من بينها .

فالشيء كما عرفت إنما يسمىٰ خير لكونه منتخباً إذا قيس إلى شيء آخر مؤثرٍ بالنسبة إلى ذلك الآخر ففي معناه نسبة إلى الخير ولذا قيل : إنه صيغة التفضيل وأصله (أخير) وليس بأفعل التفضيل ، وإنما يقبل إنطباق معنىٰ التفضيل على مورده فيتعلق بغيره كما يتعلق أفضل التفضيل ، يقال : زيد أفضل من عمرو ، وزيد أفضلهما ، ويقال : زيد خير من عمرو ، وزيد خيرهما .

---

(٧) سورة آل عمران ، آية : ٢٦ .

ولو كان (خير) صيغة التفضيل لجرىٰ فيه ما يجري عليه ، ويقال أفضل وأفاضل وفضلىٰ وفضليات ، ولا يجري ذلك في خير بل يقال : خير وخيرة وأخيار وخيرات ، كما يقال : شيخ وشيخة ، وأشياخ وشيخات ، فهو صفة مشبهة .

ومما يؤيده إستعماله في موارد لا يقتسم فيه معنىٰ أفعل التفضيل كقوله ـ تعالى ـ : ﴿قل ما عند الله خير من اللهو﴾[٨] فلا خير في اللهو حتىٰ يستقيم معنىٰ أفعل ، وقد اعتذروا عنه وعن أمثاله بأنه منسلخ فيها عن معنىٰ التفضيل وهو كما ترىٰ فالحق إن الخير إنما يفيد معنىٰ الإنتخاب ، واشتمال ما يقابله من المقيس عليه على شيء من الخير من الخصوصيات الغالبة في الموارد .

ويظهر مما تقدم أن الله ـ سبحانه ـ هو الخير على الإطلاق لأنه الذي ينتهي إليه كل شيء ويرجع إليه كل شيء ، ويطلبه ويقصده كل شيء ، لكن القرآن الكريم لا يطلق عليه ـ سبحانه ـ الخير إطلاقه الإسم كسائر أسمائه الحسنىٰ ـ جلت أسماؤه ـ وإنما يطلقه عليه إطلاق التوصيف كقوله ـ تعالى ـ : ﴿والله خير وأبقىٰ﴾[٩] .

وقد قسموا الخير إلى تكويني وتشريعي ، والشر كذلك ؛ لأنه لا يمكن تصور الخير إلاّ بمقابلة الشر . إذاً فهناك خير وشر تكوينيان كالملك والعزة ، ونزع الملك والذلة ، والخير التكويني أمر وجودي من إيتاء الله ـ تعالى ـ ، والشر التكويني إنما هو عدم إيتاء الخير ، ولا خير في انتسابه إلى الله ـ سبحانه ـ فإنه هو المالك للخير لا يملكه غيره ، فإذا أعطىٰ غيره

---

(٨) سورة الجمعة ، آية : ١١ .

(٩) سورة طٰه ، آية : ٧٣ .

شيئاً من الخير فله الأمر وله الحمد ، وإن لم يعط أو منع فلا حق لغيره عليه حتىٰ يلزمه عليه فيكون امتناعه من الإعطاء ظلماً ، على أن اعطاءه ومنعه كليهما مقارنات للمصالح العامة الدخيلة في صلاح النظام الدائر بين أجزاء العالم .

أما الخير والشر والتشريعيان فهما أقسام الطاعات والمعاصي ، وهما الأفعال الصادرة عن الإنسان من حيث انتسابها إلى اختياره ، ولا تستند من هذه الجهة إلى غير الإنسان قطعاً ، وهذه النسبة هي الملاك لحسنها وقبحها ، ولو فرض إختيار في صدروها لم تتصف بحسن ولا قبح ، وهي من هذه الجهة لا تنتسب إليه ـ تعالى ـ إلاّ من حيث توفيقه وعدم توفيقه لمصالح تقتضي ذلك .

وقد تبيّن إن الخير كله بيد الله ، وبذلك ينتظم أمر العالم في اشتماله على كل وجدان وحرمان وخير وشر[١٠] .

ومما تقدم ندرك أن ما قاله ـ عليه السلام ـ : (واجعلنا من أهل الخير) إنه لا يمكن لأحد غير الله أن يفعل ذلك لأن الخير بيده ـ سبحانه ـ ، وجعل الإنسان من أهل الخير يعني رصده في قائمة الموفقين للحصول على الخير من الله ، أو للعاملين الخير ـ ما شئت فعبر ـ إذا قلنا بأن الخير كله من عند الله ظاهراً وباطناً .

وفي هذا المعنىٰ سنحت هذه الأبيات حال البحث وهي :

يا واهب الخير ويا أهله   أنت الذي تعطي وأنت المجير
يا رازق الأطيار في وكرها   ومطلقاً بعد العناء الأسير

---

(١٠) تفسير الميزان للطباطبائي : ج٣ ص١٢٨ .

يـا غـايـة المقصـود هــذي يـدي قـد ملئت من شـرهـا المستـطيـر
أنـا الضعيف الهـالــك المـرتجي نــوالـك الخصب وأنت القـديـر
عــطفـاً إلٰـهـي فـأنـا ســالــك مســالـك الجهــل وأنت الخبيـر
يــا مــظهــر الخيـر يبــاهي بــه وســاتــر الشــر لعبـد حـقـيـر
كــلي عــورات وأنــت الــذي تـسـتــرهــا إنـي فـيـهــا كـسـيـر
إقض لـنــا الخـيــر فمــا لـلورى ســواك من قـاض يفـك الأسيـر
وعــادة الـمــولىٰ عــلى عـبـده يفيض من إحســانـه بــالـكثيـر

قال عليه السلام :

[اَللّٰهُمَّ أَوْجِبْ لَنا بِجُودِكَ عَظيمَ الأَجْرِ ، وَكَـريمَ الذُّخْـرِ ، وَدَوٰامَ الْيُسْرِ ، وَاغْفِرْ لَنا ذُنوُبَنا أَجْمَعينَ ، وَلاٰ تُهْلِكْنٰا مَعَ الْهٰالِكينَ ، وَلاٰ تَصْرِفْ عَنّا رَأْفَتَكَ بِرَحْمَتَكَ يٰا أَرْحَمَ الرّاحِمينَ] .

اللُّغَةُ

الذخر : ذخر الشيء يذخّره ذخراً إختاره . وفي حديث الضحية : كلوا وادخروا . والذخيرة واحدة الذخائر ، وهي ما اذخر قال الشاعر :

لعمرك ما مال الفتىٰ بذخيرة   ولكن إخوان الصفاء الذخائر

وذخر لنفسه حديثاً حسناً أبقاه .

والإذخر حشيش طيب الريح واحدتها إذخرة ، وهي شجرة صغيرة . وقال بعضهم : الإذخر له أصل مندفن دقاق ذفر الريح ، وله ثمرة كأنها مكاسح القصب ، يطحن فيدخل في الطيب ، وهي تنبت في الحزون والسهول ، وقلما تنبت الإذخرة منفردة .

تصرف : الصرف رد الشيء عن وجهه ، وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ثم

انصرفوا صرف الله قلوبهم﴾[1] أي رجعوا عن المكان الذي استمعوا فيه ، وقيل انصرفوا عن العمل بشيء مما سمعوا . **﴿صرف الله قلوبهم﴾** أي أضلهم الله مجازاة على فعلهم .

والصرفان الليل والنهار ، وصرفنا الآيات أي بيّناها .

وتصريف الرياح صرفها من جهة إلى جهة ، أو جعلها جنوباً وشمالاً ، وصباً ودبوراً . وصرف الدهر حدثانه ونوائبه .

والصرف بيع الذهب بالفضة ؛ لأنه ينصرف به عن جوهر إلى جوهر .

البيان

بدأ ـ عليه السلام ـ في هذه الفقرة يستعطف الباري بلهجة الواثق من استجابة دعائه ؛ لأن نفسه مطمئنة ؛ ولأن الله قد أمر بالدعاء في ذلك الظرف من الزمان والمكان ، وما أمر الله بالدعاء في حالة ودعي فيها إلاّ أجاب .

يقول ـ عليه السلام ـ : (أللهم أوجب لنا بجودك عظيم الأجر) وإذا تأملت ما جاء في هذه العبارة من كيفية طرق باب السؤال أخذك الذهول من عجيب ما تراه فيها ، فإنه قد جعل جود الباري هو الشفيع ، وهو الذي بواسطته تنال الرغائب وتتحقق المطالب .

فلو لم يكن هناك جود لما كان هناك عطاء ، وإذا لم يكن هناك عطاء لم يكن هناك سؤال ، وإذا لم يكن هناك سؤال لم تكن هناك ثقة ، وإذا لم

---

(١) سورة التوبة ، آية : ١٢٧ .

تكن هنـاك ثقة لم تكن هنـاك ثقة بين السـائل والمسؤول ، أو بين العبـد وربّه .

إذاً فكل هذه الأمور مدارها الجود الذي ذكره ـ عليه السلام ـ فقوله : (أوجب لنا بجودك) معناه إجعلنا ممن يستحق ذلك العطاء الثـر في ذلك اليوم الأغر ؛ لأنه بدون ذلك الجود لا يمكن أن ينـال الإنسان شيئـاً سواءً كان بعمل أو بغير عمل .

لطيفة تاريخية

ويروي لنا تاريخ الأجواد ما حدث لمعن بن زائدة ، وهو عامل بني أمية على البصرة . فقالوا : إن إعرابياً جاء من البادية يريد الدخول على معن بن زائدة بغية العطاء ، ولكنه منع من الدخول . وكان لمعن هذا عادة في الجلوس على ضفة نهر قريب من منزله عصر كل يوم . فأخذ الإعرابي خشبة عليها بيتاً من الشعر وهو :

أيا جود معن ناج معناً بحاجتي فليس إلى معن سواك شفيع

ثم أرسلها في النهر لتمر قريباً من مجلس معن ، فلما رآها معن أمر أحد غلمانه أن يأتيه بها ، فجاء بها إليه وقرأ فيها بيت الشعر المذكور فجعلها عنده .

ولما حضر إلى مجلسه أمر أصحابه بالبحث عن صاحبها حتىٰ عثروا عليه في بعض الحالات ، فأحضروه إلى معن ، فقال له : أنت قائل هذا البيت ؟ فقال : نعم ، قال : إقرأه عليّ . فقرأه فأعطاه ألف دينار ثم صرفه . وفي اليوم التالي أمر به فأحضر فقال : إقرأ البيت عليّ ، فقرأه فأعطاه ألف دينار أخرىٰ ، ثم صرفه . وفي اليوم الثالث أمر به فأحضر ، فقال : إقرأ البيت عليّ فقرأه ، فأعطاه ألف دينار ثالثة ، ثم صرفه . وشعر

الإعرابي بالحرج فخرج من مدينة البصرة ، وأرسل إليه معن في اليوم الرابع فلم يره ، فقال : آليت على نفسي ألّا أبقي من أموالي شيئاً عوضاً عن هذا البيت ، ولكنه أساء الظن بنا .

ثم نقول إن قوله ـ عليه السلام ـ : (عظيم الأجر) إن كان في المفهوم الإنسان فإن العظمة هذه تنطبق على كل ما يراه الإنسان عظيماً ، أو كل ما يراه الرائي كذلك ، وبهذا يختلف مفهوم العظمة عند الإنسان من فرد لآخر ، وعند الرائي من جنس لآخر . سواءً كان إنساناً أو جنّاً أو حيواناً ، وربما قارب هذا قوله ـ تعالى ـ : **﴿إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيءٍ ولها عرش عظيم﴾**[2] . والعرش العظيم سرير كريم معمول من ذهب ، وقوائمه من لؤلؤ وجوهر ، عن ابن عباس[3] .

وهذا المفهوم الإنساني هو حكاية عن الهدهد ؛ لأنه قد خاطب بذلك سليمان ـ عليه السلام ـ ولذلك فقد صوّر هذه العظمة لحسب ما يعقل الإنسان ويدركه من خلال النظرة المادية .

وأما أن نقول بأن العظمة المذكورة في النص الماثل أمامنا هو ما يراه الله عظيماً ، وهو الأقرب ، وذلك بقرينة الخطاب الموجه إليه ـ سبحانه وتعالى ـ من العبد .

وعليه فإنه ـ عليه السلام ـ يطلب من الله الأجر العظيم بما يتعلق بأمور الآخرة ، ولما كان الأمر كذلك فإن قليل الآخرة كثير في الدنيا ، والقليل عند الله كثير عند الناس ، أما إذا كان عظيماً في الآخرة ، وعظيماً عند الله حتىٰ ما كان يتعلق بأمور الدنيا فإن ذلك يعني عدم تصور ذلك

---

(٢) سورة النمل ، آية : ٢٣ .

(٣) التبيان : ج٨ ص٨٩ .

الأجر الذي أراده ـ عليه السلام ـ .

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (وكريم الذخر) فإن الذخيرة كما مرّ في بحث اللغة هو ما يدّخر ويحفظ ، وقد جرت الطبيعة الإنسانية بمقتضىٰ نزعة الحرص إنما ما يدّخره ويحفظه الإنسان خير مما يبذله ، فكأنه يقول ـ عليه السلام ـ : إدّخر لنا كل كريم ؛ لأنا محتاجون إليه في الآخرة ، فإنه مهما قلّ العطاء في دار الدنيا فإن حاجة الإنسان إليه ستنقضي بانقضاء عمره ، ولكن الحياة الأخرىٰ دائمة ما دامت السماوات والأرض ، وهي أولىٰ أن يدّخر لها كل أجر عظيم ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ ... **وأنبؤكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين**﴾[٤] قال في الميزان : وهذا إخبار بالغيب المختص بالله ـ تعالى ـ ، ومن خصه من رسله بالوحي ، وإخبار بغيب صريح التحقق لا يتطرق إليه الشك والريب ، فإن الإنسان لا يشك عادة فيما أكله ولا في ما ادّخره في بيته[٥] .

وعلى هذا نقول كما سبق أن قلنا أن الإدّخار هو حفظ ما تشتهيه النفس وتقيمه تقييماً مادياً ، وترغب في احتوائه دائماً ، ولذلك تحرص على أن يبقىٰ موجوداً كالمال والذهب والفضة والجواهر والأحجار الكريمة ، والملابس الناعمة . وربما تعدّىٰ ذلك إلى ما هو أعم ، فإنه قد ورد في الشرع الشريف بأن الله يدّخر للعبد داعوات مستجابة يحفظها له ويؤجلها إلى حين لعلمه ـ سبحانه ـ بأن العبد في حاجة إليها ، وربما ادّخرها له إلى يوم الجزاء وإلى هذا أشار قوله ـ تعالى ـ : ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفي لها من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون**﴾[٦] قال في الميزان : هو

---

(٤) سورة آل عمران ، آية : ٤٩ .

(٥) تفسير الميزان : ج٣ ص٢٠٠ .

(٦) سورة السجدة ، آية : ١٧ .

تفريع لما لهم من الأوصاف والأعمال يصف ما أعدّ الله لهم من الثواب .

ووقوع (نفس) وهي نكرة في سياق النفي يفيد العموم ، وإضافة (قرة) إلى (أعين) لا أعينهم تفيد أن في ما أخفي لهم قرة عين كل ذي عين .

والمعنىٰ : فلا تعلم نفس من النفوس ـ أي هو فوق علمهم وتصورهم ـ ما أخفاه الله لهم مما تقر به عين كل ذي عين جزاءً في قبال ما كانوا يعملون في الدنيا[٧] .

(٧) تفسير الميزان : ج١٦ ص٢٦٣ .

دوافع الإدّخار الممقوت

أما لماذا يدّخر الإنسان ذلك فإن الدوافع كثيرة منها :

١ ـ البخل : والبخل عادة مستهجنة قبيحة ذمّ الله عليها الإنسان لأنها تؤدي إلى عدم الثقة بالله وقطع الأمل من الرزق ، وذلك يؤدي إلى اليأس والقنوط ، وقد تعرّض القرآن الكريم في كثير من الآيات لذلك ، وذمّ البخل والبخلاء ، في آن واحد ، فمنها قوله ـ تعال ـ : **﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم** . . . الآية ﴾[٨] قال في مجمع البيان : الخطاب موجه للنبي ، والمراد غيره ، إن بخل الذين يبخلون خيرٌ لهم ، بل هو شرٌ لهم ، أي ليس كذلك كما يظنون ، بل ذلك البخل شرٌ لهم . واختلف في هذا التطويق فقيل يجعل ما بخل به من المال طوقاً في عنقه ، والآية نزلت في مانع الزكاة . وقيل : معناه يجعل في عنقه يوم القيامة طوقاً من نار . وقيل : معناه يكلفون يوم القيامة أن يأتوا بما بخلوا به من أموالهم[٥] .

وخلاصة القول : إن البخل خلة مذمومة بحكم الشرع والعقل

(٨) سورة آل عمران ، آية : ١٨٠ .

(٩) مجمع البيان : ج٢ ص٨٩٦ .

والذوق والفطرة ، لأنه لا يتمشىٰ مع الحياة الإجتماعية والإنسانية .

٢ ـ **الأنانية** : وإن كانت هذه الخصلة لا تفترق عن الأولىٰ كثيراً إلاّ أنها عند التأمل يظهر لك الفارق ، فالأنانية هي عبارة عن حب الإنسان لنفسه حباً مفرطاً ، بحيث أنه لا يرىٰ من يستحق ما يستحق ، فهو يمنع الخير عن غيره ليحجزه لنفسه فقط ، فقد بحثنا موضوع (الأنا) في أول هذا الجزء ليرجع إليه مَن أحب .

٣ ـ **الخوف من الفقر** : وهذه ظاهرة منتشرة ملازمة لحياة الإنسان ومواكبة له من أول الدّهر فهو بقدر ما يخاف من الفقر يحرص على المال وهو السبب الرئيسي للغنىٰ ، وبقدر ما يحرص على الغنىٰ يجمع المال ويدّخره .

٤ ـ **التفاخر** : وذلك إن الإنسان غالباً ما يبني أمر حياته على التطاول والتعاظم بين أبناء جنسه بدافع حب الظهور وإلفات النظر لكي يكون مقدراً محترماً في مجتمعه ، فيلجأ إلى الوسائل التي تتكفل له بذلك فيتخيلها سبباً وإن لم تكن . ولما كان المجتمع قد تناول هذا المفهوم واصطلح عليه ـ أي حب المال ـ وجمعه ووفرته فإنه يقدر بحسب ذلك المفهوم الخاطىء من مجتمع مادي لا يرىٰ غير ذلك . وقد تعرض الكتاب العزيز لهذه الظاهرة وعرضها عرضاً واضحاً في قوله ـ تعالى ـ : ﴿**إعلموا إنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور**﴾[١٠] قال في التفسير : يا معاشر العقلاء والمكلفين إن هذه الدنيا

---

(١٠) سورة الحديد ، آية : ٤٩ .

لعب ولهو لأنه لا بقاء لذلك ولا دوام ، وإنه يـزول عن وشيك كمـا يزول اللعب واللهو ، وهي زينة تتزينون بها في الدنيا وتفاخر بينكم ، أي يفتخر بعضكم على بعض ، وتكاثر في الأموال والأولاد أي كل واحد يقول مالي أكثر ، وأولادي أكثر(١١) .

وهناك كثير من النقـاط التي تتوارد عنـد التأمـل في هذا المـوضوع تركناها رغبة في الإختصار .

---

(١١) تفسير التبيان : ج٩ ص٥٣٠ .

معنى الدوام

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (ودوام اليسر) الدوام هو الوقت الذي ليس له نهاية ، أو له نهاية غير معلومة ، قال ـ تعالى ـ : **﴿خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلاّ ما شاء ربّك . . . ﴾**[12] الآية قال الراغب في المفردات : الخلود هو تبري الشيء من اعتراض الفساد ، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها ، وكلما يتباطأ عنه التغيير والفساد يصفه العرب بالخلود كقولهم للإثافي خوالد ؛ وذلك لطول مكثها لا لدوام بقائها قالوا في تفسير الآية السابقة وجوهاً منها :

١ ـ أن المراد ما دمت الآخرة وهي دائمة أبداً ، كما أن دوام السماء والأرض في الدنيا قدر مدة بقائها ، ولعلّ المراد أن قوله : **﴿ما دامت السماوات والأرض﴾** موضوع وضع التشبيه كقولك : كلّمته تكليم المستهزىء به الهازىء به .

٢ ـ أن المراد به التبعيد وإفادة الأبدية لا أن المراد به التحديد بمدة بقاء السماوات والأرض بعينها ، فإن للعرب ألفاظاً كثيرة يستخدمونها في

---

(١٢) سورة هود ، آية : ١٠٧ .

إفادة التأبيد من غير أن يريدوا بها المعاني التي تحت تلك الألفاظ كقولهم : الأمر كذا وكذا ما اختلف الليل والنهار ، وما درّ شارق ، وما طلع نجم ، وما هبت نسيم ، وما دامت السماوات ، وقد استراحوا إليها وإلى أشباهها ظناً منهم أن هذه الأشياء دائمة باقية لا تبيد أبداً ، ثم استعملوها كأنها موضوعة للتبعيد ، وكقول الشاعر أبي تمام :

عليك سلام الله وقف فإنني رأيت الكريم الحر ليس له عمر

٣ ـ أن يكون المراد أنهم خالدون بمدة بقاء السماوات والأرض التي يعلم انقطاعها ثم يزيدهم الله ـ سبحانه ـ على ذلك ويخلدهم ويؤبّد مقامهم ، وهذا مثل أن يقال : هم خالدون كذا وكذا سنة ، ثم يضيف ـ تعالى ـ إلى ذلك ما لا يتناهىٰ من الزمان كما يقال في قوله ـ تعالى ـ : ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾[13] أي أحقاباً ، ثم يزيدون على ذلك . وهناك أمور أخرىٰ ترد في هذا المعنىٰ أعرضنا عنها لقلة الفائدة .

بعد هذا ندرك ما قاله ـ عليه السلام ـ : (ودوام اليسر) أي تيسير أموره دائماً أبداً ، وهذا يحتمل معنيين :

الأول : إن هذا التيسير يدوم طالما أنه متلبس بالفعل حتىٰ ينتهي منه ، بمعنىٰ آخر أنه لا ينقطع به الأمل ، أو لا يقطع نيته فينفك عن الوجه الذي أراده له ، وهو القربة لله سبحانه .

الثاني : أن اليسر المقصود دوامه هو عدم الحاجة إلى غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحصول اليسار وهو الغنىٰ المادي في دار الدنيا . قال ـ تعالى ـ : ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾[14] لأن الحاجة تقلق

---

(١٣) سورة النبأ ، آية : ٢٣ .

(١٤) سورة البقرة ، آية : ٢٨٠ .

راحة الإنسان وتجعله مشوش البال ، وربما ينصرف بسبب ذلك عن بعض واجباته التي فرضها الله عليه ، وإن كان هذا بعيداً عنه ـ عليه السلام ـ إلاّ أن الله قد أمر عباده بالدعاء وطلب الرزق والإلحاح في المسألة ، وهو ـ عليه السلام ـ أولى السامعين والمتثلين ، ولأنه في هذا الكلام لا يدعو لنفسه خاصة ، ولكنه دعا لنفسه ضمن دعائه لأهل ذلك الموسم .

الدعاء لأهل الموقف

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (واغفر لنا ذنوبنا أجمعين) فهو تفضل منه ـ عليه السلام ـ بالدعاء لأهل الموقف ، لأنه إذا كان الداعي في هذه المرتبة من العصمة والإخلاص في الدعاء ، فإن ذلك يعني الإستجابة المحققة ، فإن قوله ـ عليه السلام ـ : (أجمعين) شمول لأهل ذلك الموقف في سؤال مغفرة الذنوب لمن كان يصلح لذلك ؛ لأهل أهل الموقف ليسوا كلهم يصلح للمغفرة ، وليسوا كلهم أهل للرحمة ، فالمقصود باللفظ من توفرت فيه شروط الطاعة فجاء بالعبادة على وجهها . أما المنافق ، ومن لف لفّه فهو خارج عن حظيرة ذلك الدعاء بدليل قوله ـ عليه السلام ـ : (ولا تهلكنا مع الهالكين) فإن هناك من أهل الموقف من هو هالك بلا شك وغير مغفور له . وقد ورد في المأثور عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ تصنيف الحجاج إلى ثلاثة أصناف ، قالوا : إنه يأتي على الناس زمان يحج فيه الأغنياء للنزهة ، والأوساط للتجارة ، والفقراء للمسألة فمن هو المخلص بعد ذلك يا ترىٰ في هذه العبادة العظيمة ؟!

فهذه الأصناف الثلاثة خارجة بلا شك من قاموس الحج الذي عرض فيه الباري رحمته لعباده ، وأعطاهم منها بلا حساب .

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (ولا تصرف عنا رأفتك برحمتك يا أرحم الراحمين) والرأفة أخص من الرحمة ؛ لأنها أكثر رقةً وعطفاً ولهـذا طلب ألّا يصرف عنه هذا العطف والحنان ؛ لأن رحمته وسعت كل شيء ومنها الرأفة ، وبينهما عموم وخصوص مطلق ، فكل رأفة رحمة وليس العكس ، وكأنه ـ عليه السلام ـ يريد من الله ـ سبحانه ـ عناية خاصة ، وذلك إما لأنه قد بالغ بالإعتراف بالضعف ؛ لأن الضعيف يحتاج إلى عناية ورعاية خاصة ، كالطفل الصغير يعامل من جانب أبويه بحنان ورأفة أكبر من إخوانه الكبار .

أو لأن الرحمة شاملة لما هو أعم ويريد بذلك تحديد مطالبه التي ذكرها ويذكرها في مطاوي الأبحاث اللاحقة . ولقد تحدثنا كثيراً عن هذه الرأفة في ما سبق من أبحاث الكتاب .

ونريد أن نقول هنا كلمة أخيرة ، وهي أن الرأفة صفة من صفات الله ـ تعالى ـ لأنه هو الرؤوف الرحيم ، إلّا أنه لوجود التلازم الشديد بين الرأفة والرحمة لا يكاد الإنسان أن يميز إحداهما عن الأخرىٰ إلّا بعد التأمل . فالرأفة أخص والرحمة أعم ، كما قدمنا ، وقد قدّم في العبارة ذكر الخاص لأهميته في الطلب ، وأخّر العام لشموله الخاص . إلّا أنا نعود فنقول بأن الجار والمجرور (برحمتك) متعلق بالفعل (تصرف) أو بضدّه بمعنىٰ أنه يقول : أعطنا برحمتك رأفتك ، وهو لا يدنو فيه شيء من التكلف .

ثم توسل ـ عليه السلام ـ بالصفة الملائمة لذلك الموقف ، وهو قوله : (يا أرحم الراحمين) وهي صفة لا يناسب ذكر غيرها بحسب سياق العبارة أولاً ، وبحسب الظرف الزماني والمكاني ؛ ثانياً لأنها تشير إلى الطلب من جهة ومدح لله ـ سبحانه ـ من جهة أخرىٰ .

قال عليه السلام :

[اَللَّهُمَّ اجْعَلْنا في هٰذا الْوَقْتِ مِمَّنْ سَأَلَكَ فَأَعْطَيْتَهُ ، وَشَكَرَكَ فَزِدتَهُ ، وَثابَ إِلَيْكَ فَقَبِلْتَهُ ، وَتَنَصَّلَ إِلَيْكَ مِنْ ذُنُوبِهِ فَغَفَرْتَها لَهُ ، يا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرامِ] .

اللُّغَةُ

تنصل : تنصل فلان من ذنبه أي تبرأ ، والتنصل شبه التبرؤ من جناية أو ذنب . وتنصل إليه من الجناية خرج وتبرأ ، وتنصلت الشيء إذا استخرجته .

والنصل نصل السهم ، ونصل السيف ، والسكين والرمح ، ويقال : سهم ناصل إذا خرج من نصله ، ومنه قولهم : رماه بأفوق ناصل . قال أبو دؤيب :

فحص عليها والضلوع كأنها ... من الخوف أمثال السهام النواصل

البيان

تعرض ـ عليه السلام ـ في هذه الفقرة إلى مسألة العطاء ، والعطاء

من الله لا يكون إلاّ جزيلاً ، فقال ـ عليه السلام ـ : (أللهم اجعلنا في هذا الوقف ممن سألك فأعطيته) والعطاء بعد السؤال دليل على قبول الدعاء واستجابته . على أنا نقول بأن الله ـ سبحانه ـ هو الذي يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة ـ كما نطق بذلك لسان الدعاء الوارد عنهم ـ عليهم السلام ـ غير أن العطاء قبل السؤال يشترك فيه البر والفاجر ، والمؤمن والفاسق ، والمسلم والكافر ، وذلك شأنه ـ سبحانه ـ مع عباده ، لا يمنعهم العطاء ، ولا يحجب عنهم الرزق ؛ لأن ذلك قد حتمه على نفسه ، واشترطه لعبده ، وقد مرّ معنا بأن مسألة الإيمان والشرك لا دخل لها في الرزق ، وإلاّ لما بقي كافر على وجه الأرض ، وهذا من صلب القول بالجبر والتفويض المنفيين عنهم ـ عليهم السلام ـ نفياً قاطعاً . وسنتناول هذا الموضوع في حديث آخر .

فالعطاء الذي يأتي قبل السؤال شامل لجميع العباد بل لجميع الأحياء . وأما ما يعطيه ـ سبحانه ـ بعد السؤال فهو الفارق بين المؤمن والكافر ؛ وذلك لأن الكافر يدعو فلا يستجاب له ، لأن الدعاء عبادة ، وفيها يشترط قصد القربة ، وهي لا تتأتىٰ من الكافر ، ولكنه يستجاب له عند التظلم والشكوىٰ إليه عندما لم يجد الكافر ناصراً غير الله .

أما المؤمن فإنه بحكم كونه مؤمناً يسأل الله من فضله ويكون ذلك السؤال مناطاً ومقياساً للإيمان ؛ لأن الدعاء هو مخ العبادة ولا يكون سؤالٌ إلاّ بدعاء . فكلما تضرع الإنسان أكثر كان أقربَ إلى الله ، وكلما قرب من الله قرب من إستجابة الدعاء ، وكلما قربت إستجابة الدعاء قرب تعجيلها .

وربما ظهر في أفق العبارة السابقة على ضوء ما تقدم بأن الطلب لا يعني العطاء فقط ، وإلاّ لقال : أللهم اعطنا ، وكفىٰ ولكنه قال : (ممن

سألك فأعطيته) يعني من الذين يسألونك فتستجيب لهم ، وهذه صفة لا تكون إلّا في المؤمنين ، فكأنه قال ـ عليه السلام ـ : (أللهم اجعلنا من المؤمنين) ، ولكن ليس من مجرد المؤمنين ، فإن هناك من المؤمنين من لا يستجاب له دعاؤه ، أو لا يستجاب له فوراً ، ولكن اجعلنا من المؤمنين الذين يسألونك فتعطيهم ، أي من الذين لهم كرامة الإستجابة عندك حال الدعاء ؛ وذلك لأن العطف بالفاء في قوله ـ عليه السلام ـ : (فأعطيته) يدل على الفورية .

أما تحديد الوقت وهو وقت موقف عرفة فهو يدل على بركة هذا الزمان الذي يحن فيه الإنسان إلى إستجابة الدعاء ، وكأنه يقصد من تحديد الوقت وهو وقت مبارك فيه زيادة العطاء ؛ لأن العطاء في ذلك اليوم جزيل .

وبالجملة فإن العبارة تعطي معنىً طلبه بأن يكون من الناس الذين لهم كرامة عند الله ، في ذلك الوقت الذي يكون له كرامة عند الله ، وبذلك يكون العطاء غير محدود ولا مجذوذ .

تعلق الزيادة بالشكر

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (وشكرك فزدته) فجعل الزيادة في العطاء معلقة بالشكر وهذا ما أشار إليه ـ سبحانه ـ في كتابه المجيد : ﴿وإذ تأذن ربّكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾[1] قال في الميزان : بيّن ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الحقيقة وهي كون الشكر الذي حقيقته استعمال النعمة بنحوٍ يذكر إنعام المنعم ويظهر إحسانه ، ويؤول في مُورده ـ تعالى ـ إلى الإيمان به والتقوىٰ موجباً لمزيد النعمة ، والكفر لشديد العذاب في موضع كلامه . وقد حكىٰ عن نوح في ما ناجىٰ ربّه ودعىٰ على قومه : ﴿فقلت استغفروا ربّكم أنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين . . .﴾[2] الآية .

ومن لطيف كرمه ـ تعالى ـ اللّائح من الآية كما ذكره بعضهم اشتمالها على التصريح بالوعد ، والتعريض في الوعيد حيث قال : ﴿لأزيدنكم﴾ وقال : ﴿إن عذابي لشديد﴾ ولم يقل : لأعذبنكم ؛ وذلك

(١) سورة إبراهيم ، آية : ٧ .

(٢) سورة نوح ، آية : ١٢ .

من دأب الكرام في وعدهم ووعيدهم غالباً[٣] .

قال المؤلف : إن شكر المنعم واجب كما اتفق عليه علماء الكلام ، وشكر النعمة بهذا المعنىٰ هو تأدية حقها ، وحقها هو كالدين الذي يكون في ذمة الإنسان ، يشغلها حتىٰ يؤديه ، وكذلك الشكر ، فإن هو أدىٰ ذلك الدين استطاع على أن يحصل شيء آخر ، وإن لم يؤده انعدمت الثقة بينه وبين عميله .

والزيادة المذكورة في العبارة والمبنية على الشكر كما قلنا هي من هذا القبيل ، فإن شكر الإنسان النعمة حصل على نعمة أُخرىٰ ، وإن لم يشكرها بمعنىٰ أنه لم يعترف بها آلت إلى الإنقراض ، بمعنىٰ أنه كل ما يحصل عليه الإنسان فهو قليل في نظره .

---

(٣) تفسير الميزان : ج١٢ ص٢٢ .

التوبة المقبولة

أما قوله ـ عليه السلام ـ : (وتاب إليك فقبلته) فإن قبول التوبة يعني الإخلاص فيها ، وقد تقدم الحديث عن التوبة في هذا الجزء من الكتاب بعنوان (التوبة النصوح) على أن العبارة قد ذكرت قبول التوبة وهذا يعني طلبه ـ عليه السلام ـ من الله أن يوفقه للتوبة ، ويجعل عمله هذا مقبولاً ، لأن التوبة هي من جملة الأعمال الصالحة التي يتنافس فيها المتنافسون .

ثم إن هذا لا يعني تحقق الذنب منه ـ عليه السلام ـ ، فإن التوبة بعد أن قلنا بأنها من الأعمال الصالحة لا ضير في أن يمارسها المذنب وغير المذنب ، والمعصوم ، وقد ورد في المأثور عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ بأنه يتوب إلى ربّه في كل يوم سبعين مرّة ، وهناك كثير من الآيات في الكتاب العزيز التي أشارت صراحة إلى الذنب الذي يغفره الله ـ تبارك وتعالى ـ بعد نسبته إلى الأنبياء وغيرهم .

والتوبة لمثل هؤلاء الأنبياء والأوصياء والأبدال من المؤمنين هي بمنزلة الإستحمام للبدن النظيف ، ليس الغرض منه إلّا تجديد النشاط ، أو لتجديد الوضوء للمتطهر ليس الغرض منه استباحة الصلاة وإنما الغرض هو زيادة نور على نور .

وأنت إذا تأملت ما ألمحت إليه العبارة من معنىٰ التوبة اتضح أنه يريدها أن تكون توبة مقبولة ، ورأيت من ذلك عجباً ، فإنه لا يمكن قبول التوبة إلّا بعد أن يتبرأ الإنسان من الذنب ، ويعزم على عدم معاودته له ، وهذا ما أشارت إليه العبارة التالية وهي قوله ـ عليه السلام ـ : (وتنصل إليك من ذنوبه فغفرتها له) ، وبذلك يتحقق قبول التوبة ، ويكون الإنسان كيوم ولدته أمه .

لكن يبقىٰ القول بأن التنصل هل يعني غفران الذنوب كلها على فرض غفرانها بعد التنصل ، فإن هناك من الذنوب ما لا يغفر إلّا بعد أن يغفره الإنسان ؛ لأنها حق للناس كالغيبة والنميمة ، ومنها ما يكون حقاً لله والله يغفر الذنوب جميعاً . فالتنصل ليس وحده يكفي في غفران الذنوب كلها بالضرورة ، ولكنه ـ عليه السلام ـ أطلق في العبارة ذكر الذنوب التي تغفر بالتنصل ، وهذا يعني أنه لم يكن هناك ذنب للناس عنده .

ولما كان الله هو الذي اختاره محلاً للعصمة فذلك يعني أن لا ذنب له مع الله ؛ لأن ذنوبه التي تغفر بينه وبين الله لا وجود لها لأن الله ـ سبحانه ـ قد انتجبه واصطفاه في جملة المصطفين الأخيار ، وذلك يعني طهارته من الذنب .

ذو الجلال والاكرام

ثم قال ـ عليه السلام ـ : (يا ذا الجلال والإكرام) وهاتان صفتان من صفات الباري ـ سبحانه وتعالى ـ فذو الجلال يعني الذي يجل من أن يقابل عبده المسيء بالإساءة ، والإكرام يعني الذي يعامل عبده بالكرم ، فهو ـ عليه السلام ـ لم يصفه بمقابلة الإساءة بالإحسان فقط ، ولكن زيادة على ذلك يتكرم على عبده فيزيده في العطاء ويحسن إليه في الكرم . وهاتان الصفتان من الصفات الكمالية لله ـ سبحانه وتعالى ـ وإلى ذلك أشار قوله ـ تعالى ـ : ﴿**تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام**﴾[٤] . قال الطبرسي في مجمع البيان : ذي الجلال أي ذي العظمة والكبرياء ، والإكرام يكرم أهل دينه وولايته . وقيل معناه عظمة البركة في ﴿**اسم ربك**﴾ فاطلبوا البركة في كل شيء بذكر اسمه . وقيل : إن ﴿**إسم**﴾ صلة لمعنىٰ ﴿**تبارك ربك**﴾ قال لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

وقيل : إن المعنىٰ إن إسمه منزه عن كل شيء ، له الأسماء

(٤) سورة الرحمٰن ، آية : ٧٨ .

الحسنىٰ . وقد صحّ عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ إنه قال : (انطقوا بيا ذا الجلال والإكرام ، أي داوموا عليه) .

وقيل : يكرم أنبياءه وأولياءه بألطافه وأفضاله مع عظمته وجلاله وقيل : معناه أنه أهل أن يعظم وينزه عما لا يليق بصفاته كما يقول الإنسان لغيره . أنا أكرمك عن كذا ، وأجلك عنه[٥] .

وفي تفسير آخر للآية ورد عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ كما ذكر ذلك السيد البحراني في تفسير البرهان ـ عن علي بن إبراهيم قال : حدثنا علي بن الحسين ، عن أحمد بن أبي عبدالله ، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر ، عن هشام بن سالم ، عن سعد بن طريف ، عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ في قول الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿**تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام**﴾ قال : نحن جلال الله وكرامته التي أكرم الله العباد بطاعتنا[٦] .

ومن خلال ما تقدم يظهر معنىٰ العبارة الواردة في النص والغرض من إقحامها في فقرة الدعاء ؛ لأنه ـ عليه السلام ـ في حال مسألةٍ من الله ـ تعالى ـ وهذه الصفات التي ذكرها هي أنسب ما يذكر من صفاته ـ سبحانه ـ في تلك الحال التي هو عليها .

وقد جرت هذه الأبيات ضمن السياق في أثناء البحث وهي :

وعدت فأخلفت الوعود بتوبتي … فيا خيبة الآمال في خلف موعدي
جنيت فلم أندم وأغراني الهوىٰ … فها أنا ذا في الذنب مثل المصفد
أحن حنين اليعملات لما مضىٰ … من العمر مثل البارق المتوقد

---

(٥) مجمع البيان : ج٩ ص٣٠٦ ، ٣٢٠ .

(٦) تفسير البرهان للبحراني : ج٤ ص٢٧٢ .

أناجي نجوم الأفق إن أظلم الدجىٰ فوا أسفي فالعمر قد ضاع من يدي
تتبعت ليلىٰ والهــوىٰ يهـدم المنىٰ ويضعف آمال الفتىٰ في منـى الغد
عرفت الهوىٰ والعمر غض ولم يزل يــراودني في ســورة الـمتـمــرد
فلولا الـذي أرجوه من عفـو خالق عفــوٍ غفــور ذنب كــل مــوحـد
لــذاب فؤادي من لهيب جـرائمي كذوب الرصاص الصلب من فوق موقد
ولكنـني لا زلـت أطلب جـاهـداً من الله في الـدارين أصدق مقعـد
وثقت بعفــو الله والــرحمــة التي تجلت لخلق الله فـي كـل مــورد
فيـا غافـر الذنب الـذي لـو تنالـه جبـال برضـوىٰ أصبحت في تقدد
أنلني بــرد الـعفــو إن بــلا بـلي تعـج بآمــالي لـدىٰ كـل مشهـد

* * *

إلى هنا ينتهي الجزء الثالث من كتاب أصول المعرفة في شرح دعاء عرفة للإمام الحسين ـ عليه السلام ـ وقد صادف الفراغ منه صباح الجمعة في اليوم الرابع من شهر جمادى الأولى من سنة ١٤١١ هـ الموافق الثالث والعشرين من شهر نوفمبر من سنة ١٩٩٠م .

أسأل الله أن ينفع به إخواني المؤمنين ، وألا ينسوني من دعائهم ، ويتلوه الجزء الرابع بعونه تعالى .

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
سورة النصر	٥
خطبة الكتاب	٧
قوله (ع): (يا مولاي أنت الذي أنعمت... النص)	١٣
اللغة	١٣
البيان	١٦
قوله (ع): (ثم أنا يا إلهي المعترف بذنوبي... النص)	٢٦
اللغة	٢٦
البيان	٢٨
معنى الأنا	٢٩
صدق الوعد وقصة إسماعيل (ع)	٣٥
الإعتراف بالذنب فضيلة	٣٩
قال (ع): (يا من لا تضره ذنوب عباده... النص)	٤٢
اللغة	٤٢
البيان	٤٤
معنى الغنى المنسوب إلى الله	٤٧
التوفيق للعمل الصالح	٤٩

الموضوع	الصفحة
البراءة عند الإمام	٥٢
حول سورة براءة	٥٧
القوة وأسبابها	٦٠
بقية الأعضاء ودورها	٦٢
قال (ع): (يا من سترني من الآباء والأمهات... النص)	٦٧
اللغة	٦٧
البيان	٦٨
مراحل التربية	٧٢
القوة بخيرها وشرّها	٧٧
قوله (ع): (ما عسى الجحود ولو جحدت... النص)	٨٤
اللغة	٨٤
البيان	٨٧
العدل	٩٣
العدل الإلهي	٩٥
حكاية حادثة	٩٩
نظم الحكاية	١٠٠
قال (ع): (لا إله إلا أنت سبحانك... النص)	١٠٥
اللغة	١٠٥
البيان	١٠٧
الإستغفار	١١٠
التوحيد	١١٣
الوجل (الخوف)	١١٩
الرجاء والرغبة	١٢١

الموضوع	الصفحة
الإلحاح في المسألة	١٢٣
ذكر الآباء الأولين	١٢٦
قال (ع): (اللهم هذا ثنائي عليك ممجداً. . النص)	١٢٩
اللغة	١٢٩
البيان	١٣١
تفريج الكرب	١٤٠
قال (ع): (ولو رفدني على قدر ذكر نعمك. . النص)	١٤٥
اللغة	١٤٥
البيان	١٤٧
السعادة	١٥١
قال (ع): (سبحانك لا إله إلاّ أنت. . النص)	١٥٥
اللغة	١٥٥
البيان	١٥٨
الإخلاص في الدعاء	١٦٠
الرحمة الخاصة والعامة	١٦٨
القدرة وعواملها	١٧١
السجون وأغراضها	١٧٩
عصمة النبي من الناس يوم الغدير	١٨٤
الوزارة	١٨٧
حديث المنزلة	١٩٠
قال (ع): (صل على محمد وآل محمد. . النص)	١٩٢
اللغة	١٩٢
البيان	١٩٤

الموضوع	الصفحة

العطاء وأنواعه ٢٠٠
التوبة النصوح ٢٠٥
قال (ع): (اللهم إنك أقرب من دعي... النص) ٢١١
اللغة ٢١١
البيان ٢١٢
القرب والبعد من الله ٢١٣
إجابة الدعوة ٢١٦
كرم العفو ٢١٨
العطاء الواسع ٢٢١
نسبة السمع إليه (تعالى) ٢٢٣
رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيمهما ٢٢٦
قال (ع): (دعوتك فأجبتني وسألتك فأعطيتني... النص) ٢٣٠
اللغة ٢٣٠
البيان ٢٣٢
الصلاة على النبي (ص) باسمه وصفته ٢٣٨
حقيقة الشكر ٢٤١
قال (ع): (اللهم يا من ملك فقدر... النص) ٢٤٦
اللغة ٢٤٦
البيان ٢٤٨
الملك الدائم والمتزلزل ٢٤٩
القهر والغلبة ٢٥٢
الستر على القبيح ٢٥٥
الإستغفار مرة أخرى ٢٥٨

الموضوع	الصفحة
الرغبة والرجاء	٢٦٠
علم الله المحيط بكل شيء	٢٦٣
قال (ع): (اللهم إنا نتوجه إليك... النص)	٢٦٧
اللغة	٢٦٧
البيان	٢٦٨
عشية عرفة وفضلها	٢٧١
مراتب النبوة	٢٧٣
خيرة الله من الخلق	٢٧٦
الأمانة في حياة الإنسان	٢٧٩
قال (ع): (اللهم فصل على البشير النذير... النص)	٢٨٦
اللغة	٢٨٦
البيان	٢٨٨
فلسفة الإنذار	٢٩٠
الإنذار يوم الدار	٢٩١
قال (ع): (اللهم فصل على محمد وآله... النص)	٢٩٧
اللغة	٢٩٧
البيان	٢٩٩
العفو عند المقدرة	٣٠٤
غدر الرشيد بيحيى	٣٠٥
قال (ع): (واجعل لنا في هذه العشية... النص)	٣١٥
اللغة	٣١٥
البيان	٣١٦
النصيب من الخير	٣١٨

الموضوع .... الصفحة

بسط الرزق ٣٢٦
أرحم الراحمين ٣٢٩
قال (ع): (اللهم اقلبنا في هذا الوقت... النص) ٣٣١
اللغة ٣٣١
البيان ٣٣٤
البر ٣٣٧
الغنيمة ٣٤٠
القنوط ٣٤٣
الخلو من الرحمة ٣٤٧
قال (ع): (اللهم إليك أقبلنا موقنين... النص) ٣٥٤
اللغة ٣٥٤
البيان ٣٥٦
الإقبال الى الله ودواعيه ٣٥٧
قصد البيت الحرام ٣٦١
العفو والعافية مرة أخرى ٣٦٥
قوله (ع): (اللهم فاعطنا في هذه العشية... النص) ٣٦٩
اللغة ٣٦٩
البيان ٣٧٠
الله الكافي ٣٧٢
القضاء والقدر ٣٧٥
الخير والشر ٣٧٨
قال (ع): (اللهم أوجب لنا بجودك عظيم الأجر... النص) ٣٨٣

الموضوع . . . . الصفحة

اللغة ٣٨٣
البيان ٣٨٦
لطيفة تاريخية ٣٨٦
دوافع الادخار الممقوت ٣٩٠
معنى الدوام ٣٩٣
الدعاء لأهل الموقف ٣٩٦
قال (ع): (اللهم اجعلنا في هذا الوقت ممن سألك. . . النص) ٣٩٨
اللغة ٣٩٨
البيان ٣٩٨
تعلق الزيادة بالشكر ٤٠١
التوبة المقبولة ٤٠٣
ذو الجلال والإكرام ٤٠٥
مقطوعة شعرية ـ خاتمة البحث ـ ٤٠٦
فهرس الكتاب ٤٠٩